

مطور مائتس
مذكرات
الإسكندر الكبير



نقله إلى العربية مع إضافة هرامس

الطاهر فيفة



Bibliotheca Alexandrina

الشركة التونسية للتوزيع

نسطور مكاتساس

مذكرات

الإسكندر الكبير

عن مخطوط بكابل

نقله إلى العربية مع إضافة هوامش

الطاهر قيفة

الشركة التونسية للنزيع

نسطورماتساس - تعريب فتيحة (الطاهر)
مذكرات الاسكندر الكبير / نسطورماتساس - تعريب الطاهر
فتيحة - الطبعة الاولى - تونس: الشركة التونسية للتوزيع،
1989، تونس: (مطبعة الشركة التونسية للتوزيع باب سعدون)
176 ص، 24 سم.

ISBN 9973 - 11 - 156 - 7

(مسفر)

جميع الحقوق محفوظة

© الشركة التونسية للتوزيع

5 شارع فرطاج - تونس - 1989

الهاتف : 255.000 - تليكس : 15.521

تنبيه لمتّرجم النصّ

شهد هذا العصر نشأة أدب « مذكّرات » عظماء الزمن الماضي. ومن أشهر الآثار الأدبيّة المعاصرة « مذكّرات هادريان » التي نشرتها الكاتبة الفرنسية مارقرت يورسينار التي أحرزت منذ سنوات قليلة على جائزة نوبل العالمية للآداب وانتخبت عضوة في الأكاديمية الفرنسية.

أعجبت يورسينار بشخصية ذلك الامبراطور الروماني ذي الثقافة اليونانية الذي عاش في القرن الثاني الميلادي. فحاولت أن تتقمّص تلك الشخصية الفدّة التي استهوتها للكشف عن خفايا نفس هادريان وإبراز حيرته أمام الوجود وإثارة تساؤلاته أمام سير الأحداث في صيغة مناجاة باطنية. وذلك بالقيام بعمل إبداعي هو من صنع وجدانها وخيالها يقتبس سده من التاريخ الموضوعي وينسج لحمته ويوشحه بمخلجات النفس ورؤى الضمير.

وتناول مؤلف هذه « المذكّرات » وهو الكاتب اليوناني المعاصر نسطور ماتساس شخصية الاسكندر الكبير ملك مقدونيا وصاحب الفتوحات الشهيرة وحاول أن يتصوّر كيف يمكن لذلك الفاتح العظيم ذي الشخصية العنيفة المتمردة والتائهة الحائرة في نفس الوقت أن يحدّد موقعه بين سائر البشر ويستكشف مصيره وهو مدفوع بقوى خارقة تتجاوز قدراته ومتفاعل مع الاحداث الجسام التي يسيّرهما فتسيره. فاختار لهذا اللون من الابداع الادبيّ أسلوب «المذكّرات». وتخيّل أن الاسكندر ربما دفع في يوم من الايام وفي أشدّ حالات المرض والحيرة الى كتابة مذكرات شخصية قد يعود اليها وحده وهي في جميع الحالات غير معدّة لأن يطلع عليها غيره. وادّعى نسطور ماتساس أنّه عثر أثناء زيارته لاطلال مدينة بابل على مخطوط للاسكندر أهدها اياه حارس المدينة. ولا شكّ أن هذا المخطوط لم يوجد

ولم يستلمه الكاتب ولكن ادعاه هذا ضرب من التشويق تنميّه تعليقاته على المخطوط وذكره للمدن القديمة والمواقع التي زارها في آسيا من أدناها الى أقصاها وهو يسير على خطى الاسكندر متتبعا في الاماكن التي مرّ بها الفاتح. وقد رأيت من المفيد أن أضيف هوامش الى النص المنقول الى العربية للتعريف بالمدن والاقاليم التي كانت مسرحا للاحداث وقد فقد بعضها أسماءها القديمة ولتقديم الاعلام الذين قاموا بدور معين في سيرة الاسكندر أو كان لهم أثر عميق في تحديد مصيره الشخصي أو في تكوين الدوافع التي مهّدت لغزاته. وقد حاولت ما استطعت الاقتراب من التسمية اليونانية القديمة عند اثبات الاسماء باستثناء التسميات التي كثر تداولها بصيغتها العربية مثل الاسكندر ومقدونيا وطراقيا وصور وصيدا ودمشق.

وآمل أن تؤدّي هذه الهوامش التي تهدف الى تحديد الاطار الجغرافي والتاريخي والحضاري دورها لافادة القارئ العربي. وبالله التوفيق.

الطاهر قيقّة

نتف من حوار مع رهبان هنود بمدينة بيناريس (1)

الكلمة التي كان ينبغي أن نسمعها
لم تسمع
والنور الذي كان متوقعا أن يضيئنا
لم يضيء
كل شيء حدث في السكون
والظلمة
ولكن في جوف السكون
تكمّن الكلمة — البذرة
وفي قلب هذه الظلمة
يسطع النور المنير
ما هي الحقيقة ؟ أين تكمن الحقيقة ؟
ما هو الزمن الذي عشناه ؟
وما هو الزمن الذي نسير اليه ؟
ان الحكمة الغالية تختفي
في جوف الارض
مثل الحقيقة الحاسمة.
ولن نكتشفها.
فالمهم
هو البحث عنها.

بيناريس أغسطس 1976

معزوفة الاسكندر (2) على المقام الكبير بقلم مترجمه آرّيان (3) النيكوميدي

توفي الاسكندر في الحقبة الرابعة الاولمبية الرابعة عشر فوق المائة (4) في السنة التي تولّى فيها هيقيسيوس (5) زمام الحكم في أثينا. وكان عمر الاسكندر اثنتين وثلاثين سنة و«منح — حسب قول ارسطوبولوس (6) ثمانية أشهر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره. وانتصب على العرش مدّة اثنتي عشرة سنة. وكان رائع الحسن عظيم النشاط ذا ورع شديد وشجاعة نادرة. وكان ترفّعه عن المتعة الجنسية بقدر تعطشه الدائم الى اللذات الروحية. وكانت له ملكة لا يضاهيه فيها أحد وهي القدرة على تمييز العمل الصائب من بين الاعمال الممكنة حتى عندما تعجز حاشيته عن التمييز.

وفي الساعة الحاسمة التي يحل فيها الخطر كان يستطيع بفضل اقدامه أن يقوّي عزائم جنوده ويرفع معنوياتهم ويزرع في نفوسهم الامل. وكان يخطّط لاعماله في صمت وبجسارة فائقة فيبعث الرعب في قلوب أعدائه عندما يشنّ عليهم هجومات مفاجئة ولم يترك لهم مجالا لتوقّع هجومه. وكان أيضا واثقا بقوّته وحصافة رأيه أشدّ الوثوق فلم يَمكّن أيّا كان من مغالطته. وكان مقتّرا على نفسه في لهوه ومرحه. ولكن كان يعرف كيف يبرز مروءته باسعاف من هم في حاجة الى التّجدة. كثيرا ما تعرضت في كتابي لبعض أعماله بالنقد الشديد ولكنّ ذلك لم ينقص من الاعجاب الذي أكنّه للاسكندر.

مقتطف من الكتاب السابع لأرّيان

باب يبين فيه الكاتب كيف حاك هذه الحكاية وصاغها

كتبت هذا الكتاب لمتعتي الشخصية وهوى في نفسي. وان جميع ما يؤلف المؤلفون صادر عن نفس الوازع وهو وازع المتعة التي يريجوها الكاتب من تأليف الكتاب. ومع ذلك تبرز — في بعض الحالات ان لم تكن في جميعها — نية خفية تهدف الى جلب عناية قراء الكتاب واهتمام النقاد والمختصين — سواء أكانوا أكفاء أم لا — وتعتمد تصوّراً مسبقاً لما قد تصدره الأجيال القادمة من أحكام مؤيدة للكاتب أو مفندة له. فالغالب على ذهن الكاتب اذا كتب ومرجعه الاساسي ما يتوقعه من ردود فعل الاجيال القادمة فيتحوّل تأليفه الى عمل فيه ارهاص وقهر لانه يتساءل دائماً عن معاملة تلك الأجيال لكتابه وهل يسمح رجال الغد لبعض صفحاته أن تبقى محل اهتمامهم.

انّي أناطبكم بصدق وبوضوح لم يحملني على التفكير في وضع هذا الكتاب ثم تحريره أي دافع من تلك الدوافع بل كنت مصرّاً على تأليفه لانه صادف هوى في نفسي وكان يعود بي الى حدث مثير من أحداث طفولتي هزّ مشاعري. كان عمري ستّ سنوات واذا بأبي يكشف لي عن شخصية الاسكندر العظيم وهو يعلّق على رسوم ثيوفيلوس (٧) التي أرانيها بجبل بيلون (٨). فأضفت تعليقاته على صورة الاسكندر بعداً أسطورياً. كنت أتصوّره سبعا وإلها في نفس الوقت وبنفس القدر لانه لم يكن يخيفه أي شيء ولانه كان قادراً بمحض قوته على القيام بأعمال جليّة حتى بخوارق البطولات.

وإنّ ذلك الشعور الذي سرعان ما تحوّل في نفسي الى خشوع أمام شخصيّة عظيمة أجهل أغوارها قد صاحبني الى سنّ المراهقة وبالضبط الى اليوم الذي

اكتشفت فيه أثناء زيارة قسطنطينية⁹ «الاسكندر الآخر» في صورة تمثال نصفي للاسكندر معروض في المتحف الاثري للمدينة يعود نحتة الى القرن الثاني قبل الميلاد.

ذلك التمثال على غرار الرسوم التي شاهدتها مع أبي يبرز فرط جمال الاسكندر. وقد صوّره بشعره الكثيف المجعد وعنقه المستوي الذي يعلوه رأس رائع الحسن ومائل دائما الى اليسار. ولكن رغم السكون الذي كان يوحي به المرمر الذي نحت فيه التمثال فإن نظرتة تكشف عن حيرة عميقة أو بالاحرى عن جزع دفين. وإن جبينه الذي خطّ فيه غضنان عميقان يوحي بألم دفين تبدو ملامحه في قسما وجهه. أضف الى ذلك أن حاجبيه يشعران بتقطّب خفيّ يؤكّد الانقباض الذي كان يبدو على وجهه ذلك الانقباض الذي طغى عليه منذ عهد بعيد لاسباب فائقة الخطورة.

ما كنت أعلم أن هذه الرؤية للتمثال المرمرى الذي يمثّل الاسكندر العظيم كانت رؤية خاصة بي أم هل أن الفنان الذي نحت تلك الصورة قد كان يريد إيحاء تلك المشاعر.

وعلى كلّ فرؤيتي لم تتغيّر على مرّ السنين. وتأكدت من ذلك بعد عشرين سنة عندما كنت بصدد اعداد شريط سينائي وثائقي وسلكت عمدا طريق فتوحات الاسكندر وزرت من جديد متحف القسطنطينية وسمعت مرّة أخرى شكواه واسترعى انتباهي جبينه الذي خطّ فيه غضنان عميقان ووجهه الذي تعلوه الحيرة.

واقفيت خطى الاسكندر باصرار تجاوز ارادتي وقواي وطفّت في أقطار عديدة بحثا عن آثار تنير لي حياته واستطعت بلوغ قرى في آسيا لا يصل اليها المسافر الا بعد عناء شديد لامتناعها ووعورة المسالك المؤدية اليها. فأيقنت اني أقترّب شيئا فشيئا من «الاسكندر الآخر» الذي سكنت صورته وجداني وزدت يقينا بذلك على مرّ الأيام.

قد يكون هذا الشعور وليد الخيال وفاقدًا لكل أساس علمي ولكن لا يهمني حكم الناس له أو عليه مادام يشبع نفسي ويرضيها.

ان الكتب العديدة التي كتبها مؤرخون وأشبه المؤرخين عن الاسكندر العظيم والتي طالعها أثناء تلك المسيرة الفردية المتواضعة التي قمت بها للعثور على الشخصية الحقيقية للاسكندر ما أفادتني الا قليلا أو ما استفدت بها قط. أو بالاحرى كانت الكتب التاريخية تساعدني على تحديد الأمكنة وتثبيت تواريخ الأحداث بصورة سطحية (ولو أني أعتقد أن هذا الموضوع لم تتناوله كتب تاريخية بأتم معنى الكلمة).

لقد استرعى اهتمامي — من بين كتّاب سيرته — أريان وربّما يعود سبب اهتمامي بهذا المؤرخ دون غيره الى أنّه حاول أن يقوم بتحليل نفسي للاسكندر العظيم متجاوزا الدراسة التاريخية الصرف.

لقد ولد هذا المؤرخ بنيكوميدا وتعلّم بمدينة أثينا في عهد انحطاطها الثقافي والفني. وكان طالبا نجيبا ثم سافر كثيرا وزار الاماكن التي مازالت تحتفظ لقرب العهد بالاحداث بروايات مازالت حيّة نابضة لاسطورة المقدوني القلق. ولكن الأهم — في نظري — هو أن أريان بحث عن الاسكندر لا بالطريقة الموضوعية المجردة من كل عاطفة التي يتوخّاها الباحث عندما يقوم بدراسة تأريخية ولكن بحث عنه انطلاقا من خلجات نفسية شبيهة بتلك التي تختلج في نفس الحاجّ عندما يغمره الخشوع ويسمو به عمق الايمان.

لا شك أن أريان يصدر أحكاما قاسية وقاسية جدا عندما يتناول بعض أعمال الاسكندر الكبير وبعض ردود الفعل التي يواجه بها الاحداث أو يسلّطها على العباد ولكن تلك القسوة في أحكامه تختفي في بعض الفقرات الاساسية من كتابه ليحلّ مكانها التعبير الصريح عن اعجابه العميق بالرجل. ويتجلّى ذلك في ملاحظات كهذه :

« لم يكن الاسكندر العظيم مدفوعا بأيّ وازع حقير أو تافه بل أنّه ما كان ليقتنع بكل الاقطار التي احتلّها... ».

أو

« لو لم يجد أحدا يتبارى معه لتبارى مع نفسه... »

أو

« لم تكن آية أمة في ذلك الزمان ولا آية دولة تجهل اسم الاسكندر العظيم ولا أي انسان أيضا ».

أو

« ولو أنه حدث لي أنني انتقدت بعض أعمال الاسكندر فأني أعترف بدون أي تردد أنني معجب به... ».

وانّ تعلّقي بتأليف أريان الذي سمّاه «غزاة الاسكندر» فبدا للمطلّع عليه لا من عنوانه فحسب بل من أسلوبه أيضا صدّى لسيرة بديعة كتبها قبله كسينوفون⁽¹⁰⁾ عن الملك كورس⁽¹¹⁾ وعنوانها «غزاة كورس» لا يعلّله اعتماد المؤلف مقاييس تاريخية دقيقة وإنما أنا مغرم بذلك الكتاب الجميل الذي ألفه أريان بسبب ما يحويه من دفء انساني.

لقد برهن صاحب الكتاب عندما كان واليا على اقليم كبدوكيا⁽¹²⁾ عن كفاءته العالية في تحمّل مسؤوليته المدنية والعسكرية معا وكان في الاساس من أتباع الفيلسوف ابيكتيتوس⁽¹³⁾ وخصّص له كتابا عنوانه : « أحاديث مع ابيكتيتوس » يطفح بالحبّ والاعجاب.

فقد توفّرت عند أريان الشروط الاساسية وخاصة منها الشروط العاطفية «لفهم» شخصية الاسكندر الفهم الصحيح. ومعنى ذلك أنّه لم يقتصر على التعرّف على شخصية البطل الذي لعب دوره في التأريخ بل تجاوز ذلك الحدّ للتعرّف على الرجل الفرد الذي «كانت تلتهم نفسه رغبة ملتهبة»⁽¹⁾ وعارمة لالتقاط الاخبار ونيل المعرفة واخضاع الشعوب لقوّته ونزوات ضعفه وتسخير الافكار والاصقاع والعباد والشهوات والخصال الحميدة والخير والشرّ لارادته. لا يفرق بين جميعها بل كانت تبدو له مجمّعة رغم تنافرها في كتلة واحدة لا يكسرهما كاسر لأنّ جوهرها واحد.

(1) استعمل أريان هذه العبارة في كثير من الفقرات وفي مناسبات مختلفة.

ذلك هو سبب تعلّقي بأريّان. وذلك التعلّق به كان لي سنداً عندما عزمت على كتابة «غزاة الاسكندر» كما أتخيّلها.

كثيراً ما سمعت صوته في المدن البعيدة التي واجهت المخاطر لزيارتها. وهو يقصّ عليّ بطولات من استطاع أحسن من أيّ امرئ قبله أو بعده أن يصبح «سيد جميع البرور وجميع البحار».

ولكن حانت ساعة نسيان المطالعات والرحلات وساعة مفارقة كاتب السيرة النبيل الذي يرجع منبته الى اقليم نيكوميديا ذلك الرجل الذي حظي في حياته برعاية الامبراطور هادريان⁽¹⁴⁾ الذي كان يكنّ له — كما أعتقد — تقديراً بالغاً حيث أنّه اصطفاه من بين الضباط الآخرين اليونانيين والرومان على حدّ سواء الذين يكونون حاشيته فعينه واليا على اقليم كبّدوكيا.

عثرنا على وثيقة تقرّب لنا «الاسكندر الآخر» الذي أهمله التأريخ خشية أو جهلاً والذي دفن في «مكان مجهول» فلم يعثر على قبره.

بابل (15) في يوم من أيام الصيف الحارس تزيلال والمخطوط السري

بابل في يوم ثقيل من أيام الصيف. الشمس تحرق الارض العارية. بدأ الزفت يذوب في الطرق التي تخترق الاطلال الحزينة التي تثير في النفس ذكرى الملوك الاولين الذين حكموا تلك المدينة الميتة الآن والحاوية على عروشها. كنت واقفا منهار القوى اذ عثرت على نقيشة تدلّ على أن «حدائق بابل المعلقة» (16) وهي احدى عجائب الدنيا كانت موجودة في المكان الذي انتهت اليه. لم يبق من تلك الحدائق أي أثر وما كان يظنّ أنّ نبات ذلك الفضاء الرحب الذي لا ينبت شيئا.

وبقيت واجما يغمرني حرّ جهنمي. واستلقيت على صخرة أثرية وأنا خائر القوى.

وكان حارس الموقع الاثري نائما غير بعيد على أطلال الدرج الملكي وقد اضطجع منطويا.

كنت أجهّد لتركيز انطباعاتي وتنظيم الصور التي كانت تزدهم في مخيلتي ولكن بدون جدوى لأنّه عندما يشتدّ الحر في الهجيرة يفقد المرء جميع قواه. وكان الاعياء الشديد يغمض جفوني ويحجّف حلقي.

وكنّ لا أنقطع عن النّظر من وراء ضبابة متلونة تلوّن الماء الى نصّ النقيشة التي تعلن بفخار عن موقع «الحدائق المعلقة».

ثم اضطجعت منطويا كما فعل الحارس الشيخ واستسلمت الى الفتور الذي ينتاب المرء عند الظهيرة.

كانت الشمس قد غربت منذ حين لما استيقظت وبدأ الظلام يغمر المدينة الميتة.
وكان نهر الفرات يسيل من ورائها متباطئا في مجراه.
كنت وحدي في بابل العتيقة. أنهكني الحرّ وأضواني فتور عجيب ولكن كنت
وحدي. كنت أريد أن أحسّ بنفسي دائما في هذه الحالة وأن يملكني شعور طاغ
ومطلق بالوحدة، شعور أسيطر عليه ويسيطر عليّ في آن واحد، شعور يملأني أسى
ويحل عقالي في نفس الوقت طوال حياتي الى ساعة الممات. وعندما عمّ الظلام
أتاني تزيلان وقال لي :

- أنا حارس الليل ببابل.

وكان شيخا طاعنا في السنّ لا يعرف تأريخ ميلاده. فسألته قائلا :
- ماذا تحرس هنا ؟ لا أرى أيّ انسان.

قال :

- الاشباح. لقد ملأوا هذا المكان.

- أيّ خطر يريدون ابعاده.

بقي الشيخ صامتا ثم أخرج من جلبابه علبة من عظم ومدها لي وهو يقول :
- تفضّل.

كان يعرض عليّ أوراقا مفتّنة من الحشيش قائلا :

- امضغها فأنك تحسّ بعدها بالراحة.

واعتذرت فسددت الي نظرة حزينة وأخذ يمضغ فتات الاوراق وهو يحرك شذقيه
بلطف وبصورة منتظمة حتى رأيته ينزلق شيئا فشيئا في بحر الاوهام. ثم أخذ
يتحدث بطريقة خاصة وبصوت هادىء صاعد من الاعماق مليء بالتموجات مفعم
بالنبرات الغريبة. كان يشخّص لي المكان وأطيافه وملوكه المضطجعين بين الاطلال.
وبقينا معا الى الفجر. وعندما بزغت الشمس من وراء التّخيل وبدأت تلمس
أشعتها الاولى مياه الفرات قام يستعدّ للانصراف وقال لي :

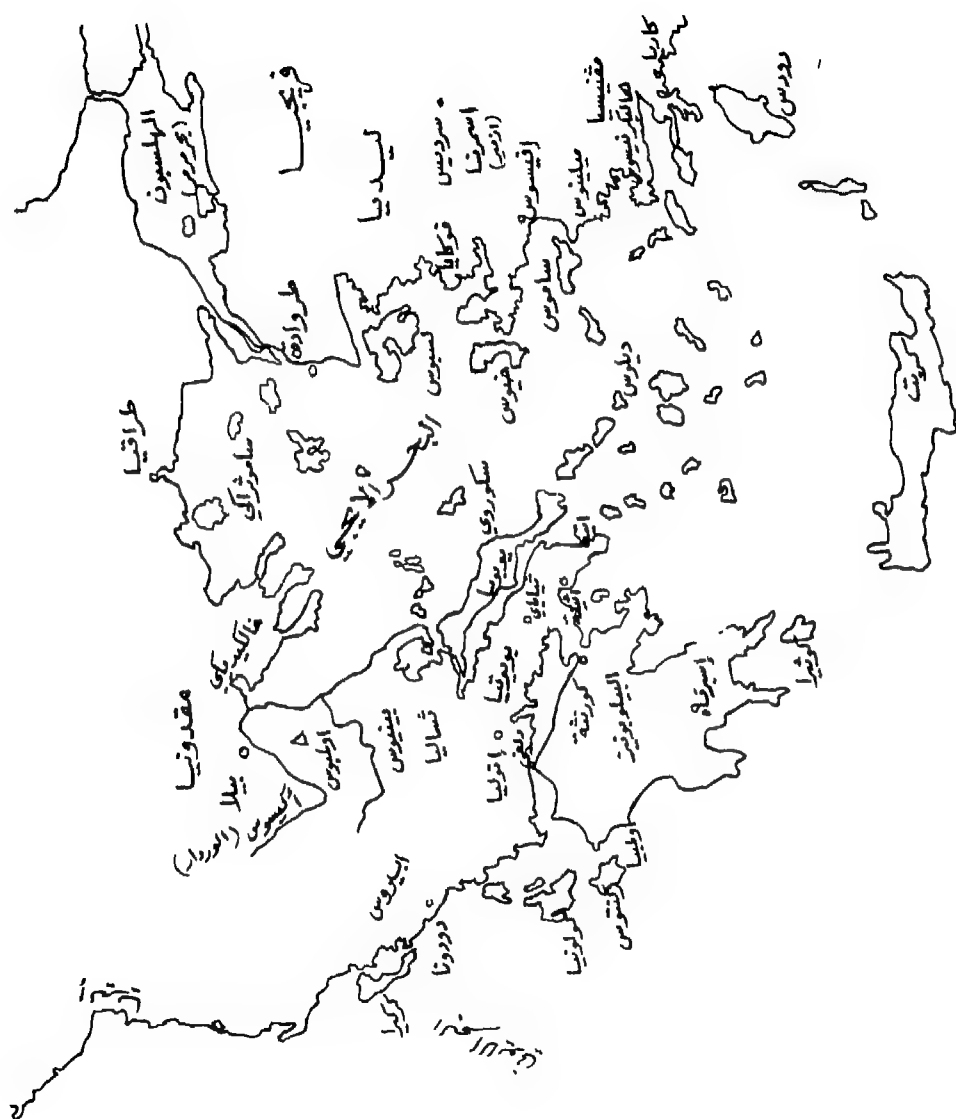
- اذا مازلت مقيما ببابل فأني سوف أراك الليلة.

وأخرج من جلبابه حزمة من الاوراق التي تمزّق بعضها ووضعها أمامي وقال :
- هذه الاوراق لك. كنت أعلم أنك ستأتي يوما فاحتفظت لك بها فقلت :

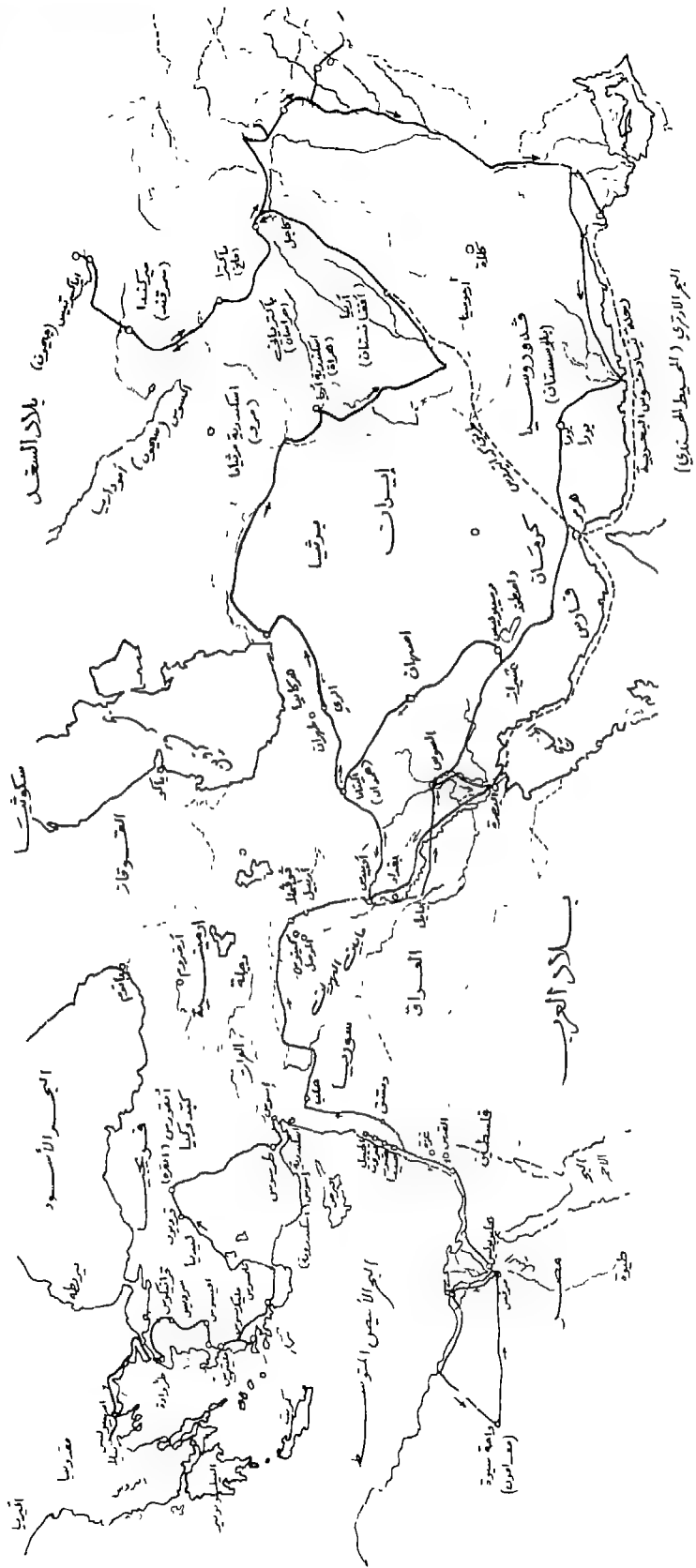
— ما هذا ؟

فقال :

— هذا مخطوط قديم جدا نسخه أبي عن لفيفة من البردي عثروا عليها في غار يوجد هنالك في أقصى المدينة العتيقة.
وانصرف ولم يترك لي الفرصة لانطق بكلمة واحدة لانه ما ان تحركت شفتاي حتى اختفى الشيخ وراء أطلال باب إشتار.
وأنا منكب منذ تلك الليلة على ذلك المخطوط أرّتب صفحاته ولا أعرف مدى الوثوق به ولكن — مهما كان الامر — فهو مخطوط يكشف عن كثير من الأمور.
وها أنا أقدم بخشية من الكتاب بعض صفحاته دون ادخال أي تعديل عليها.



بلاد اليونان



غزوات الاسكندر الكبير : خطوط مسيرته

بداية سيرة الاسكندر الكبير أو خوف إله

ليس من الميسور أن أقتطع من حياة ملآنة مثل حياتي بعض العناصر لاثراء السيرة التي أنا بصدد وضع خطوطها العريضة.

ولكن حيث أنني أجد نفسي ملازما للفراش بسبب جرح خطير في كتفي أصبت به أثناء احدى جولاتي الجريئة فأنني أحاول جمع بعض شظايا ذكرياتي كلما اندلعت على سطح ذاكرتي دون أن أدخل عليها تسلسلا منطقيا كما لو كنت ألعب لعبة ممتعة ومؤلة في آن واحد. شأني في ذلك شأن صنّاع الفسيفساء في مدينة بيلا⁽¹⁷⁾ موطني الذين يصنعون مشاهدهم العجيبة بترصيف مكعبات مبعثرة.

بقيت حياتي في مجموعها لغزا لا فقط في نظر المؤرخين والفلاسفة الذين تبعوني في الحملة التي قدها لجمع عناصر كتاب كانوا يريدون تأليفه ولكن بالنسبة التي أيضا.

أعلم أن كثيرا من الناس سيتناولون حياتي بالشرح والتعليق بعد موتي. سيحاول كلّ واحد منهم أن يعلّل بطريقته الخاصة أبسط أعماله الناتجة عن محض الصدفة أو عن مقتضيات عسكرية صرف لأنه لم يستطع أيّ انسان تجنّب الوقوع في هذا الشرك. لم يقدر على اجتناب ذلك الحيف شاعر أو رجل سياسة. ولم أقدر أنا أيضا على تحاشيه لأنني أصبحت منذ عهد الشباب ومنذ فعلة خيروي⁽¹⁸⁾ بالضبط «شخصية تاريخية».

تعود بي الذكرى الآن الى معركة خيروي. لا أشعر بالحاجة الى تبرئة ساحتي من أوحش جرم اقترفته في حياتي. أنا أيضا لم أستطع الى الآن أن أكتشف الدوافع التي حملتني على ترك جنودي الغاضبين يبيدون «الكتيبة المقدسة»⁽¹⁹⁾ في حين أن أرسطو طاليس⁽²⁰⁾ قد نوّه أمامي ببسالة رجال الكتيبة وأشاد بالصدافة المستترة

التي تربط بينهم. وكنت أنا أيضا معجبا بهم في طفولتي أبحث بدوري عن صديق أحبه حبا عميقا ومقدّسا شبيها بما يكنّه لبعضهم رجال الكتيبة المقدسة.

أقول أحيانا لنفسي : ربما كان عزمي على معاقبة مدينة ثيباي (21) هو الذي أثار تلك النوبة من الغضب الجنوبي. فاذا كانت ثيباي تستحق العقاب الذي سلط عليها فلماذا شمل غضبي الكتيبة المقدسة ؟ لماذا صدر عني ذلك القرار الشنيع باحراق المدينة وتقتيل جميع سكّانها ولم أستثن منهم الجنود البواسل المنضوين تحت لواء الكتيبة المقدسة الذين يؤمنون بأن الصداقة هي الدائمة في مسيرة الحياة والباقية بعد الموت وبأنها قوّة تمنح الخلود للبشر الفاني ؟

أدركت ذلك المعنى بعد تلك المفاجعة بمدة طويلة عندما وجدت نفسي متنقلا بين أطلال طروادة صعبة هفستيون. وكنا قد درسنا معا في نفس الفترة من شبابنا الالياذة (22) وفهمنا معا ما ينطوي عليه غضب أخيلوس (23) عندما سقط باتروكلوس (24) صريعا في ساحة الوغى. غضب أخيلوس هو نفس الغضب الذي يساور جندي « الكتيبة المقدسة » ويحوّله الى سبع ضار عندما يشاهد أن رفيقه قتل أو جرح بجانبه بنبل العدو. فأنه ينسى كل شيء في تلك اللحظة ولا يبقى له الا همّ وحيد يستولي على نفسه وهو الانتقام من العدو الذي أفقده أعز رفاقه. انه يعرّض بحياته لبلوغ غايته ولا يهتم من الامر شيء. ويفارق هذه الحياة الدنيا مرفوع الرأس لانه فدى أخاه وتستقبله الآلهة الخالدون ويفسحون له مكانا للجلوس بجانبهم كما لو كان إلها لحضور ولائم الاولبوس.

ولكن لا أريد أن أفكر في شيء خلال هذه الساعات الثقيلة التي أحيها وحيدا في بابل. لا أريد أن أفكر في الاشخاص الذين أحبهم ولا في هفستيون لاني خائف.

أنا خائف. كيف انفلتت منّي هاتان الكلمتان ؟ ما بي أنطق بهما ؟ أنا وحدي. ولن يسقط هذا المخطوط بين يدي صديق أو عدو. سأترك أمرا صريحا باحراقه بعد موتي حتى لا يبقى بعدي منه أي سطر. واذا بدأت بتحريره فلأني في حاجة الى الاستماع الى صوتي وأنا لم أنصت الى نفسي الا في لحظات قليلة جدا من حياتي. وذلك لأنني كنت أشعر بالخوف. أنا أتردّد عندما أنطق بهذه الكلمات. ولكن لا أتردّد في كتابتها لأنّ موجهة الي فقط. ليت أعدائي الذين يرتعدون لسماع اسمي

لا يعلمون مطلقا أنه كثيرا ما خفق قلبي جزعا واصطكت ركبتي وانقطع عني النفس.

لم أخش الموت قط. ولم أخش أعدائي مهما كانوا شدادا ومهما كان المكان الذي صارعتهم فيه أثناء معمة طاحنة موحشا أو مزعجا ما شعرت بالخوف في اسوس (25) ولا في فوقمالا (26) ولا في صور (27) ولا في السوس (28) ولا في باكتريان (29) ولا في تاكسيلا (30). كنت أخاف من ذلك الشخص الآخر الذي كنت أحمله في قرارة نفسي، ذلك الشخص البعيد الغور الذي التقيت به لأول مرة في بيلا عندما بلغت السادسة من عمري.

دعا أبي مؤدبين وكلفهما بتريتي وهما ليزيماك الاكارناني ولييونيداس الابيري. ما كنت أعلم هل كان يثق بهذين المؤدبين لأن أبي ما كان يثق الا بي. ولكن كان مصمما على تخليصي من تأثير أولمبياس (31). كنت ملازما لها ومتعلقا بها الى حد أنني ما كنت أشعر بالسرور عندما أتسابق مع صبيان حاشية الملك في حديقة القصر أو أشاركهم ألعابهم. كنت أحب أن أضع رأسي على ركبتيها لاستمع اليها مدة ساعات وهي تذكر لي آله مصر وطنها البعيد وتقول لي إنك أنت أيضا اله.

سألته يوما عن معنى كلمة إله فقالت :
- هو الذي لا يخاف من شيء ويخافه جميع الناس.

فقلت :

- هل أنا إله ؟

قالت :

- نعم. أنت إله

قلت :

- لا أعرف الخوف ؟

قالت :

- لا ينبغي أن تخاف. وعندما تذهب الى مصر لزيارة الاله أمون ستدرك هذا بصورة أفضل.

قلت :

– متى أذهب الى مصر ؟

قالت :

– في الساعة التي تحسّ فيها بأنك متهيّء لذلك.

عندما خاطبتني بهذا الخطاب في المرة الاولى أحسست بسرور عميق ولو أنّي لم أفهم قصدها بوضوح. كان يلدّ لي أن أعلم أنّي لا أخاف وأنّ غيري يخافني. ذلك ما جرى لأبي وقد كان أصدقاؤه الاقربون يخافونه في قرارة أنفسهم.

ولكن عندما أنعمت التفكير أدركت ما معنى الخوف.

الخوف مصدره ذلك الشخص الآخر الذي لا ينتمي الينا بسبب ولا نريد أن يحلّ محلّنا ولكننا نحمله مع ذلك داخل أنفسنا فيضع بفضل ما أوتي من قوّة و ارادة بصماته على حياتنا وأعمالنا.

لم يقترب من هذه الحقيقة أي كاتب فاشل ولا أي مؤرّخ ممّن تناول حياتي بالدراسة. يا للمساكين ! لم يتناولوا الا المظهر الخارجي للاحداث ذلك ما صنعه آرّيان وبلوتارخوس (32) واثيني (33) وكثير مثلهم. ولكن لم يعيش أيّ منهم بالقرب مني ولا في عصري ولم يعرفني منهم أحد. فكّل ما كتبوه مقتبس من سير تناقلها الناس وسارت بها الركبان ولم يصدر عن تجربة شخصية قاموا بها. وهكذا بقيت أنا صانع التاريخ بدون مؤرّخ. ولعمري انه نصيبي ونصيبي هذا حلو ومرّ في آن واحد لانه لم يشهد أحد قلقي ووحدي وخوفي ولم يسمع أحد همسي من وراء صراخي ولا صوتي الانساني من وراء الصيحات التي أطلقها أثناء المعارك.

أراد المؤرخون كما فعلت أُمّي أن يجعلوا منّي ازاء الأجيال القادمة إلها أو شيطانا لكن غفلوا عن الانسان فيّ.

بعض المعطيات عن نشأة الاسكندر

وعن أبويه فيليبوس وأولمبياس

ولدت بيثلا في سنة 356. هو أول رقم أورده في هذه المناجاة التي أسار بها نفسي وسيكون هو الوحيد لاني لم أمنح في حياتي قط أي مصداقية للضبط بالارقام ولم أعرها أي اهتمام. فالارقام تقلص الاحداث والافكار وتجففها.

كان أبي فيليبوس الثاني جنديًا وملكًا. وكانت ميّزات الجنديّ فيه غالبية على صفات الملك. وكان قادرا على أن يحمل نفسه أشدّ الحرمان وأن يفرض عليها أقسى الانضباط. وتبين على مرّ الايام أنّ له من الطاقة ما يستطيع بها أن يكسب الآخرين تلك الميزات وأقصد بالآخرين أولئك الذين صاحبوه في حملاته العسكرية بدافع الضرورة أو الخشية.

لم أر أبي الا في مناسبات نادرة ولم أتعرف عليه في صباي. وقد كان غائبا في أغلب الاوقات لانهماكه في حروب طويلة. وعندما يعود الى بيلاّ منهوك القوى ومنشغل البال ينكبّ على اعداد غزوات أخرى ويدعو الى احتفالات تدوم عدّة أيّام.

هل كنت أحبه؟ ذاك ما لا أستطيع أن أوّكده ولكن كنت معجبا به إعجابا كبيرا لبأسه وحزمه وجلده وثباته. وكان يعتقد أن ليس لطاقة الانسان على العمل جدود ما عدا حدود ارادته. وكان كثيرا ما يصدق بذلك. وهو ممّن يعرف كيف يصرف ارادته.

كان طبع أمي مخالفا لطبع أبي ولا يجمعهما الا الاشتراك في خصلة واحدة وهي الثبات. وإذا استثنينا ذلك الثبات الصارم في خطّ طريقها في الحياة الذي كان يميّزها فإنّ أمي كانت تعيش في عالمها الخاص المملوء بأشباح تبرز بغتة فتبدّدوا أمواج من الأنوار الباهرة. وكانت تنتقل باستمرار بين حالتين متناقضتين حالة يغمرها فيها الظلام وحالة يشعّ فيها النور فيبهرها وهي متشنّجة الاعصاب محتدة الفكر في كل لحظة.

هل كانت تقية أم متزمتة ؟ هل كانت تصغي الى وحي إلهي أم هل كانت بصورة أكثر بساطة مدفوعة بطبعها الجامح الى ضرب من الهيجان ؟ هل كانت تستطيع فعلا الاقتراب من مقام الآلهة عندما تنغمس في حالات الذهول التي تلمّ بها أم هل كان يصيبها من حين لآخر وسواس مرضي يرجع عهده الى الزمن الذي كانت فيه احدى المتعبّدات في معبد «الكبير»⁽³⁵⁾ بجزيرة ساموثراكي⁽³⁶⁾ تشارك في اقامة الطقوس السريّة الليلية تمجيدا للآلهة القدامي أصحاب النبوءات ؟

ما كان أحد يقدر على ايجاد مبررات لسلوكها وما كانت هي أيضا تدرك ما أصابها.

ولو أنها كانت تنتمي إلى أسرة ماجدة من اقليم ابيروس⁽³⁷⁾ وكانت تفخر بذلك فانها تستسلم لنوبات عنيفة ووحشية تزرع الذعر في قلوب نساء حاشيتها. قد يكون ذلك الحلق الذي يهزّها أحيانا ناتجا في الحقيقة عن شعورها بالوحدة والغربة بمدينة بيلا لأنّها كانت فعلا غريبة بين من يحيط بها من الناس وكانت خاصة تشعر بالغربة بجانب فيليبوس.

كان هذا الاخير يهين فيها الزوجة والملكة معا. فكانت تحسّ بالاهانة عندما ترى زوجها الذي عرفته في ساعات وجدها وذهولها قد عاد لا يعبأ بها فيدعو لمصاحبتة في الولائم التي يقيمها فتدوم أياما نسوة لا ترضى بهنّ خادومات لها.

كانت تتنازعها أفكار وأهواء مختلطة دوما. وكانت في آن واحد فريسة العقائد والخواف ونزوات القلق واغراءات الطموح.

كانت تلجأ اليّ كلّما أرادت مقاومة حيرتها الدائمة والذعر القاسي الذي كان يخنقها. كنت في نظرها امتدادا لها والابن الذي هو وليد ثورتها ونشوتها. أنا ابن إله ولا شك في رأيها ! وهبت قوّة تتجاوز قوة البشر. وكلّما تقدمت في السنّ وأصبحت أدرك شيئا فشيئا أن انتسابي للآلهة أمر له خطورة بالغة شعرت بوازع يدفعني الى البحث عن سلّاتي من بين الآلهة الذين يقع الكشف عن أسرار وجودهم أثناء الطقوس الدينية السريّة التي تقام في معابد مصر⁽³⁸⁾ في ذلك القطر الذي تحمل فيه الحكمة طابع المجهول والذي يحافظ فيه أبو الهول⁽³⁹⁾ بصمته المهيب على سرّ مصير البشرية من وراء الحياة والموت. سوف لا يتصور النّاس الذين سيعيشون بعد آلاف السنين على سطح الارض ويهتمّون بعبوري القلق في هذه الدنيا كيف ولد هذا الايمان الراسخ في نفسي وكيف مدّ فيها جذوره.

كنت فطنا وقويّ الشخصية فلم تجد تحريضات أولمبياس طريقها الى نفسي. كثيرا ما عاملني من عاصروني معاملة تطغى عليها حيرة امتزجت بالحيطة والتهكّم. كان أومان صديقي الحميم وأقرب أصدقائي اليّ الى حدّ أنّي أوكلت اليه مهمة تسجيل جميع أحداث حملاتي العسكرية في سجل «اليوميات الملكية» يسألني في كثير من المناسبات هل كنت فعلا أصدّق من يدّعي أنني من سلالة إلهية. وكان لأومان عقل راجح لا يفقه اللامعقول فكان يرفض أن أكون من سلالة إلهية في حين أنّ هذا الادّعاء قد تحوّل في نفسي الى عقيدة راسخة لآتي كنت مدفوعا الى تحقيق أمور تتجاوز طاقتي البشرية.

وعندما أنعم أومان النّظر بتجرد في ذلك الرأى راق له الأمر لان نشر هذه العقيدة كانت تمكّنه من مادّة ضخمة يغدّي بها «اليوميات الملكية». فالشعوب جميعها تتميز أساسا بالبساطة والسذاجة وعدم الخبرة والجبن فتقبل بصدر أرحب أن يسودها إله يكون خلاصها على يده بدل أن يكون الماسك لزمام أمرها مقاتلا طموحا.

وعندما اقتنع أومان بوجهة النّظر تلك التي تلائم لباقتة الدبلوماسية كفّ عن النقاش معي بشأن سلّاتي الإلهية وكأنّه أصبح مقتنعا بصحة ذلك القول بعد

انتصاراتي المتوالية. وكأنه كان يقول لنفسه أن هذه الانتصارات الباهرة العديدة لا يستطيع أن يحققها رجل ولو منحتة الطبيعة قوّة وعزما وطموحا منقطعة النظير. فلا بدّ أن يكون ذلك الرجل مدفوعا بقوّة لا تخضع لأيّ معيار منطقي، أي لا بدّ أن يكون قد سكنه إله وضع في يده السيف وألهم قلبه الجلد وملأ روحه رؤى. ومن بين تلك الرؤى التي كانت تلازم ذلك الرجل الذي هو أنا صورة عالم رحب ليس له حدود وقع يوما توحيده فأصبح جميع الناس فيه يتكلمون بلغة واحدة، وامّحت فيه الفوارق بين يونانيين وعجم، ولم يبق في الأرض الا بشر متساوون مهما اختلفت ألوان بشراتهم، وتنوّعت أجناسهم، ومهما كانت صفات الاله أو الشيطان الذي يعبدونه.

المؤرخون الفاقدون للوعي التاريخي صيد الاسد

أسجل الملاحظات التالية دون ترتيب لها كلما خطرت الانطباعات والصور بذهني وأنا أصارع الحمى التي أقضت مضجعي. ومهما يكن من أمر ومهما كانت قيمة ما سأكتبه فإن ذلك لن يمنع الكتاب المفلسين والمؤرخين من اختلاق حكاياتهم. ولو سقطت بين أيديهم اليوميات التي يسجل فيها أومان يوميا الاحداث بحرص الدارس الدقيق فإنهم سيكونون مع ذلك حريصين على ابداء آرائهم الشخصية بشأن حياتي وأخطائي ومرضتي...

أتخيل الجهود التي سيبدلها بعض المؤرخين قصيري النظر. سيتناولون بالدرس أكواما من الكتب ويتعاملون مع مفاهيم غامضة لحل لغز « الاسكندر بن فيليبوس » أو « الاسكندر بن أمون » على ضوء رأيهم في نسبي. ما هي المراجع التي سيعتمدونها ؟ سيرجعون الى رسائل متأخرة عن الأحداث بجيل أو جيلين ويبحثون عن مصداقية أصحابها وتاريخ تحريرها لاستنتاج نتائجهم. ولذلك لا يستطيع أي كان ضبط الاحداث التاريخية كما حدثت ولا تقديمها في بساطتها ووضوحها حسب خط مستقيم بل دأب جميعهم في محاولة إعادة قراءة للاحداث اعتمادا على مجموعة من التعليقات نشرها أناس بعيدون عن الأحداث يحررون تأويلاتهم وهم متأثرون بالحالة النفسية التي يعيشونها في الساعة التي يكتبون فيها. فالوضع مثلا يختلف اذا كان المعلق مرتاحا أو كان مصابا بألم في معدته من جرّاء السكر. شأنه في ذلك شأن صحبي عندما يحاول هؤلاء المساكين مباراتي في احتساء الخمر أثناء الولايم

قائلين : اذا كان ملكنا قادرا على شرب هذا القدر المهول من الخمر فلمَ لا نقدر مثله على ذلك. وعند طلوع الفجر تراه صرعى ومنبطحين على الارض فيأتي الجنود لحملهم محاولين ايقاظهم بصب الماء البارد عليهم. اذن كيف يستطيع المرء كتابة التاريخ وهو يحسّ بألم في معدته وكيف يمكن لاحد أن يدرس سيرة الاسكندر بتجرّد اذا لم يشعر بأي ميل نحوه واذا كان يستنكر اراقته لدماء أقوام عديدين طوال مسيرته ؟

ومهما كانت صفات الذين سيكتبون سيرتي فاني لا أوصيهم بشيء بل أتمنّى لهم التوفيق... سأرسم وحدي هنا في بابل في هذه المدينة التي أحببتها بكل جوارحي الخطوط العريضة لسيرتي التي لن يعيها أيّ انسان ولو وعيا خفيفا.

أرسم لمساتها العامة وأنا أرتعد من أثر الحمّى. وسأواصل هذا الجهد ما أمكن رغم عتاب صحبي أو بالاحرى عتاب من بقي منهم على قيد الحياة ولم يسقط في ساحة الوغى أو لم يلق حتفه بيدي في نوبة من نوبات غضبي وأغلب نوباتي جنونية لا يتحكّم فيها العقل.

كانوا يخشون تفاقم علّتي لانه لم يهدأ لي بال في تلك الايام الشاقّة التي كنت أقاوم فيها المرض.

قلت انهم كانوا يخشون تفاقم علّتي والاحرى أن أقول أيضا ان بعضهم كانوا يتمنّون موتي. لماذا ؟ لأنّ مسألة خلافتي كانت محلّ تخمينات ومناورات. كانوا يتساءلون عن مصير هذه الامبراطورية الضخمة التي فتحتها اقليما اقليما ومدينة مدينة. كانوا يفكّرون في كيفية اقتسامها بينهم والى أيّهم سيعود نصيب الاسد.

ما أحققهم ! لا يعلمون أن الممالك لا تورث ولا تهدى ليقع اقتسامها واثما يفتكها ذو القوّة والدهاء. واذا منحت المملكة ومنح معها جيش قويّ لحمايتها لمن لا يقوى على مسكها انتزعت منه وهو لا يشعر. لا ينبغي أن تؤول الممالك الا لانسان واحد لا غير وهو الرجل الذي له من البأس و الشدة ما يجعله قادرا على حمايتها اما بقدرته على فرض طاعته أو على زرع

الخوف في القلوب. وفوق كل هذا وبمعزل عن كل التأويلات تستقر الممالك
إذا دبّر أمرها قائد حازم له حضور مستمر في أذهان رعاياه.
أراقب حركاتهم أثناء الولايم التي أدعوهم إليها. يديمون النظر التي باحثين
عن خفايا نفسي ويلتمسون مني بالحاح وفي صمت نظرة عطف، وعندما
يظنون أنني لست منتبها اليهم يتهايمون بينهم. يريد كل واحد أن يعرف نوعية
العلاقة التي تربطني بصاحبه وهل طرأ لي أن حادثت صاحبه يوما في أمر
الخلافة.

كنت أشاهدهم يتخاصمون من الآن لتحديد من ستكون له الغلبة
ويحاولون جاهدين محو آثاري في ذاكرة الشعوب حتى لا يقارنوا مستقبلا بيني
وبين من سيمسك زمام أمرهم بعدي.
سوف لا يبقى من أخبار عبوري في هذه الدنيا أي خبر لم تمسه أيدي
العابثين، سوف تبقى في أفضل الاحتمالات أصداء غامضة سرعان ما تتلاشى
في خضمّ الإعصار الذي سيعصف في الفترة القادمة.
ان القواد الذين رشحوا أنفسهم لخلافتي يذكرونني بما كنت أشاهده أثناء
صيد الايل في موطني بيلا :

كلّما خرجت الى الصيد مع كراتيوس الذي كان يصحبني دائما
واقننتصت أيلًا دفعته الى الحرس الذين يتبعوننا ليقسموه بينهم وانتحيت مع
كراتيوس ناحية للتحادث. وعندما يمسك الحرس الدابة المقتنصة يبادرون
بالشجار للاستيلاء على أحسن قطعة من اللحم. واذا ظلّوا أننا غير ملتفتين
اليهم لانهما كنا في الحديث بلغت بهم الدناءة الى التلاكم وتمزيق الفريسة إربا
إربا حتى لا يبقى مجال لقسمة عادلة.

سيتواصل اقتسام الايل مدى الدهر وسيتحف الزمان الملوك دوما بجلساء
متملّقين أنزال وعبيد وكلاب جائعة يدفعهم نهمهم الى التهام قسمتهم من
الغنيمة التي لم يغنموها.

انخفضت درجة الحرارة منذ أمس. ولكن لا أريد أن أرى بمقربة من فراشي
أحد الاطباء الذين يكونون عصابة «الدائرة الملكية للصحة».

ما أحققهم وما أجهلهم ! لم يكن أحدهم في مستوى الثقة التي وضعتها فيهم جميعاً حتى قلوبكياس الذي لم أحشره في زمرة هؤلاء السفاحين. لقد ترك هفستيون أعزّ صحتي يموت. فبرهن بذلك عن عجزه عن اسعافه في حين أنني كنت متيقناً أنه قادر على انقاذه. كان هفستيون ذا بنية قويّة وكان يتحمل الصعاب أحسن منّي. وقد برهن على ذلك الجأش أثناء قطعنا لجبال الهندوكوش⁽⁴⁰⁾ الشاهقة عندما خارت قوى أشدّ ضباطي وجنودي جأشاً لأنهم لم يتحمّلوا التغيّر السريع للطقس من البرد القارس الى الحرّ المفرط.

كان هفستيون يتحمل تلك التغيرات المباغتة للطقس. ويحافظ على شهية الاكل وعلى القدرة على المداعبة وكان يؤكّد لي أنّه سيتبعني الى أقصى الارض.

ماذا طراً عليه حتى وافته المنية بتلك السرعة وبصورة مباغتة ما ان أحسّ بالمرض في حين أنني حدّرت قلوبكياس والاطباء الآخرين وقلت لهم جميعاً اني أحملهم مسؤولية مآل صاحبي المحبوب ؟ لم يهتدوا الى علاجه أو لم يعبأوا بما قلته لهم غير مقدّرين لاثّر موت هفستيون في نفسي. واثّره لاثّر عظيم لا يستطيع أيّ كان أن يقدر مداه.

أنا أعلم أن التاريخ لن يغفر لي — من بين المآثم التي ينسبها لي — أن أمرت بصلب قلوبكياس ونفي جميع الاطباء حتى أواجه الموت وحدي ساعة الموت وبمعزل عنهم.

يذكّرني أولئك الاطباء المشعوذون بصديقي. يذكّرونني بنهايته وهلاكه... الهلاك...

ما كنت أودّ في هذه الساعة بالذات أن أعيد ذكرى هفستيون. اذا سيطرت هذه الذكرى على وجداني عجزت عن مواصلة كتابة هذه السيرة. أريد أن أركّز أفكاري ما استطعت وما دمت أحفظ في ذاكرتي بذكريات واضحة وذلك لأقصّ سيرتي بصورة لا يستطيع أيّ كاتب أن يقصّها.

أستاذي أرسطوطاليس

ها أنا عدت بذكرياتي من جديد الى مدينة بيلّا.
اعتنى بي وأنا طفل أستاذان جيدان هما ليونيداس الابيري الذي كانت له قرابة
مع أمّي أو لمبياس ولوسيماخوس وليد اقليم اكارنانيا⁽⁴¹⁾.
وأذكر أيضا حاضنتي لانيتي التي كانت ترعاني في ذلك العهد.
جميعهم وهبوا الي الكثير ولم يتركوا في نفسي شيئا ! كانوا معتدلين في
سلوكهم قد شكّلوا من طينة لزجة يُصنع منها الرجال العادلون الجامدون أما أنا
فأني لم أسبك من هذه الطينة. كان يخيفني الاعتدال وذلك في جميع مظاهر النشاط
الانساني وفي جميع منشآت البشر وحتى في تلك الحياة اليومية الوديعه التي كان
يحنّ اليها بعض جنودي عقب غزواتنا المنهكة...

كانوا يحنّون الى الدويرة والمرّة والصبيّة... ما كانت رؤيتهم تتجاوز موقد
بيوتهم.

فكنت أخطب نفسي قائلا : يا لهم من مساكين ؟ وكنت أقسو عليهم أحيانا
فأصيح قائلا : يا لهم من أغبياء ! وأغضب عليهم وكنت أتمتّز من سلوكهم ولو
أنّي كنت أرى أنّه يحق لهم أن يكونوا كذلك من وجهة من الوجوه ولكن ما
كنت أشاطرهم شعورهم.

ماذا أقول عن أرسطوطاليس ؟

أتساءل هل أنا قادر على الحديث بصورة مجملّة عن أستاذي أرسطوطاليس.
كانت شخصيته مغايرة تمام المغايرة لشخصيتي ليونيداس ولو سيما خوس. كان
فكرا مطلقا في مجالات المعرفة والبحث والتقصّي. ولو أنّه يدعو أحيانا الى ذلك

التعادل الطريف بين ما نصبو اليه وبين ما نستطيع تحقيقه الذي كان ميزة من ميزات تعليمه.

أمّا هو فقد تجاوز كل ذلك. تفوّق على الزمن وأخضع النفس وتجاوز امكانيات استيعاب الانسان للمعرفة وهي تقف دائما عند حدّ معيّن.

كان أرسطوطاليس يرفض الحدود التي تفرضها طبيعة الانسان. ما كنت أشعر بذلك فيما كان يلقّنه إياي من تعاليمه طوال ساعات متوالية من التدريس بل فيما كان يظهره من قدرة تتجاوز طاقة الانسان. وما دلّ تلاميذه يوما عن مصادر قدرته ولكن كنّا جميعا نحسّ بوجودها تماما وبكل وضوح. وقد صاحبني هذا الشعور مدى الحياة ومازال يلازمي الى اليوم.

قلت له مرّة بقصر ميازا (42) بعد الدرس.

— سأكتشف يوما أقاصي المعمورة

فنظر اليّ مبهوتا وقال :

— وكيف ذلك ؟

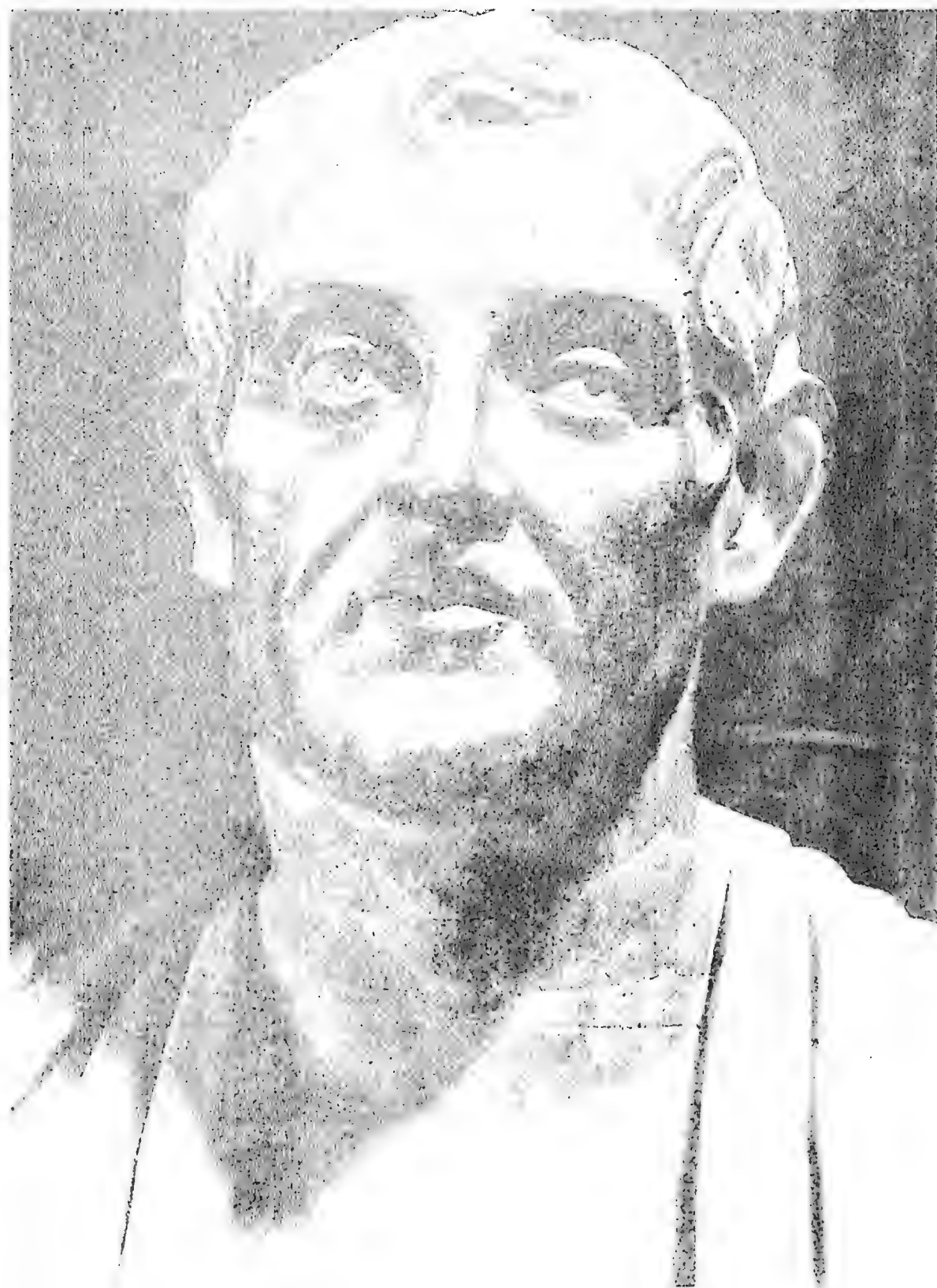
فقلت :

— بقوّتي.

ربّما همّ باجابتي وابداء رأيه فيما قلت ولكنّه لم يفعل. وأحسست في تلك اللحظة بأنّ بين الاستاذ والطالب نقطة التقاء وتماس عميقة الغور وهي أنّنا كنّا نؤمن إيمانا راسخا بأنّنا قادران على بلوغ حدود طاقتنا ثم تجاوزها للوصول الى الهدف الذي يدفعنا اليه حماس لا يفتر.

أنا مدين بالكثير لارسطوطاليس وأساسا بما أسمّيه «حياتي الاخرى» وقد بدأت أعيش تلك « الحياة الاخرى» ابتداء من اليوم الذي حدّثنا فيه معلّنا عن بطولات أخيلوس وهو يدرّس تلاميذه بقصر ميازا. وان بطولات أخيلوس هي التي ساقنتني الى هنا.

عندما قرّر فيلبوس أن يرسلني الى أرسطوطاليس لاستفيد بدروسه كان ذلك القرار أحد القرارات الصائبة التي اعتاد اتّخاذها في الوقت المناسب. لقد مكّنتني من الحصول على ثقافة متينة لقّنها إياي أستاذ حكيم وأبعدني في الوقت نفسه عن



تمثال ارسطوطاليس - متحف نابلي (ايطاليا)

أولمبياس وعن تأثيرها عليّ وكثيرا ما كان يقول ان تأثيرها وخيم. كما أبعدي أيضا عن ميدان بطولاته وسخافات لاته كان يعلم أنّه يشقّ عليّ أن أرى أبي سكران ومحاطا بحظّياته. كنت في ذلك العهد لا أتصور أن قائدا عظيما وبطلا مغوارا يسمح لنفسه أن ينغمس في الشهوات واللذات بدافع البحث عن المتعة أو بوازع التسلية. أما الآن فاني أقبل ذلك السلوك بصدر رحب لاتي أصبحت أعتقد أن الشهوات ضرب من العظمة فهي الصورة الانسانية لها.

مازلت أحتفظ في قرارة نفسي بصورة حيّة نابضة لأرسطوطاليس. وأنا مدين له بجميع ما حقّفته من أعمال جلييلة أثناء هذه المغامرة التي خضتها بحماس لم يفتر منذ سنوات عديدة.

وأنا مدين له أيضا باكتشاف العظمة التي تبلغ أرقى مستويات الألوهية والانسانية معا. وقد كشف لي هذا اللون من العظمة بشرحه للحملة هوميروس (43) عندما كان يقضي الايام والشهور في التعليق على غضب أخيلوس المقدس ذلك الغضب... الذي اكتسب قداسه من الصداقة التي كانت تجتمع بينه وبين باتروكليس.

لا أعلم هل افتتنت يوما في حياتي بشيء أكثر من افتتاحي بملحة الياذة وهل استهواني وسحرني بطل مثلما استهواني وملك نفسي أخيلوس. وقد حملت معي الياذة. والكتاب موضوع دائما بجانب فراشي كما لو كان قطعة من نفسي. ولو لم يعلمني أرسطوطاليس الا الغوص في معاني هوميروس لما كنت اليوم مشبعا بنفس القدر بمعاني الجمال والعظمة.

ان معنى العظمة هذا هو الذي يدفعني في كثير من الاحيان الى الإنزلاق الى الغضب ذلك الغضب الذي كان يثير اعتراض كاليستان.

أنا أعلم أنّ خلانّ الوفاء لن يغفروا لي فتكي بهم كما لن يغفر لي ذلك السلوك المؤرّخون الذين سينكبّون على سيرتي درسا وتمحيصا.

كان كاليستان زميلي بيازا. وكان تلميذا لارسطوطاليس وقريبا من أقربائه. وكان معلّما يحبه ويستتجبه. وربما كان كاليستان هو الوحيد الذي يستطيع أن يكتب قصّة رحلتي التي ما عرفت لها نهاية لاته عاش معي حلمي منذ اللحظة الأولى وصاحبني في غزاتي متنقلا معي من قطر الى قطر.

ولكن كاليستان كان يتميز بعقل رصين يتناول واقع الاشياء فيحلله. فكان عاجزا على تجاوز الوجه البارز العاري للاحداث لاكتشاف وجهها الخفي والعثور على الضرورة التاريخية التي ولدتها. وكان لأجل ذلك يثور على كل ما يعتبره عن يقين منافيا لما هو طبيعي ومتجاوزا لحدود «المعقول». فكان يعتبر غزاتي زحفا عسكريا واستيلاء على الافطار والعباد. وكان يعتقد أن الشعوب تفصلها حواجز لا تُزال وأن اليونانيين والفرس والميديين⁽⁴⁴⁾ لا يستطيعون العيش معا. فكان يظن أنني أريد فقط ارضاء طموحي عندما رضيت بأن تدين لي جميع شعوب آسيا وتعتبرني ملكا لها وإنني كنت أشعر بالمتعة لأنني قدرت على اخضاعها في حين أنني أحسن ولا شك من وراء ارتياحي واعجابي بنفسي برغبة عارمة في أن أرى اساس جميعا يلتقون عند نقطة واحدة تجمعهم.

لا أسمى لتبرير قتلي لكاليستان ولا للعديد من خلانّ الوفاء الاعزاء الذين صاحبوني في مسيرتي وقتلوا معي... لان الدفاع عن النفس ضرب من الندم وبالتالي هزيمة. وأنا لا أقبل أن تكون الهزيمة احدى ضرورات الحياة. ولكن أَرْضَى بها فقط كصورة من عقاب الآلهة يسلط على البشر عن طريق فرض الموت عليهم جميعا.

سيكتبون عني — ولا شك — أنني انغمست في حياة الترف التي يهواها الميديون وأنني سلكت سيرة ملوك العجم الذين يفرضون على رعاياهم الطاعة العمياء وسيعلمون كثيرا من موافقي من هذا المنطلق. وقد عبر كاليستان بوضوح عن وجهة النظر هذه عندما رأي حاملا التاج الفاخر الذي حمله ملوك الفرس العظام فقال :

— « ألهذا أتينا الى هنا ؟ ألهذه اللحظة من الزهو الفارغ ؟

هل كنت أستطيع أن أطالب كاليستان بادراك ما يخفي وراء ظواهر الأمور ؟ ما هي الطريقة التي كان ينبغي أن أتوخاها لمطالبة جميع الذين كانوا مصرّين على أن لا يروا الا الزهو في موقف ينطوي على السعي الى تحقيق مشروع عظيم ؟ كيف كنت أستطيع ذلك ؟

يوم انطلاق الحملة الكبرى الشعراء معي

وها هي خواطري تجرّني مرّة أخرى بعيدا عن التسلسل الزمني للاحداث
وسوف تجرّني أيضا نحو آفاق متعدّدة... أعلم ذلك جيّدا.
أحسّ بنفسي من الآن فصاعدا كما لو كنت مطالاً من أعلى ربوة، يهزّني نفس
الشعور الذي يشعر به القائد الاعلى للجيش غداة المعركة عندما يطلّ من أعلى
ربوة على انتشار جيوشه في الساحة تأهباً للمعركة الحاسمة فيضع في تلك اللحظة
اللمسة الاخيرة لمخطّط سير العمليات الحربية.
كذلك أشرف من المرتفع الذي أحتله في هذه الآونة على جميع لحظات حياتي
وجميع أعمالي دون أن أستطيع التمييز بينها.
كل عنصر من حياتي يحتلّ في ذهني نفس المنزلة وله نفس الوزن. سيّان عندي
أبعد الاحداث في الزمن وأقربها وأبعد مساعدتي عن نفسي وأقربهم منها.
جميع الاحداث ماثلة معا وجميع الاشخاص أيضا. قد احتل هؤلاء أمكتهم
في صفوف جيش يستعدّ للقتال في مكان فسيح.
وأنا طريح في هذه الخيمة المضروبة في نواحي مدينة بابل تهزّني حمّى بلغت
أقصى ذروتها أنظر الى حياتي من أعلى الربوة بنفس الشعور الذي أنضجته الايام
وهو أن كلّ ما جرى كان ينبغي أن يجري حسب ما جرى عليه.
لا توجد علامات دالة على المراحل التي قطعتها في المغامرة التي خضتها وذلك
ابتداء من سنوات الدراسة القليلة جدا التي قضيتها مع معلمي أرسطوطاليس الى
مقتل أبي بمدينة أيقاي (45) الذي تلاه استلامي الحكم في مقدونيا وتقلّدي رئاسة
جميع الشعوب اليونانية.

قد احتاط فيلبوس لكل شيء ابتداء من وجوب الزحف على الفرس كما لو كان مدفوعا بتوجس غريب أو كما لو نظر في جميع الامكانيات وبالضرورة في هذه النهاية. ولم يترك لي أية امكانية لتغيير سير الامور. فلم أستطع تبديل سياسة أبي ولا اعادة النظر في الاستعدادات التي أمر بها. فتبّنت مشروعه بصدر رحب وعقدت العزم على مواصلة تنفيذه.

ولكن أبي رغم حصافة رأيه لم يضع في الحسبان خطورة الثورات التي اندلعت عقب وفاته المفاجئة.

كان فيلبوس يحسّ بأنّه يوجد من بين من يدّعون أنهم له أصدقاء وحلفاء فريق يترصدّ الساعة التي يسقط فيها وذلك ليتخلّصوا من الوصاية المقدونية. ولكن ما كان يتوقّع كثرة عدد هؤلاء ولا أهميّة العدّة التي أعدوها في الخفاء فاستطاعوا بها اضرام ثورات متعدّدة اندلعت في الساعة التي أعلن فيها عن اغتيال الملك. قاومت تلك الثورات بالطريقة التي توخّاها أبي طوال حياته أي قمعتها بشدّة وشراسة فلم أشفق على أحد ولم أرحم أحدا.

ارتكب المتمردون خطأ جسيما عندما لم يضعوا في حسابهم ردّ الفعل هذا. كانوا يتخيّلون أن صغر سني يجعلني عاجزا على مواجهتهم وأن قمع ثورات عديدة تتفجر في نفس الوقت في كامل أرض يونان يفوق قدراتي.

أثبتت معاملتي اياهم عكس ما كانوا يتوقّعون. فالملك الشاب أو «الفرخ الوديع» كما كانوا يسمّونني ازدراء بي يعرف كيف يفرض نفوذه وله من قوّة الارادة ما يجعله قادرا على ذلك مهما كانت رباطة جأش من يدفعه طموحه الى منازلته. وقد قاومهم الملك الشاب دون أن تأخذه أية رأفة سخيفة بهم. كان سلوكه معهم سلوك كبير القوم المهيب المستعدّ لتجاوز كل الصعاب الذي لا يتردّد لحظة في التعريض بحياته لبلوغ هدفه سواء أكان البلوغ الى الهدف من قبيل الممكن أم من قبيل المستحيل.

ولنكن صرحاء مع أنفسنا. ما هي المعايير التي نستطيع بها أن نفرّق بين الممكن والمحال اذا شرعنا في عمل ما أو خضنا غمار معركة ؟ أنا لم أستطع العثور عليها.

ما ان قمعت تلك الانتفاضات حتى أمرت بانطلاق الحملة العسكرية الكبرى. كان انطلاقها مجازفة خطيرة. ولكن انطلقت الحملة بصورة مرضية وحسب الخطة الدقيقة التي وضعتها بنفسها.

بدأت المسيرة على رأس جيش حشدت جنوده من جميع أقطار بلاد اليونان ومن المدن التي كانت تؤمن بضرورة تنظيم هذه الحملة ومن المدن التي أرغمت على الايمان بها لانها لم تكن قادرة على أن يكون لها موقف آخر باستثناء مدينة إسبرتا⁽⁴⁶⁾.

كنت قادرا على اللجوء الى القوة لارغام هذه الاخيرة على المشاركة في الحملة ولكن أمسكت عن ذلك.

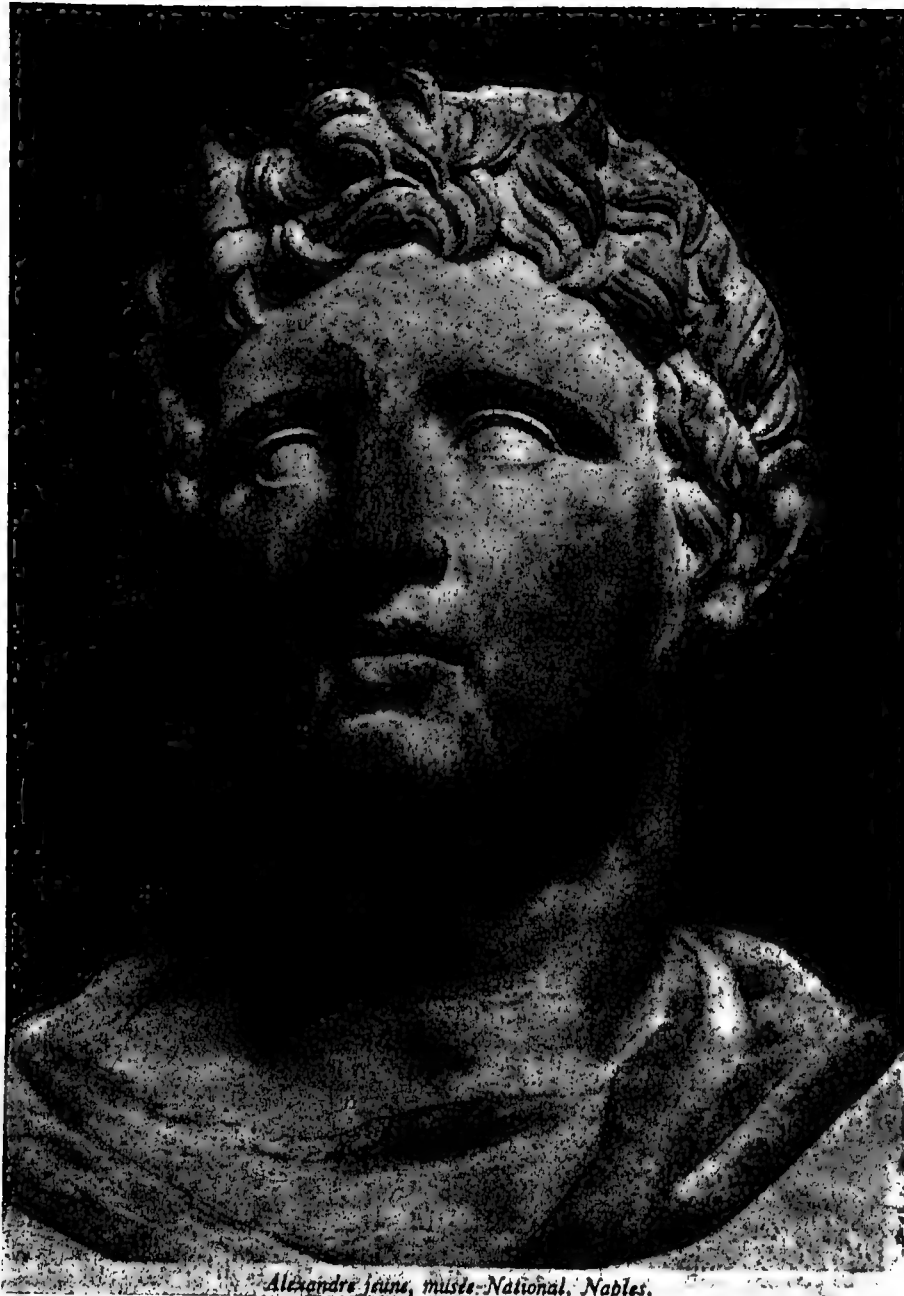
سيعلق كثير من الناس في المستقبل على موقعي ازاء أهالي إسبرتا. سيدلي كل واحد منهم بالتأويل الذي يروق له. أما أنا فاني سأفوه فقط بهذه الكلمة أمام التاريخ: « باستثناء أهالي إسبرتا ». وفي هذه الكلمة وحدها تعبير واضح عن موقعي.

صحبني اذن في غزائي جميع اليونانيين ومن بينهم العلماء والفلاسفة والممثلون والشعراء.

لماذا اصطحبت الشعراء؟ سيدلي كل واحد برأيه في هذا الموضوع ولن يعثر أحدهم على حقيقة الامر وهي في حوزتي.

كان أرسطوطاليس يقول ان الشعر أقرب الى الفلسفة من التاريخ. أما أنا فآتي أرى أن الشعر فلسفة تؤدّي بنا الى وعي ماهية الانسان ووعي التاريخ. هذه الفلسفة هي طبعا عديمة الفائدة ولكن ما هي الفلسفة التي تنجر عنها فائدة عملية؟

أردت أن يصحبني شعراء في الحملة التي سهرت على تنظيمها. كنت أنتظر منهم أن ينشدوا شعرهم أو شعر غيرهم في الولائم بنبرات مطابقة للمعنى. ولكن قليلا ما كانوا يوفقون الى العثور على تلك النبرة. كنت أريد أن ينشدوا أشعارهم في الساعة التي أجتمع فيها مع خلان الوفاء للسكر. واذا كان انشادهم رديئا كما يقع عادة فآتي كنت أنتظر منهم على الاقل أن يساعدونا على الانغماس في النوم الذي يتبع السكر. ما أحلى النوم على نبرات الانشاد بعد التوتر الذي يحدثه القتال



تمثال الاسكندر وهو شاب - متحف نابلي (ايطاليا)

عندما ندقّ قدحا بقدح مزهوين محتفلين بالنصر ولو كان أداء الشعراء لشعرهم
سقيما !

كانت تخامرني في الواقع أمنية غامضة لما عزمت على ضمّ الشعراء الى حاشيتي.
كنت أتمنى أن يبرز أحدهم على الاقل قدرته على تأليف قصيدة ملحمة عظيمة
للاشادة بحملة عسكرية ستبلغ أقصى الارض وتتجاوز في الجرأة والقوة كل
الحملات العسكرية التي قادها غيري.

كانت أبيات الإلياذة ترنّ دائما في أذني مثلما سمعتها من أرسطوطاليس ثمّ من
هفستيون. كنت أستمع الى تلك الأبيات فأتحيل عاصفة هوجاء تشقها من حين
لآخر ومضات بروق تعمي الابصار وتبعث الفزع في النفوس.

ولكن لم يلبّ أحدهم تلك الرغبة الكامنة في نفسي ولم يستطع أيّ واحد
منهم تطويع اللفظ حتى يصبح قادرا على الايحاء بقوة باحتدام المعارك وبالجزع الذي
يسكن قلوب المقاتلين وعلى تشخيص اللحظات التي تسمو بالنفوس الى أعلى
درجات البطولة أو اللحظات التي تحطّ بها الى أسفل درك الاستسلام واليأس.

لم يؤلّفوا أبياتا من الشعر الا للاشادة بالانتصارات التي حققتها أو لتسليتنا
بتقديم شعر حلو شبيه بالمرطّبات التي تقدم الينا بعد الطعام. لم يسعفني الحظ حقا
ولربما يعود ذلك الى حسد الآلهة الذين لم يرضوا أن تعادل الملحمة التي كنت
أحقّقها ملحمة الإلياذة ولم يشاءوا أن تبقى ملحمتي ماثلة الى الابد في ذاكرة الناس.

لقد سلموني مكتوف الايدي الى مؤرخين متحذلقين أفقدوا مغامرتي الصفة
التي تنفرد بها أساسا بين مثيلاتها وهي أنّها تجسيم لحميتي النادرة التي تسمو بي
الى مقام الآلهة ولتوقى الى التوغل في المجهول حتى أنتهي الى عتبة اللوهية عند ذلك
الحّد الذي يفصل بين الحياة والموت.

عندما لم تحظ الحملة ببروز شاعرها سقطت بين مخالب المؤرّخين وحدهم كما
أصبحت أنا وخلانّ الوفاء فريسة بين مخالب الاطباء الذين كانوا يصحبوننا وهم
ينتظرون الساعة التي يتناولونها فيها بالتشريح ولم يكونوا قادرين على انقاذ هفتسيون
من الموت الزؤام.

ربما كان سحرة بلاد الكلدان (47) وكهنتها أقدر على معالجته من أطبائنا ولكن لم أهتد الى اللجوء اليهم في الساعة التي كان خليلي المحبوب يتجرّع سكرات الموت.

هل كان موته نتيجة حسد الآلهة لي على الصداقة التي أكنها له فاختطفوه مني في الوقت الذي كنت فيه في أشد الحاجة اليه ؟

هل حسدوني على تلك الساعة التي وفقنا فيها معا أنا و خليلي أمام ضريح أخيلوس و باتروكلوس بطروادة (48). فأقسمنا على أن ننمي صداقتنا حتى تصل الى مستوى الصداقة التي كانت تربط بين البطلين ؟

أراني أغلب شيئا فشيئا هذا الاستنتاج لأن الآلهة يحقدون الحقد المكين على كل انسان يسمو به سلوكه الى منزلة قريبة من منزلتهم وهم يعتبرون أن منزلة الالهية تعود اليهم واليهم فحسب.

مازلت أتحدث عن الظروف التي أحاطت بحملتي في بدايتها وعوض أن أحاول اضافة شيء من الترتيب على الاحداث القاسية التي تعاقبت بعد انطلاق الحملة أراني لا أزال أسجل تلك اللحظات التي عشتها في أعماق نفسي والتي تكون مسيرتي الذاتية.

وبالفعل فان تلك اللحظات وحدها هي التي تهمني في سياق هذا الحديث. تدفني الى ذكرها بالتفصيل رغبة عميقة وعارمة في أن أحيائها من جديد مع ما أوحته الي من شعور بالعظمة والتمزق وما بثته في من حماس بلغ الذروة ومن تعلق بالعزلة.

ليست تلك اللحظات ملكا للتاريخ ولن تصبح في يوم من الايام غنيمة بين يديه بل هي لحظات ذاتية صرف في مغامرة الاسكندر فلن يتناولها أي انسان بالدراسة. هم جميع المؤرخين تحليل الاحداث الخارجية الجسام مثل الانتصارات الباهرة والالتحام مع العدو واحراق مدينة بركامون (49) وحفلات الاعراس مع أميرات آسيا.

فما هي أهمية بعض اللحظات التي عشتها في وحدتي ازاء ذلك الخضم من الاحداث المدهشة التي صحبت تلك الحملة العسكرية الطموح التي قدها وأنا

محافظ على عزلتي وانفرادي... ليذهب بها الزمن ولينسها الآلهة. ذاك أفضل لها
لأنني لا أَرْضَى أن تسقط تلك اللحظات بين أيدي كِتَاب تميل نفوسهم الى الكآبة
فلا يتردّدون في مسح عناصر أخرى من حياتي.
فلتبق اذن تلك اللحظات لي وحدي ولتكن ذكرى لساعات الضيق والالم
التي هي نصيب كل انسان في هذه الدنيا.

بشر وآلهة المتملقون والساخرون

خرّبت مدينة ثيباي في المرحلة الاولى من الحملة. وقد سبق لي أن ذكرت قضائي عليها. فلا أريد أن أعيد ما قلته عنها. ولكن أحسّ بحاجة ملحة الى التأكيد من جديد على أن إبادة « الكتيبة المقدسة » كانت من بين وقائع تلك « المغامرة » الجريئة الواقعة التي تركت في نفسي أسوأ الأثر.

اقترف الشيبون جرائم عدّة فكيف السبيل الى الصفح عن جميعها وكيف الاغضاء عن الأخطاء التي ارتكبوها والمطامح التي جعلتهم ينشقون عن اجماع اليونانيين أثناء الحروب الميدية ؟

كيف أستطيع أن أنسى — ولو أني حريص دائما على النّظر الى الاحداث بشيء من التجرد — أن الشيبين تقدموا في نهاية حرب البيلوبونيز (50) بعرض يتجاوز في البشاعة كل ما بلغ الى علمنا. فقد اقترحوا تدمير أثينة (51) أجمل المدن اليونانية وتسويتها بالارض حتى لا يبقى أي أثر لعظمتها ؟

نعم. كل ما قلته عن ثيباي هو عين الحقيقة. وحقّ أن ينالها جزاء ما اقترفت. ولكن أمر « الكتيبة المقدسة » مختلف. كانت تجسم فترة نيرة في مسيرة تاريخنا بل كانت لحظة ساطعة في تاريخ البشرية جمعاء تألّقت فيها الصداقة وهي ألمع عاطفة تصل الناس بعضهم ببعض وسمت الى منزلة قاربت فيها منزلة الآلهة الخالدين... كان عبور مضيق الهلسبون (52) أول خطوة حاسمة لتحقيق أهدافي. كان عبوره أول الخطوات وأصعبها وكنت أتوقع أن تمكّنتي تلك الخطوة الاولى من سبر طاقة جنودي على تحمل الشدائد وعلى الخضوع الى الاوامر.

هكذا كان شعوري آنذاك !

وقد ساعدني ذلك الشعور مساعدة قيّمة كما ساعدني ايماني الراسخ في أعماق النفس بأن الآلهة لا يتباطأون في شدّ أزرّي في جميع الظروف. ولذلك لم أتقاعس في تقديم القرابين لهم واقامة الحفلات الدينية لتمجيدهم كلّما فتحت مدينة أو احتلت اقليما من الاقاليم.

وقد بادرت بعد عبور الهلسبون باراقة الخمر من الاكواب اكراما لبوسيدون (53) وبناء مذابح لعبادة زيوس (54) وأثينا (55) وجدي هيراكليس (56) شيّدتها بيدي.

لا أعلم هل كان الآلهة راضين عنيّ عندما شاهدوني أبالغ في اكرامهم بتقديم الاضاحي وبناء المذابح واقامة الطقوس الدينية. ولكن أعلم علم اليقين أن عزيمة ضبّاطي وجنودي تشدّ وتقوى عندما يلاحظون حرصي على اقامة الطقوس الدينية ويشاهدون ورعي عند العبادة. كان يعرف جميعهم أن نجاح الحملة متوقف لا على مساعدة حلفائنا فحسب بل أيضا على مساندة الآلهة.

ومهما كانت الظروف فان مساندة الالهة نفيسة ولو اقتصرت على شدّ معنويات جنودي في المغامرات التي هم مقدمون عليها والشدائد التي يتأهبون لخوض أهوالها.

إذا أظهر قائدهم ذلك الورع العميق وهم يعرفون قوّة جأشه وعزمه الراسخ على بلوغ الهدف الذي رسمه لنفسه وإذا لم يفتأ يقدّم للآلهة القرابين ويبنّي لعبادتهم المذابح فحريّ بالجنود أن يقتدوا به وأن يتوكلوا أكثر منه على الآلهة في الملّمات الجسام التي تنتظرهم وأن لا يستسلموا لليأس عندما تعترضهم في حملتهم صعوبات عابرة.

أنا أعلم جيّدا أن الكتاب الاقزام الذين سيقصّون سيرتي وحملتني وخاصة منهم أخبث القوم طويّة سيّدعون عندما يعلقون على سلوكي أن ذلك الورع هو في الحقيقة موقف مصطنع ينمّ عن فطنتي ولباقتي. غايته تقوية عزائم من صاحبي في هذه الرحلة العظيمة وذلك بالاشارة الى أن تقوى الآلهة والتقرب اليهم أفضل طريقة لجلب الخير والبركة لهم.

ليكتب هؤلاء الاقزام ما لذّ لهم ! وأتوقع أنهم لا يقتصرون على اصدار هذا الحكم الجائر عليّ بل سيصدرون أحكاما جائرة أخرى. وحقّ لهم أن يقولوا ما يقولون وأن يصدّقوا كل رأي يخامر عقولهم.

أما أنا فيحقّ لي أن أروي قصتي. وأعني بذلك قصتي الحقيقية كما عشتها بجوانبها النيرة وجوانبها المظلمة أيضا لأنّ مغامرتي تنطوي على قطع كبيرة من الظلام وليال دامسة تغطّي الاضواء الساطعة التي تشعّ من انتصاراتي.

ذكرت الليالي الدامسة التي أطبقت عليّ في كثير من المناسبات ولا يفوتني أن أذكر أيضا ما يهدّد سيرتي في المستقبل فيوشك أن يشوّها مدى الدهور. سيعمد كتاب متصنّعون حقيرون أو مؤرخون هواة أو علماء بالصدفة الى دراسة سيرتي فلا يبرزون منها الا انتصاراتي ومشروعاتي العظيمة. وقد يغمرني هؤلاء بوابل من الاطرء الذي لا جدوى من ورائه فأقول في نفسي : لو كنت حيّا في زمانهم وسقطوا في قبضتي لقطعت رؤوسهم الفارغة.

أودّ بهذه المناسبة أن أوّكّد أن المدح البليد الذي لا ينطوي الا على الفراغ خطر ومضّرّ مثل التميعة. ذلك الضرب من المدح له طين يشبه طين الدنّ الفارغ ويترك المددوح أضحوكة بين العاشين.

لو خيّرت بين المدح التافه وبين الشتائم البشعة التي يكيلها لي ولابي ديموسثينيس (57) لاخترت الاخيرة.

عندما يستمع المرء الى ديموسثينيس يشهّر في الساحة العامة بأثينة بأخطائنا وخصالنا معا يستطيع ولو كانت له بذرة من العقل فقط أن يميّز بين ما هو نعمة وما هو حقيقة. ولكن يختلط الأمر عند الاستماع الى مدح تافه. فكيف يستطيع المرء أن يعرف ما الذي ينبغي أن يعتمد وما الذي ينبغي أن ينبذ من الكلام الفارغ الذي يقذف به كتاب الصدفة ضحية هذيانهم ؟

أنا أعلم جيّدا — ويا للأسف — أنني سأعرض في كثير من الحالات لحماقتهم المفرطة وحسدكم الدفين. أنا أعلم أنّهم سينتقمون منّي لاجل كل عمل عظيم قمت به لانهم عاجزون على تصوّر وقوعه ولو في أحلامهم.

نصغر من كان عظيما في هذه الدنيا بطريقتين متساويتين في النجاعة : إما بالثلب المفزع الذي يترك دائما في النفس أثرا غامضا شبيها بالضباب الذي يغمر كامل أرجاء المدينة أو بالمدح المسهب الذي يفضي الى الازدراء باسرف الابطال. أخشى أن لا أنجو من أحد الخطبين. وأتوسل الى الآلهة حتى يجنبوني — ان شاءوا — تلك المحنة. واذا قدروا لي أن أجازي بأحد الخطبين فآتي أفضل أن أكون طعمة في أفواه النمامين.

الاجدر بي أن يمزقني هؤلاء بشتائمهم الصادرة عن نفوسهم الشريرة المليئة حسدا بدل أن أراني محل السخرية من جراء تملق محترفي الخطابة ومحتكري الوطنية الضيقة.

واجهت الفرس لأول مرة على ضفة نهر قرانيكوس : وكان لقاء حاسما في نظري ونظر جنودي لانه توج بنصر باهر أحسنا جميعا اثره بنخوة لها ما يبررها. ملأ هذا النصر الاول نفسي غبطة فنظمت الحفلات وأقامت الولائم حتى نحتفل جميعا بهذا النصر الاحتفال الذي يستحقه.

وسألني أومان عن الطريقة التي أود أن يتوتخاها لتسجيل وقائع معركة قرانيكوس في « اليوميات الملكية » بصورة ترضيني وترضي صحتي وتجعل الاجيال القادمة تجد فيها مادة للشرح والتعليق ودافعا للفخر. فأجبتة قائلا :

— ان معركة كهذه ليست في حاجة الى الكلام.

وأوكلت له الامر حتى يتصرف كما يشاء. ولم أطلع على ماكتب بشأن الواقعة. واني لاخشى أن أكتشف يوما أنه وقع في الفخ أعني فخ الاسهاب.

لقد حملني انتصاري على الفرس في معركة قرانيكوس مسؤولية عظيمة ومقدسة لا رجوع فيها تفرض عليّ تحرير جميع المدن الساحلية اليونانية المزدهرة التي ترزح تحت نير الفرس.

واذا قلت ان تلك المدن كانت مزدهرة فآتي لا ألقى الكلام جزافا ولا أجنح الى نعت قد يشتم منه التزلّف وقد قلت من قبل كم أنا أمقت هذا اللون من الخطاب. كانت المدن الواقعة على ساحل آسيا الصغرى مدنا مزدهرة حقّا كان

لكلّ واحدة منها اشعاعها الخاص بها واستطاعت كلّ واحدة منها انشاء حضارة طريفة تميّزت بها على غيرها من المدن.

حدّثني أرسطوطاليس المرات العديدة باعجاب عن العلماء والفلاسفة والفنانين الذين اتصلت شهرتهم بشهرة تلك المدن التي نشأوا فيها. وكان يقول لي أيضا أنّ هؤلاء الاعلام لم يفهمهم معاصروهم الفهم الصحيح ولم يدركوا كنه مقاصدهم كما سوف لا تفهمهم أيضا الاجيال القادمة. وهذا ما يقع عادة لامثالهم.

ينبغي أن تمرّ آلاف السنين حتى يستطيع الناس ادراك ما أتوا به من جديد مبتكر واستيعابه. وسوف ينبنى عالم الغد البعيد على أجراً ما استنبطوه من رؤى بخصوص العلم والفكر وبشأن اللاهوت والناسوت.

نعم. أنا مدين لارسطوطاليس لآته زرع فيّ هذا الحدس كما أنني أغبطه على الموقف الآتي الذي وقفه : ان ارسطوطاليس قادر على أن يخصّ باكبار لا يترزعزع العظماء. الحقيقيين الذين هم أهل للاجلال. وآته يعرف كيف يلقي غيره ذلك الاكبار الحقيقي الصادر عن سموّ نفسه. لم يحقر قطّ عظماء الرجال بصريح العبارة أو بالاشارة لابراز خصاله كما يفعل سفلة العلماء والفلاسفة. كان وأعيا تمام الوعي بقيمته الشخصية وبنضج عقله. فلم يكن يشعر بالنقص أمام عظمة الآخرين ولم يتلعثم اذا تحدث عنهم. كان يعترف بكل صراحة بأنّه استفاد كثيرا من دراسة مؤلفات فلاسفة اقليم لا يونيا (58) وعلمائها وآته مدين لهم بالاطلاع على تعاليم عديدة ساعدته في بحوثه الشخصية عن الانسان ومحيطه.

ولذلك كنت أحسّ بأنّ وازعا ذاتيا يدفعني الى تحرير جميع تلك المدن اليونانية التي غمرتنا بأنوار حضاراتها وستغمر كامل العالم بعدنا. وكان ذلك الوازع الذاتي أقوى عندي من ايعاز الآلهة الذين كانوا يأمروني بانقاذها.

كنت أشعر بتأثر عميق كلما حرّرت مدينة من المدن الساحلية اليونانية بآسيا الصغرى لاني كنت أجدني في كل مرّة مهورا بنور حضارة طريفة ومميّزة.

أمرت في افيسوس (59) بترميم معبد الالهة ارتيميس (60) الذي اندلع فيه حريق في يوم ميلادي. وقد ادّعى كثير من الكهنة أن هذه الكارثة التي نزلت

هي نذير شؤم. وقد صدقت تنبؤاتهم فرأيت أن الواجب يفرض عليّ تكريم الالهة باعادة البهجة والفخار لمعبدها.

كما أحسست في افيسوس أيضا بواجب آخر يفرض عليّ أن أعفو عن بعض سكّانها الذين شهروا السلاح في وجهي. كان أهل افيسوس الآخرون ينتظرون قدومي والامل يملأ قلوبهم ليسترجعوا حريتهم وقد عقدوا العزم على اعدام من حاربني منهم في الساحة العامة حتى يكون مصيرهم عبرة لغيرهم. فامتنعت من موافقتهم على هذا القرار لاني ما كنت أريد أن تلوث حملتي العسكرية بالتشفي وكنت أخشى خاصة أن يقع القضاء بهذا الصنيع على عدد كبير من الابرياء تورطوا مع قلة من الانتهازين. ويعلم جميع الناس أن حقد الجماهير أعمى وأن العقاب الجماعي يجرّ الى ما لا تحمد عقباه.

هيات ! لو كان هذا الرأي الذي أسجله الآن على ورق البردي رائدا لي طوال حياتي عند اتخاذ القرار لجبّبت نفسي كثيرا من الزلاّت ولكن الامر كان على خلاف ذلك. وربما تعزى هفواي الى صروف الزمن والى الشدائد التي نزلت بنا أثناء الحملة والى تغيير سلوك كثير من أصدقائي نحوي حتى أصبحوا لي أعداء بعد أن كانوا خلّائي. فساقتني ذلك كلّ الى الانحراف عن سداد الرأي الذي لو حافظت عليه لجبّبتني الاخطاء.

فتحت تباعا افيسوس وسرديس (62) ومقنيسيا (63) وترليس (64) وموكالي (65) وهليكرنسوس (66). وكنت أشعر بالغبطة تغمرني كلما حططت رحلي في مدينة من تلك المدن. وكانت تلك الانتصارات المتعاقبة تعينني على الاقتناع بعظمة الرسالة التي تحمّلتها.

لا أعلم هل استرجعت تلك المدن بهاءها القديم. ولكن كانت تستحق أن تحرر مهما كان الثمن الذي بذلته والتضحيات التي رضىتها والمعارك التي خضتها من أجلها ولو لم تقدم لزائريها الا أطلاالا تشير الى سابق بهجتها.

عندما انتهى بنا السير الى هليكرنسوس داهمنا فصل الشتاء وكان شتاء شديد البرد. ولاحظت أن بعض الجنود المقدونيين بدأوا يحسّون بالانهاك. وكان أشدهم

وهنا الشبان المتزوجون لأنهم أخذوا يحنّون الى بيوتهم وزوجاتهم وأنهم لم ينعموا بدفء البيت وحنان زوجاتهم الا قليلا ثم سيق بهم الى الحرب.
ولاحظ هفستيون ذلك أيضا. فطلب منّي أثناء مأدبة أن أمنحهم اجازة قائلا :
- حظهم سعيد لانهم يستطيعون أن يعودوا الى أوطانهم وهي غير بعيدة.
وسوف لا يقدرّون على ذلك عندما تقودنا الى أقصى الارض. فهذه هي الفرصة الوحيدة التي يستطيعون فيها زيارة بيوتهم.

ما قاله هفستيون هو عين الصواب. ولذلك أمرت بجمع المقدونيين حولي وأعلنت لهم أنّي أمنح اجازة لمن يرغب من بين الشبان المتزوجين أن يعود الى موطنه لقضاء فصل الشتاء في بيته. ولكن يجب على المتمتعين بهذه الاجازة أن يعودوا عندما يقبل فصل الربيع ليحتلّوا من جديد أمكتهم في صفوف الجيش. وحملتهم مهمة الدعوة من حولهم في أوطانهم للحصول على متطوعة من مشاة وفرسان يصحبونهم عند العودة ليعززوا الجيش.

وهكذا جنيت من هذه العملية ثمرتين : عودة جنودي المقدونيين اليّنا آسفين على مغادرة بيوتهم الدافئة وفرش زوجاتهم، وقدوم تعزيزات للجيش في صورة جنود جدد يأتون بدم جديد. وكان يشعر جنودي المجازون بعد العودة بأن أيام الاجازة مكنتهم من الراحة ومن استرجاع قواهم استعدادا لشنّ هجومات أخرى.

« ساقه طالعه النّحس الى ذلك المكان »

كنت شديد التّعشّ بشعور استقرّ في نفسي وهو أن الثلاثين ألف رجل الذين كنت أقودهم في هذه الحملة التي لا يعرف أحد مآلها هم أصدقائي يساهمونني العزم ويشاركونني التوق الى مواجهة المغامرات.

كانت المحبة متبادلة بيننا وبالخصوص في بدء المسيرة. وأتّما أرغمت بعد ذلك على معاملتهم بشدّة مع محافظتي على المحبة التي كنت أكنّتها لهم. وذلك أن كثيرا من الروابط ما فتئت تربطنا وأهمّها — اضافة الى انتمائنا جميعا الى شعب واحد — عزمنا على قهر عدوّ يحسّم في نظرنا خطرا جاثما علينا منذ أكثر من قرن يهدّدنا ويهدّد مدننا وعيالنا. ولم تكن المحن التي سلّطها الفرس على أوطاننا هيّنة. والحق أقول. لو لم أقد الشعوب اليونانية ما عدا شعب لاكيديمونيا⁽⁶⁷⁾ لمواجهة الفرس بعزيمة ثابتة رغم تفوّقهم علينا من ناحية العدد أضعافا مضاعفة لما كفّ داريوس عن الكيد بنا.

كان جنودى يعلمون ذلك علم اليقين وكنت حريصا على ترسيخ ذلك اليقين في أنفسهم قبل أن أخوض معركة إسّوس.

أمرت بدعوة قوّادي وضباطي السامين. وطلبت من خلّان الوفاء أن ينضموا اليهم. وخاطبت جميعهم بخطاب واضح لا لبس فيه. وشرحت لهم أنّنا أمام منعرج حاسم للحملة وأنّنا لن نواجه من اليوم فصاعدا جيوشا قليلة العدد ولكن سنقاتل داريوس⁽⁶⁸⁾ نفسه على رأس جيش الفرس بأكمله.

لا شك أن الموقع الذي اختاره داريوس لخوض المعركة الحاسمة — عملا نصيحة مشؤومة أسديت له — قد كان لنا مواتيا. ولكن ذلك الحظ الذي أسعفنا به القدر لم يجعلنا نتهاون ولا نتواكل لأنّا كنّا نعلم أن الجلد وحده هو الذي يرجح

كفّة الميزان. وأنه اذا عقدنا العزم على الانتصار انتصرنا كلّنا ذلك ما كلف. وقد قمت بعمل قبل معركة إسوس بأيام قليلة كان لجيشي مثالا يُحتذى وذلك عندما قطعت عقدة قورديون (69).

كان الناس يتناقلون بخشوع قولاً مأثوراً مفاده أن من يوفق لحل العقدة التي تربط جزئي المركبة المودعة في معبد زيوس بمدينة قورديون يصبح سيد آسيا. عندما دخلت المعبد لاحظت أن العقدة مشتبكة الى حدّ يستحيل معه على أيّ كان حلّها. وكان قوّادي وخلاّئي وأعيان المدينة يزدهمون حولي عندما وقفت أمام المركبة. ويسدّدون إليّ نظرات نافذة فاحصة وهم ينتظرون بفارغ صبر مباشرتي للعملية. لم يترك لي مجال للتملص. لا بدّ لي أن أحلّ العقدة بطريقتي الخاصة لا أن أكلف نفسي البحث عن أطراف السيور محاولاً تخليصها من الاشتباك. فكان ينبغي أن ألجأ الى تلك القوّة الخفيّة التي تولدها العزيمة اذا بلغت منتهاها فتندفع كالنهر الجرار. فشهرت سيفي وقطعت العقدة.

وكان غرضي عندما قمت بتلك العمليّة أن أبعث في نفوس جميع الحاضرين الدهشة وأفرض شخصيّتي على أصدقائي وأعدائي معاً فيقبلوا سيطرتي على الجميع قبول الامر الواقع كانت غايتي أن يقتنع جميعهم بأن الاسكندر المقدوني له طريقته الخاصة لحلّ العقدة. وسيكون ذلك ديدنه كلّما عثر على عقدة في مسيرته مهما كانت العقدة ومهما كان تشعبها.

ذكرتهم في سياق خطابي بحادثة حلّ عقدة قورديون. فبدا لي أنّهم سرّوا لذكرها. ثم بيّنت لهم أن طريق آسيا ستفتح لنا دون كبير عناء اذا انتصرنا في المعركة التي كنّا على وشك مواجهتها. ولكن ينبغي لنا في هذه الساعة التي نتأهب فيها لخوض تلك المعركة الحاسمة أن نشهر سيوفنا ابتداءً منّي وانتهاءً الى أبسط الجنود وأن نستعدّ جميعاً لقطع العقدة. ليس لنا الا هدف واحد وهو سحق داريوس. تعود بي الذاكرة الى معركة إسّوس والى النصر الذي ختمها فأشهد أحداثها كما لو جرت أثناء حلم تقادم عهده فأشعر بالتخوة.

لاقيت فيها داريوس لأوّل مرة. وكان هو أيضاً مقاتلاً شجاعاً مصمّماً على الانتصار. ورأيتة وهو واثق من نتيجة المعركة يقابل عدوّاً على صهوة فرسه محاطاً

بضباطه. فكان داريوس أول من هاجمنا. وقفزت على متن حصاني بوكيفالوس (70) ووجدت نفسي بعد لحظات أمام ملك الملوك وأنا شاهر سيفي. وقد انتشر جيشه وراءه كاليمّ الطامي.

كانت تسنده صفوف متراصة تملأ الرحب. تعلوها صرخات متحمسة. كان بارمينيون وهفستيون بجانيي. وبعد قطع مسافة قصيرة ركضا على ظهر بوكيفالوس ضرب سيفي سيف ملك فارس. وسرعان ما انهال ضباطه المدججون بالسلاح من كلّ صوب فأحاطوا به وحموه بأجسامهم جاعلين من حوله سورا منيعا وتركوا له في نفس الوقت فسحة للتقهقر اذا لزم الامر. ولاحتقتهم يدفعني الى الامام حماس فياض. كتّا جميعا منقضين عليهم مدفوعين دون هوادة بقوة وثبتنا الاولى عندما انقضضنا عليهم.

وقاتلناهم ونحن في حالة هيجان وحمية. وكان الفرس يتقهقرون شيئا فشيئا أمامنا تحت ضغط هجومنا العنيف. مازالت صيحات الفرع تدوي الى اليوم في أذنيّ ومازلت أشاهد أشلاء العدو مطروحة في الميدان ومازلت أرى جنودي في أعقاب جموع فارس اللاجئة الى الفرار.

غنمنا غنائم يصعب حصرها وأسّرنا من الجنود ما يفوق العدّ وكان الاسرى يتضرعون لئلاّ نجهز عليهم. وسبينا أم داريوس وزوجته وأبناءه كانوا جاثين على الارض يتضرعون ويطلبون منا أن نبقى عليهم. وقد قررت من قبل ابقاءهم أحياء لاني كنت أرى أن الملك ينبغي له أن يبقى على سلالة الملوك. وما كنت أشعر أن موقعي ذلك موقف نبيل بل هو في نظري موقف طبيعي. ولو أني أعلم أن المؤرخين في العصور القادمة سيلبسونه أثوابا لماعة تتلون بتلون موقفهم ازائي. لكأنني أسمع أنصاري من بينهم يقولون باعتزاز :

— هذا موقف آخر يكشف عن مروءة الاسكندر. سقطت أسرة عدوّه الأكبر في قبضته فعاملها معاملة كريمة وكان قادرا على أن يستغلّ وجود أولئك السبايا بين يديه وفدائهم لا يقدر بثمن لاجبار عدوّه اللدّ على الاستسلام.

ولكن مؤرخين آخرين — وقد يكون عددهم أوفر من الاولين — وهم أولئك الذين يعتقدون أني قمت بحملتي هذه ارضاء لطموح جارف لا تصدّه أيّ عقبة

تعترضه سينعتونني بالمكر والدهاء السياسي ويقولون أنني كنت أرمي بذلك السلوك الى احرار ثقة أحبائي وأعدائي معا والى جلب اعجابهم بموقف انساني شهيم يتمثل في حمايتي لاسرة داريوس واکرامها.

سحقا لجميعهم ! سحقا للانصار من بينهم وللمناهضين ! نجوت من جموع أعدائي في معركة إسّوس ولن أنجو — ويا للحسرة — من أحكام المؤرخين الذين سوف لا يكفّون عن ملاحقتي اما بالطعنات الصادرة عن ضيق آفاقهم أو بشواهد الاعجاب الصادرة عن وهن التمييز.

أمّا داريوس فإنّ سوء تقديره للاوضاع قد ساقه الى اختيار موضع إسّوس للقضاء عليّ وعلى جيشي. فكان اختياره شؤماً عليه حتى قيل : « ساقه طالعه النحس الى ذلك المكان ».

وان نفس الطالع النحس أوحى الى داريوس أن يرسل اليّ رسالتين يندّد فيهما بعزمي على جعل اليونانيين يسترجعون الثقة بأنفسهم وذلك بعد الهزيمة الشنعاء التي كبّدتها إليّ والتي لم يستطع تقدير حطورتها. وقد أبدى — والحق يقال — حماقة كبيرة بكتابة الرسالتين.

أنا لم أنس أن أجداد داريوس قد كالوا لنا جميعا من الالهانات ألوانا ولم أنس بالخصوص انهم احتلّوا مقدونيا وأن داريوس الثاني (71) هرع حهّارا لاسعاف أهالي مدينة بيرنتوس (72) عندما دفعت بهم الجرأة الى محاربة أبي.

أجبت داريوس عن رسالتيه اللتين حرّرها دون أن يتروّى في الأمر وحاولت في جوابي أن أشرح له مآخذنا على أجداده وذكرته بأنه هو أيضا قد أشعل نيران جميع الفتن التي واجهتها عند اعتلائي العرش ظلّما مه أنه يستطيع اخضاعني لارادته بأيسر السبل باغداق الأموال الطائلة على أعدائي ودفع غائلة أولائك المقدونيين الوقحين الذين يتحاسرون على مازلة ملك الملوك وجيشه منارلة النّد للنّد.

وأضمت قائلا — ولو لم أكن يومها مقتنعا تماما بقولي — ان آسيا أصبحت في قبضتي وعليه أن يقبل الأمر الواقع ولو عن مضض وان ليس له الخيار.

وتلقت جواب داريوس عن رسالتي. واذا به يعرض عليّ عرضا ثانيا. يعرض عليّ كنوزا لا حصر لها ظنّا منه أنّي سأبهر بهذا العرض المغربي وكان يعتقد أنّ قائد اليونانيين شاب غرّ لا خبرة له في الحياة.

لا شك أنّ للذهب فتنة لا تقاوم بسهولة خاصة اذا وقع عرضه بكميّات هائلة ولو تظاهر المرء الذي استهدف للاعراء الامساك والعفة. وهكذا كان دأب داريوس مع من يريد اغراءه.

ولذلك بدرت الى ذهن داريوس فكرة التقدّم بذلك العرض الذي يرمي الى اغراقي في أكوام من الذهب مقابل فكّ أسر عياله وانهاء الحرب. وقد عرض عليّ أيضا اقليما شاسعا يقع غربيّ نهر الفرات اقترح عليّ أن أضيفه الى الاقاليم التي فتحها في آسيا. وازافة الى تلك المغريات التي قد يهتّز لها أيّ ملك أقل طموحا وحيرة منّي عرض عليّ عرضا أخيرا وفقّ فيه أكثر من العرضين السابقين : عرض عليّ أن أتزوج من ابنته. وكان يظنّ أنّي اذا قبلت مصاهرته أصبحت مواصلي للحرب وملاحقتي للجيش الفارسي لا مبرّر لهما بسبب انتائيّ الى أسرته بعلاقة دموية حميمة.

رفضت الكنوز والاراضي الشاسعة التي كان يتظاهر بمنحها ايّاي بنفس سخية لاني كنت متيقّنا من أنّي أستطيع أن أستولي على هذه وتلك بكل يسر دون أن أحيد عن هديّ الأول وهو بلوغ أقصى الارض بعد القضاء النهائيّ على مملكة فارس. أما عرضه زواجي من ابنته — وقد أظهر لي أنّ ذلك العرض الصادر عن شعور أبيّ لا شائبة فيه هو غنم لي لا يعد له غنم — فلم يخيّر فيّ ساكنا لأن الفتاة كانت سبيّة عندي وأستطيع مضاجعتها متى شئت.

واليوم وأنا أعيد ذكرى تلك اللحظات تتجاذبني الخواطر فأقول في نفسي : يحدث لعظماء هذه الدنيا أو بالاحرى لمن نعتبرهم نحن عظماء أن يرتكبوا حماقات. أهديني داريوس ما كان عندي وتظاهر بالتنازل لي عن جزء ضئيل من الاقطار التي احتلتها ! ونسي أن الحرب القائمة بيننا نتيجة لقرون من الاطماع والطموحات والاحقاد وأن كلّ حلّ وسط في حرب كهذه أسوء من أبشع الهزائم لان أصدقاؤني وحلفائيّ لن يغفروا لي أيّ تواطؤ ولن يغفر لي ذلك أيضا أعدائيّ

في ذلك الظرف الحاسم الذي أقبلت فيه الايام وكان كل شيء لي مواليا : الآلهة والظروف الزمانية والاوزاع الجغرافية.

لو دخلت في مساومة مع داريوس وتنازلت له مقابل قناطير من الذهب وما التزم به من وعود أخرى لا ستقصي أصدقائي وحلفائي وأعدائي ولفقدت حملي معناها. ما أحقر تلك المساومة اذا قورنت بحلمي الجريء الذي أثار آمال جميع اليونانيين سواء آمال من رضوا بي قائدا أو آمال من أرغموا على ذلك فخضعوا للامر الواقع. فمباركة الجميع لسعيي ومساندتهم لي منذ بداية الحملة لا تسمح لي بالتنازل والمراكنة.

ليس لي الا جواب واحد أجيب به عن رسائل داريوس المحمومة وعروضه الخرقاء وهو تعزيز الصفوف ومواصلة الزحف بتسخير كل ما أوتينا من قوة مهما كانت خطورة العقبات التي تعترض طريقنا.

عززت الصفوف وواصلت الزحف رغم تعنت العدو الذي كان يقاوما شدة لائه يعلم جيدا أن الحرب ستنتهي لا محالة بالقضاء المرم على أحد الخصمين وأن العالم أضيق من أن يتحمل وحد دولتين عظميين في وقت واحد. كلفتني مقاومة الفرس المستميتة خسائر في الارواح وضياعا للوقت، وأرغمت في تلك الظروف الحرجة على محاصرة مدينة صور وكان حصار المدينة مهكاً ولم نستول عليها الا بعد بضعة أشهر.

أشعر في هذه الساعات التي أبوح فيها بخفايا نفسي بالحاجة الى أن لا أخفي شيئا مما كنت أحس به. لكأني أنظر الى نفسي في مرآة. أعترف والاسى يغمرني بأني استسلمت أحيانا الى اليأس أمام أسوار صور وفي مناسبات أخرى.

كانت تهزني نحوه انتصاري في معركة إسوس، فكنت أتوقع أني سأحتل صور في ظرف أيام قليلة وأني أستطيع بعد احتلالها اكتساح سوريا ومصر ولكن الأمور لم تجري كما كنت أتوقع. لقد مكثنا أشهراً حول أسوار المدينة واستعملنا في حصارها جميع المعدات التي كانت بين أيدينا واستخدمناها وبفوسا تلتهم حماساً فضاء فاعليتها ونفاذها. ولكن حماة المدينة واجهونا في كل هجمة ببطولة نادرة طوال ذلك الحصار الشديد، وكنت أرسل اليهم أحثهم على الاستسلام وأهددهم اذا

أصروا على المقاومة بهدم كامل المدينة وتقتيل جميع سكانها. فكان جوابهم في كل مرة أن قاومونا بمزيد من الجلد والبسالة.

فهمت أنني قد أضيع كثيرا من الوقت اذا لم أعثر على خدعة تمكّن من احتلال المدينة، وأن لا فائدة في إضاعة الوقت لمواصلة حصار لا يرجي من ورائه الظفر. فدعوت قوّادي وخلائي. وعرضت عليهم خطّتي. وهي خطة تهدف الى اقتحام تحصينات القلعة في وقت واحد ومن جميع الجهات من طرف كتائب مكوّنة من خيرة الجنود نرسلها عندما نتمّ بناء قناطر تربط بيننا والقلعة من جميع جهاتها. وقضينا أياما وليالي في النقاش لوضع الخطة في صورتها النهائية، وكنت أظهار بالانصات الى نصائح قوّاد جيشي ولكن الخطة كانت مرسومة في ذهني بجميع جزئياتها ولا تحتاج الا الى منسّق للعمليات يسهر على تطبيقها بكل اتقان وحسب القواعد الحربية المجربة. وأنا أقدر الجماعة على تنفيذ الخطة ولو أنني لا أستنقص كفاءة أعضادي. ذلك أن آراء الآخرين مهما كانت صائبة وراجحة لا تنفع في ظرف حاسم سبّز فيه نتيجة حصار كبّدا خسائر جسيمة في الارواح ومضيعة للوقت بل ان تعدّد الآراء يثّ البلبلة في النفوس فتكون النتائج التي تنجرّ عنها وخيمة.

لا حاجة الا الى رأي واحد رأي القائد الاعلى الذي يقود جيوشه اما الى النصر وإما الى الهزيمة.

وبالفعل فقد أحرزنا على نصر عظيم بفضل خطّتي. سقطت مدينة صور. وما قدرنا على اقتحامها الا بعد حصار مرير دام شهورا. ولكنّها سقطت. وكان حنودي يحسّون في آن واحد بنخوة النصر وبانهاك شديد. وفتنوا بعد حصار طال واستطال بأن قائدهم يكسب بالاضافة الى خصاله ونقائصه قوّة مدهشة تطمئنهم وتحيفهم في نفس الوقت وهي قوّة الاصرار على تنفيذ ما قرّره.

قد رأوني أحارب في المقدمة غير مكترث بالاعداء الذين كانوا يحيطون بي من كل جانب وقد رأوني أيضا أندفع أول الناس نحو العدو في الوقت بالذات الذي يكونون فيه في وضع حرج أو عندما يبدأون في الانسحاب تحت ضغط الاعداء. كنت أول من يعرّض بحياته في سبيل الهدف الذي ينبغي بلوغه حتى يدرك حنودي أن بلوغ ما بطمح اليه أعلى ثمنا من الحياة نفسها.

ولاحظ جنودي فيما لاحظوا أن قوّادي كانوا يعارضونني ويتساءلون هل من المفيد أن نضيع وقتاً طويلاً في حصار مدينة صور ويدّعون أنه كان من الانسب أن نواصل حملتنا في اتجاه آخر.

ضايقتني تلك التحفظات التي كشفت عن حرص هؤلاء على تحبّب الصعاب والابتعاد عن الخط - أو بالأحرى وبعبارة خشنة تترجم عن شعوري آنذاك - اشمازت لتحفظاتهم.

قد يربحاً تنفيذ خطة ما ولكن لا ينبغي أن تقف أية عقبة في طريق الحلم الطموح. وإذا اعترضت عقبة فصّدت الطموح ينبغي أن نجد في أنفسنا من القوّة ما يجعلنا ندللّ تلك العقبة مهما كان الثمن ولو كان ذلك الثمن بذل حياتنا.

بابي الخفي

احتلت مدينة صور ثم فتحت فينيقيا (73) وسوريا (74) واقليم غزة (75) ودخلت أرض مصر.

ها أنا بمصر ! وعاد الى ذهني ولازمه كل ما كاشفتني به أولمبياس بشأن سلالتي الالهية ونسبتي الى الاله أمون (76).
مازلت أذكر كيف كانت تجتهد منذ عهد الطفولة الأولى لتلقيني الفكرة الطاغية على أحاسيسها والمسيطرة على حالات الابتهاال والوجد التي كانت تعيشها وهي أن ابنها هو ابن الاله أمون وذلك في مرحلة من العمر يحس فيها الصبي بأحاسيسه الأولى فيتفاعل معها أولى تفاعلاته.

ولما ثار بيني وبين فيليبوس شجار شديد اللهجة بسبب زواجه المزري من كليوباترا (77) التي هي في سن ابنته وصحبت أمي الى مملكة إيبروس حاولت هذه الاخيرة أن تغرس في نفسي تلك الفكرة من جديد بحماس مضاعف.
كانت أولمبياس طول مدة المغاضبة التي قضيناها في قصر أخيها ملك المولوس (78) تستنكر سوء معاملة فيليبوس لها وتحاول في نفس الوقت اقناعي بأن تصرفات أبي نحوها صادرة عن الغضب الشديد الذي استولى عليه عندما علم أنني ابن إله وأني أحمل في نفسي بذرة من عالم اللاهوت .

وكانت تصطحبني الى معبد زيوس بدودونا (79) وهنالك بجانب شجرة السنديان المقدسة (80) تحاول أولمبياس الحصول على تنبؤات بشأن القوة التي تمتلك كياني تلك القوة التي سيخضع لسلطانها العالم بأسره في يوم من الأيام.
ليست تلك القوة قوة بشرية ولا شك لأنه لا يقدر أي إنسان بمحض ارادته وطموحه أن يسيطر على العالم بأسره. لا يستطيع ذلك الا إله. اذن فأنا إله.

كانت أمي تصيخ الى هفيف الريح في أوراق السنديان المقدس وتفسرها بطريقتها الخاصة وتجعل جميع التنبؤات تفضي الى نفس النتيجة وهي أنني كائن لن يقهر أبدا في حرب وأن ليس لي أية صفة بشرية ما عدا انفعالاتي العاطفية. كنت صغير السن في ذلك العهد ولذلك آلمتني تصرفات فيليبوس أيما إيلام وبقيت مع ذلك أحبه وأكبره في قرارة نفسي.

ساهمت في معركة خيروني وكنت على رأس الخيالة. وفطنت أثناءها أن لي قوة تتجاوز دائما الحد الذي ترسمه لها ارادتي.

وتأكدت مما انكشف لي عندما حدث أن واجهت في مدينة كورينث (81) ملوكا وزعماء أذكىاء وفطنين أتوا من جميع الاقاليم اليونانية. وكنت أصغرهم سنا. وكانت نتيجة لقائي بهم أن قبلوا أن أكون قائدهم الاعلى ووقعوا بدون أي تردد على اتفاق ينص على ذلك.

لم يحدث كل ذلك بمحض الصدفة لان اليونانيين لا يقبلون بيسر أن يؤمر أحد عليهم ولو خشوا غائلته. ولا يؤمرون أحدا على مجموع قواتهم ولو قدروا مواهبه ومهارته وراعوا مصلحتهم الخاصة الا اذا أحسوا بأنه مدفوع بقوة ترغمهم على قبول سلطانه عليهم أو في أفضل الحالات تخفف من اعتراضاتهم وتخوفاتهم. ما أغرب ما أحس به من ثقة بالقوة الرابضة في نفسي. انها تفوق القوى البشرية وان الثقة التي تبعث فيّ تسمو الى مستوى النشوة.

أحاول أحيانا التخلص من ذلك الشعور وذلك عندما أدخل الى نفسي أو عندما أجدني أتصور من ألم الجراح التي أصبت بها أثناء المعركة مثل أي جندي من جنودي أو أي ضابط من ضباطي.

كنت أقول في نفسي : ان ذلك الشعور ليس له أي سند منطقي ولا تستطيع عقولنا فهمه الا اذا فحصته من الزاوية العقائدية الصوفية مثلما تصنع أولمبياس عندما تبأشر الاحداث محاولة تفسيرها.

ورغم كل هذه الاعتبارات فآني ما انتهيت الى الشك المطلق فيما كنت أحس به من قوة خفية خارقة لجميع الحدود وربما لم أكن حريصا على الوصول الى الشك فيها.

وهنا في مصر زال عني وسواس الاسئلة التي كنت ألقها على نفسي دون انقطاع وانطلقت بخطى ثابتة للقاء مصيري وباشرت عن كذب صفتي الالهية وانتسابي الى الآلهة في ذلك البلد الذي ازدهرت فيه حضارة ضاربة في القدم استطاعت أن تسبر بعمق يتجاوز طاقة البشر الاسرار الكبرى أسرار الحياة والموت.

عندما قدّمت القرين بمعبد أبيس (82) بعد دخولي المظفر مدينة هليوبوليس (83) استقبلني كهنة المعبد كما لو كنت إلهًا. وما كان هذا منهم ترفلاً. كما استقبلني قبلهم بنفس الحماس اليهود وحاخاهم الأكبر. وقد أعلن هذا الاخير أن الكتب المقدسة تنبأت بقدومي الى بلادهم.

ومن الغد غشيتني حمى شديدة دون أن أعرف لها سببًا. وأراد الأطباء قذفي برأيهم فقالوا أنني حممت لأني شربت من ماء مصر في حين أنني استحمت بالماء البارد وأنا عرقان. كلامهم عين الخور لاني كنت في تلك اللحظات والرعدة تهز بدني أستمع الى صوت أولمبياس يناديني ويكرّر النداء ملحاحاً قائلاً لي : تأهب في بلد الاسرار هذا الى ملاقة أسك الحقيقي. لقد دقت الساعة التي قررها القدر.

ولما شفيت قرّرت الذهاب الى معبد أمون في صحراء سيوه. فحاول خلائي جهدهم ومن بينهم هفستيون صدي عن تلك الزيارة بمختلف الحجج. كانوا يقولون لي اني أعرض بنفسي دون مبرر للخطر. ذلك أن المعبد الذي تلتبس فيه تنبؤات الاله يقع على مسافة بعيدة من مدينة منفس (84) التي كنّا نقيم بها وأنه ينبغي لي أن أقطع صحراء مصر كلها تقريباً لاصل اليه مع معاناة الحر الشديد. ولمحوا لي أن الحملة العسكرية التي قدها والمرض الذي أصابني أنهكا قواي. ونصحوني بأن أقلع عما عزمت عليه لاني لم أفكر في الامر بروية ولم أقدر أخطار الرحلة حق قدرها.

كان كل واحد منهم ينمّق خطابه ويطيل ويوضح الاسباب التي تجعله ينصحني بالاقلاع عن عزمي وييدي في النهاية بالرأي «السديد». وكنت بينهم كالأغائب عنهم. لقد انتقلت — وهم يتحدثون — هنالك في معبد الاله في ذلك المعبد الذي هو معدي أصالة وشعرت بأنني واقف أمام الباب الخفي.

وعندما أنهاوا تقديم اعتراضاتهم على ما عزمت عليه لم أفه بكلمة واحدة ولم أكلف نفسي تأكيد عزمي على الذهاب الى المعبد ولو عرّضت بحياتي للخطر. واكتفيت بأن طلبت ممن يريد أن يصاحبني بأن يعرف بنفسه. ولم يكن في لهجتي ما يوحي بأني أمرهم أو أنصحهم أو أعبر لهم عن أمنية ينبغي أن يستجيبوا لها اذا أرادوا أن لا يغيطوني. كنت أثق بحصافة رأيهم وما كنت أشك لحظة في أنني قادر على قطع الصحراء وحدي مشيا على الاقدام ليلا ونهارا حتى أبلغ الهدف الذي رسمته لنفسي وأنتهي الى المكان الذي ألتقي فيه رغبتني.

كان هفستيون أول من استجاب لدعوتي. وفحصته بدقة حتى أفهم ما الذي دعاه الى اتخاذ قراره. هل كان حريصا على أن لا يتركني أواجه وحدي أخطار تلك الرحلة عبر الصحراء أم هل أدرك أن تلك الرحلة لها صبغة الضرورة التي تفرض نفسها بنفسها ولا تترك مجالا للتملّص. ولكن لم تكشف ملامح وجه هفستيون عن أي تأثير بل بقي ينظر إلينا بنظرة الصافية العذبة المعروفة لدى الجميع. وتشاور جماعة من خلّائي ممن كانوا أقرب الى نفسي وأجمعوا على أن يصحبوني. فما ألقيت فيهم خطابا وانما اكتفيت باعلامهم بأن رحلتنا ستبتدىء في اليوم الموالي عند طلوع الفجر.

ربما كان ذلك السفر شاقا منهاكا ولكن لم أتذكر منه شيئا. أمحي كل شيء في ذاكرتي ما عدا ذكرى تلك اللحظة عند الاصيل وقد وصلنا الى واحة سيوة فرأيت على خط الافق معبد الاله أمون فنخست جوادي بوكيفالوس حتى يسرع في العدو فنقطع المسافة التي كانت تفصلنا عن معبد نبوءة أمون في شوط واحد. كان الكهنة ينتظرونني على عتبة المعبد. وقال كبيرهم بكل بساطة :

— كنّا نعلم أنّك ستأتي فبقينا ننتظر قدومك.

وأدخلوني المحراب وشاهدت أمون جالسا على عرش من ذهب تحيط به أشجار من ذهب أيضا. ولم يدخل داخل المعبد أحد غيري وصحبني الكهنة وهم محلّفون على كتمان السرّ. فلم يطلع أحد على ما جرى داخل الحرم ولم يشاهد أحد مقابلي لأمّون وسط عجاج من البخور الشدّي المتصاعد من كل ركن من أركان المعبد. كلّ ما سيقوله الناس أو يكتبونه بعد موتي عن هذا اللقاء سيكون صادرا عن افتراضات بسيطة يفترضونها أو يكون من صنع خيالهم لاني أنا الوحيد الذي

كنت متألماً ولكن كنت مع ذلك أعتقد أنه لا يستطيع أحد في الدنيا أن
يسلخ عني تلك القناعة أو اذا شئت ذلك الوهم.
لا يهم غيري ما طرأ علي في حين أن حالة التجلي التي عشتها أسعدتني أيما
اسعاد ومنحتني قوة مضاعفة وشجاعة نادرة. فغدوت قادراً على بلوغ أقصى
الارض.

كان هفستيون هو الوحيد الذي لم يسخر بي ولم يستنكر سلوكاً أثار امتعاض
سائر خلائي. وهذا أمر طبيعي لأن هفستيون كان عدلي وفلقة من ذاتي.
وقد حدثنا أفلاطون عن ذلك العديل المماثل لكل واحد منا الذي يتقمص
أعز أصدقائنا. فاذا بالجزء من نفوسنا ومن أجسادنا الذي انعزل عنا يعاد إلينا بعد
سنوات أو بعد قرون في الساعة التي نلاقي فيها الصداقة.
كيف يكون لهفستيون شعور يخالف لشعوري ؟ كيف يستطيع استنكار ما
منحني السعادة المثلّي وما كنت أحمله منذ نعومة أظفاري أي منذ حدثتني أولمبياس
لاول مرة عن نسبي الإلهي ؟ كيف لخليلي هفستيون أن يستنكر شعوراً غرس في
نفسي منذ عهد الطفولة فترعرع وازدهر ؟

اسكندريتي وبابل

حاولت الاغضاء عن الغضب الذي كان يتصاعد حولي يوما بعد يوم. وقررت المضيّ قدما لتحقيق أحد أحلامي :

بنيت في كل قطر حللت به غازيا أو حليفا مدنا أردت أن تبقى منارات على الطريق التي قطعتها في غزوتي. وأصدرت تعليماتي الى من كان معي من المهندسين المعماريين ومهندسي الاشغال حتّى يشيّدوا المدن الجديدة حسب الخطة التي كنت أتخيلها. فأمرتهم بأن يبنوا فيها مسارح لتعليم فنّ المسرح وملاعب لتدريب الرياضيين وساحات عامّة لتمكين الخطباء من الاتصال بال جماهير والسياسيين من عرض نظرياتهم في تنظيم المجتمع. ومنحت اسمي لاوّل مدينة أسّستها بدافع طموح أراه مشروعا فسمّيتها الاسكندرية.

وقد سبق أن سمي المهندسون المعماريون والصنّاع الذين صحبوني كثيرا من المدن باسمي تقرّبا لي.

لقد أسّست مدنا كثيرة تحمل اسم الاسكندرية وكانت جميعها تروق لي وكنت أحبّ جميعها بنفس القدر لان بنائها راعوا رغباتي عند تشييدها. ولكن لم تكن احداها مطابقة تماما للصورة التي رسمتها في مخيلتي مطالعائي وأحلامي. وهنا في مصر كما لو كان نسبي الالهيّ يلهمني ويملي عليّ ارادته كنت مدفوعا برغبة ملحة الى أن أبنّي مدينة تكون مطابقة تمام المطابقة للصورة التي رسمتها أحلامي.

لقد وضعت الخطوط الكبرى لمثلها. واخترت أيضا موقعها وأصدرت تعليمات واضحة للمهندسين وأمرتهم بتنفيذها بدقّة.

وأبدى مهندس من أثينة بعض الاعتراضات. كان يعارض اختيار الموقع وينصح بأن لا تجمع كثير من المنشآت العامة في مكان واحد. فلم أترك له المجال ليبدلي بجميع ملاحظاته وقلت له بلهجة صارمة :

- هذه المدينة مدينتي. هي اسكندرיתי.

فسكت المهندس وبقي قابعا في مكانه يحرك رأسه كما لو كان مقتنعا بقولي. وما كان ذلك الاحق قادرا على فرض رأيه عليّ.

وأمرت المقاولين بأن يشرعوا في الاشغال بدون تراخ لآتي كنت أودّ أن أتمتع برؤية مشروعي مجسّما وأن أشاهد اسكندرיתי ترفع حسب مخطّطاتي وتستكمل بهجتها واشراقها وتزدان بالمباني العظيمة وقاعات الطرب يحيط بها البحر من كلّ جوانبها.

ولما وعدوني بانجاز المشروع حسب رغبتني واصلت الحملة بعزم مضاعف ولكن لم يكن لجنودي نفس الحماس الذي كان يدفع بهم في بداية الحملة لأنّ الشكوك بدأت تدبّ في نفوسهم. ذلك أنّنا انطلقنا في تلك المرّة لغزو اقليم ما بين الرافدين وهو اقليم ازدهرت فيه عدّة حضارات تأثّرت بمناخه وطبعت بطابعه ولم تقدر على مقاومة الدهر الذي نال منها ففتتها شيئا فشيئا والدهر يأتي على كل شيء.

وقبل أن نصل الى اقليم ما بين الرافدين اصطدم جيشي من جديد بداريوس الذي حاول بشجاعة نادرة وبعنف شديد صدّنا عن ممتلكاته. ودارت المعركة بين الجيشين بقومالا.

إذا أخذت أعيد ذكرى الاحداث التي جرت مع ذكرياتي الشخصية مثلما أفعل الآن و إذا شرعت في تعداد انتصاراتي فأني أخشى الملل والسآمة. ولذلك أكتفي بذكر معركة قومالا دون أن أضيف الى ذكرها شروحا وتعليقات. وسيكون ذلك دأبي بالنسبة الى الانتصارات الاخرى فيما بقي من حديثي تاركا للمؤرّخين بعدي ولخبراء الحروب فرصة الاستيلاء عليها لتشيّيحها.

نفسني توافقة الى الوصول سريعا عن طريق الذكرى الى بابل ومشاهدة دخولي المدينة من باب إشتار⁽⁸⁵⁾ البديع وأنا راكب العربة المصفّحة بالذهب وهي عربة غمّتها من الفرس لا تقدّر بثمن. أفقر بذاكرتي حتى أسمع مرّة أخرى صيحات

النصر وأشاهد الرهبان والكهنة ساجدين عند قدمي في مدخل المدينة يحيونني ويطلقون عليّ اسم «صاحب المعمورة». نعم. أنا صاحب المعمورة ومحرمها في نفس الوقت وكنت أحب أن يسموني بهذا الاسم.

وما ان حللت بالمدينة حتى أمرت بترميم معبد بابل الاكبر ⁽⁸⁶⁾ واعادة بنائه في شكله القديم ذلك المعبد الذي خرّ به كسر كسيس ⁽⁸⁷⁾ في نوبة من الغضب الجنوني المقيت اعترته عندما أتاه نبأ الهزيمة النكراء التي كبّدها اليونانيون لاسطوله وجيشه في معركة سالامين.

وكان لقراري أثر عميق لا في نفوس الكهنة فحسب بل في نفوس أعيان المدينة وعامة الناس أيضا لأن جميع سكان بابل متدينون الى أبعد الحدود. ذلك لأن أرض ما بين الرافدين المعرضة للفيضات الشمس المحرقة قد شاهدت بزوغ أديان عديدة توالى على تربتها وغمرت ساكنيها نورا أو غطتهم بالظلمات. وسواء أأنارت سبليلهم أم أضلتهم فاتّاه غرست فيهم إيماناً يفتقرون اليه مثلما يفتقرون الى الماء والهواء. وانتقدي الناس مرة أخرى وقال بعضهم أنّه كان ينبغي أن أتخذ قرارات أخرى تعود على الناس بالفائدة عوض أمري بترميم معبد إله المدينة الاكبر وقالوا أيضا ان قراري صادر عن خدعة أرمي من ورائها الى كسب نفوس السوق المتشبهة بعقائدها الفاسدة التي تدفع بها الى عبادة الشمس واقامة طقوس دينية سرّية للتقرب منها.

وأمسكت عن تلك الانتقادات وما كلّفت نفسي دحضها. كنت مصرّاً على أن لا أجيب وأن لا أبرّر ساحتي أمام هذا السيل من الشكوك التي تعتمد استنقاص كل بادرة تصدر عني. كنت أحسّ بضرورة ملحة استولت على كياني وكانت تدفعني الى أن أجعل من بابل مركز القيادة.

وها أنا عدت من جديد الى بابل في هذه الساعة التي أكتب فيها هذه السطور لأروي مراحل حياتي وأكشف عن التّوايا الكبرى التي أردت تحقيقها. واني أدرك الآن بأكثر وضوح ما الذي شدّني الى هذه المدينة وما يشدّني اليها مدى الدهر شدّاً وثيقاً ومفروضا عليّ فرضاً.

تشدني عظمتها ويستهويني أفول نجمها، وأميل الى تقى أهلها، ويهزّني ذكرى مجدها القديم.

فبابل ترمز في مرارة الى حظّ الانسان الفاني في دنياه هذه. ولو كان ذلك الانسان عزيزا مثل نبوكدونصر⁽⁸⁸⁾ الذي أنشأ الحدائق المعلقة الشهيرة احياء لذكرى زوجته وتمجيدا لسيد الارض والعباد، القاهر الذي لا يقهره أحد، أعني الموت.

أما أنا فأنّي أعتقد أن ليس الفناء نصيبي. ولست بشرا عاديا يهدده الموت في كل خطوة يخطوها. تلك العقيدة انغرست في نفسي في مصر في اليوم الذي وجدت فيه نفسي أمام أبي الهول ومككت لغز ابتسامته ثم ذهبت الى معبد أمون فأيد الكهنة قناعتي. ومازالت هذه القناعة تلازمي وتراودني هنا في بابل. لا، ليس من نصيبي أن يهبّ عليّ إعصار التاريخ المدمر فيتركني تحت غشاء من الرماد والصمت. لقد قضيت على جموع من أعدائي لا يحصيها عدّ، وهزمت داريوس المرات العديدة. وصمدت أمام البرد والعطش وحرّ الهجيرة والمرض. وأسست في كل مكان مدنا ستكون شاهدة الى آخر الدهر على أني عبرت يوما بهذه الدنيا فغيّرت وجه العالم.

باسم الاله الذي فطرني أعلن بأنّه لا يستطيع أحد محو ذكرى.

الاسكندر المقدوني يريق الخمر تقربا للالهة

ها قد أتى اليوم الذي أقسمت فيه بالايمان المغلظة أن أثار لليونانيين الذين أذاقهم
الفرس ألوانا من العذاب طوال عشرات السنين.
مررت سريعا بمدينة السوس وأنزلت عائلة داريوس مكانا يليق بمقامها وهو
قصر ملوك فارس. رأيت أن أضع حدًا لتسيارها وراء جندي. ولم أمس المدينة
بسوء.

فخفف ذلك العمل الكريم من قسوة القرار الذي وطئت عليه نفسي منذ
اللحظة التي انطلقت فيها لخوض هذه المغامرة وهو تقويض برسيبوليس⁽⁸⁹⁾
وتسويتها بالارض لانها كانت رمزا لكبرياء الفرس ومجد ملوكهم. فهي تشهد
لزائرها عندما يلقي عليها أول نظرة على صلف من بناها. وقد كانت الوفود تفد
عليها من جميع أصقاع العالم ومن ضمنها وفود اليونانيين. وتقف عند بابها الرئيسي
لتبلغ ملك الملوك آيات ولاء شعوبها. وأن الرسل الذين قدموا الى بلاد يونان
مطالبين أهلها بأن يهبوا لملك الفرس الارض والماء ليقوا أنفسهم من غائلة جند
فارس انطلقوا من تلك المدينة الطاغية.

حقًا اني لم أشعر بأية شفقة نحو مدينة برسيبوليس عندما أمرت باشعال النيران
في جميع أرجائها حتى لا يبقى منها أي بناء قائما. واختطفت مشعلا وذهبت الى
القصر الذي دبرت فيه الخطط التي تولدت عنها العديد من الكوارث التي انصبّت
على الشعب اليوناني. ووقفت عند بابه. ورميت بالمشعل وطلبت من الضباط الذين
كانوا يصحبونني أن يقتدوا بي فيرموا القصر مثلي بالمشاعل.

وحاول برمينيون مرّة أخرى أن يشيني عن عزمي قائلا ان ذلك القصر أصبح
ملكي وفي يدي فلا فائدة اذن في احراقه لاني اذا أحرقتة أضعت ما غنمت.

وتركت نصيحته جانبا" لأنها كانت تتنافى مع ما عزمت عليه وتناقض ما كنت أراه واجبا مفروضا عليّ فرضا.

كان ذلك القائد الشيخ يرى الأمور من وجهة مطلقة ضيقة تدفع به الى محاولة صدّي عن صنيع سيعتبره الناس في الحاضر وفي المستقبل أيضا عملا وحشيا لا يليق بمقام ملك مقدوني حظي بالتشبع بتعاليم أرسطوطاليس.

ولكن في تلك اللحظة التي كنت فيها أمام القصر لم تكن لي الا غاية واحدة وهي انصاف اليونانيين الذين سبقوني ولو بتلك القسوة. وهم أهل لذلك لأنهم وقفوا في وجه داريوس⁽⁹⁰⁾ وجيوشه الغاشمة ببطولة نادرة وحاضوا لصدّه حروبا طاحنة.

كنت أنظر الى النيران تلتهم القصر وأستمع الى أزيز الحريق وأحسّ بأن لحظة الانتقام والتدمير التي كنت أحيها كانت أيضا لحظة لها أبعاد روحية.

كان الحريق الذي أضرمته بمثابة طقس ديني وقف أثناءه الاسكندر المقدوني خاشعا متضرّعا أمام الالهة يريق الخمر من الاكواب قطرات متوالية تقربا للالهة حتى يباركوا أرواح أولئك الذين ضحّوا بحياتهم وهم يكافحون الفرس.

ان الحريق الهائل والدخان المتصاعد الى كبد السماء لدليلان على أن الحملة التي شنها اليونانيون على الفرس قد بلغت ذروتها ومنتهىها. فقد قضى يومها على امبراطورية فارس قضاء يكاد يكون مبرما وحررت المدن اليونانية في آسيا الصغرى وطهرت البحار من أسطول فارس الذي كان يوالي الغارات علينا فأُمست تلك البحار مجالا لليونانيين يرتعون فيه متى شاءوا ويعبرونه كما شاءوا ليمتّنوا صلاتهم مع سائر أقطار العالم.

قد بلغت يومها الهدف الرئيسي الذي رسمته. وما كان حلفائي الذين تبعوني الى برسيبوليس ينتظرون منّي أكثر من ذلك.

فدعوت رؤساءهم ودار بيننا حديث طويل. وكنت قد أرسلت اليهم قبل قدومهم الغنائم الضخمة التي غنمناها من الفرس حتى يعودوا بها الى ديارهم ويوزعوها بين مواطني مدنها. تفتّنت الى ذلك لأنّي كنت أعلم أن مثل تلك الهبات اذا سبقت محادثة مهّدت لها الجوّ المناسب وخوّلت لواهبها القدرة على تغليب رأيه.

وفعلا أنصتوا إليّ كامل الانصات وسرّوا عندما علموا أنّي أسمع لهم بالعودة الى أوطانهم وقد قاسوا عديد المحن وتصدّوا لمغامرات لا تحصى وشاركوا في كثير من المعارك الطاحنة. وكان فرحهم يعظم عندما يفكرون أنّهم سيعودون الى المدن التي انطلقوا منها فائزين مظفرين ومحمّلين بغنائم وافرة وبنصيبهم من مجد اكتسبوه عن قدرة وجدارة.

واستأذنتني خطيب من أثينة حتى أسمع له بأنّ يلقي على مسامعنا خطابا موجزا يستخلص فيه العبرة من تلك اللحظة التاريخية. وأعطيت له الكلمة ولو أنّي أمقت خطاب الفخر والتباهي التي تشبه خطاب التأبين التي يستأجر لها الناس الخطباء. وشرع ذلك الخطيب في خطابه. وكان مهذرا طليق اللسان. وكم كان الاثينيون مهرة في هذا الضرب المزيف من الخطابة. وضرب صفحاعن الشتائم التي صبها ديموستينيس عليّ وعلى أي مدعي بالخصوص أنّنا من قوم هج بل فضل أن يدّعي أن شعب أثينة يحبني حبّا حمّا وانه سيعتبرني من اليوم فصاعدا سيده الشرعي بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزت عليها.

كنت أبتسم ابتسامة ساخرة طوال الفترة التي دام فيها خطابه ولكّنه كان يجتنب بحذق النّظر إليّ حتى لا يتعثّر في كلامه فيفسد خطابا نسجه بدقة لهذه المناسبة. وبقيت منذ ذلك اليوم وحدي لا يصحّبي الا جنودي المقدونيون وحلفائي الذين اختاروا أن يواصلوا الحملة معي كمرتزقة ويتصدّوا معي للمجهول. كنت أحسّ بأنّي أستطيع أن أتصرّف بأكثر حرية وأني أقدر على مواجهة الاخطار وخوض المغامرات الجريئة لبلوغ هدي ومواصلة سيري.

وقال لي هفستيون في حديث طويل جرى بيننا في مساء ذلك اليوم أنه لا ينبغي أن أكون واثقا بنفسي هذا الوثوق. وقد تسرّعت في رأيه عندما سمّخت لحلفائي أن يتركوني لان داريوس مازال حيّا يرزق وهو قادر على حشد جنود جدد يأتي بهم من مملكته الشاسعة الاطراف وقادر أيضا على أن يدعو لنجدته الشعوب المجاورة له. فاذا وقّ في سعيه شنّ علينا هجوما واسعا فنجد أنفسنا منعزلين عاجزين في ظروفنا الحالية على التعلّب عليه.

استمعت اليه بعناية. وهكذا كنت أفعل دائما عندما لا أكون متّفقا معه في الرأي. وحاولت تهدئة حاطره قائلا ان داريوس بعد أن كبّدها الهزائم الكثيرة وبعد

أن أحرقنا برسيبوليس أصبح شيخ ملك. همّة الوحيد هو الفرار الى أقصى الارض. وأضفت قولي هذا :

— ان المصاعب التي ستعرضنا لن يسببها لنا داريوس، ولن تكون ناتجة عن المعارك الحديدية التي ينبغي أن نخوضها لتتوغل في أصقاع الارض. فحملتنا قد كللت بالفوز من الوجهة العسكرية، وكان النصر حليفنا. فالمشكلة الاساسية المطروحة علينا من اليوم تكمن في أنفسنا. أتساءل هل سنجد في أنفسنا القوة الكافية لا لمصارعة الاعداء أو لبلوغ هدف معين بل لمواجهة المجهول.

وكانت مواجهة المجهول هذه تبعث في نفسي بالفعل الفرع والحماس في آن واحد. وتركت برمينيون باكبثانا⁽⁹¹⁾ وعيّنته حاكما عسكريا للمدينة. كنت أكنّ له كما قلت سابقا كثيرا من التقدير والمودة والاحترام. وانما بدأ يضايقني لأنه لا يزال يخاطبني من منطلق الحنكة وبلهجة المرتبّي، كما لو بقيت في نظره وليّ العهد المراهق الذي تعرّف عليه في مدينة بيلّا. كان ذلك القائد الشيخ مليئا بالحكمة، ولكن حكمته كانت من النوع البسيط الضيق الافق الذي يكبح العزائم ويعاكس الاحلام الطموحة. لو عملت بالنصائح التي كان يسديها إليّ باخلاص ومودة منذ بداية الحملة لانتهت المسيرة بفتح مدينة صور.

تركته باكبثانا مؤكّدا له أن المدينة في حاجة الى حاكم عسكري موهوب ورشيد. لم يبد على ملامح وجهه أنه صدّقني، ولكن لم يستطع الا الخضوع لامري، وقد فطن أيّ عازم على مواصلة مغامرتي الجريئة دون أن تعرقل سيرتي نصائحه وحثه على الحذر.

كان من المتوقع في المرحلة الموالية أن أتصارع مع داريوس. ولكن القدر أراد خلاف ذلك. لم أبارزه الا مرّة واحدة في معركة إسّوس في تلك اللحظة القصيرة التي بارزته فيها وجها لوجه فقدحت عيناه وعيناي معا وأرسل سيفانا المشتبكان الشرار.

ولما رأيته للمرة الثالثة كان ذلك العدو العظيم ميتا. سقط أسيرا — ويا للمهانة — بين أيدي بسوس⁽⁹²⁾ فقتله هذا الاخير لأنه كان ينوي اعتلاء عرش امبراطورية وقع محوها من الخريطة.

كان دارايوس مطروحا في بركة من الدماء. قد مزّقت جسده طعنات عديدة سددها له غلمان بسّوس عندما رفض أن يمثل لامرهم فيتبعهم — وهو الرهينة الغالية — الى حيث كانوا يحثّون السير للنّجاة من جندي الذي كان يلاحقهم بعنف ودون هوادة.

لم تزل عيناه مفتوحتين وكان يخال لي أنّه يسألني في حيرة لماذا لم أرض باقتسام الدنيا معه لحقن أنهار من الدماء المراقبة من الجانبين والكف عن خوض المعارك المبيدة.

وأحسست بشعور غريب يهزّني، فنزعت معظفي الارجواني الذي لا يرتدي مثله الا الملوك وطرحته على جثة دارايوس الملتطّخة بالدماء. اختفت في ذهني صورة العدو اللدود. ولم أر أمامي الا ملكا صريعا. كان ملكا متجبرّا متكبرا حقودا شرساء ولكنّه كان مع ذلك ملكا شجاعا.

ضياء الحريق

أسند التي لقب ملك الملوك وأصبحت صاحب امبراطورية الفرس الترامية الاطراف. استوليت على كثير من أقاليمها خطوة بخطوة وبمحض قوتي. ووهبتني الالهة ما لم يسقط منها في قبضتي بفضل تلك الميتة غير المنتظرة، ميتة داريوس التي كنت أتخيل وقوعها في ظروف مخالفة تماما للظروف التي وقعت فيها. كنت أتوقع أن يصرع في معركة حامية مثل التي دارت رحاها في إسّوس عندما يبلغ هيجان الجنود المتقاتلين أوجه فتتعالى صيحاتهم داوية فتغمر الاذهان والارواح بنشوة عارمة شبيهة بتلك التي يحدثها خمر جبل أولمبوس⁽⁹³⁾ المعسل. ولكن صرع داريوس غدرا. لقد خانته أولائك الذين يدعون أنهم من حزبه. اغتاله بسوس ذلك القزم المغرور. وهو يطالب الآن — ويا للحماقة ! — بعرش فارس.

وأمرت بنقل جثمانه الى بسرقاديس⁽⁹⁴⁾ بعد أداء جميع المراسم اللائقة بمقامه تحية مني لجلده ومصرعه الأليم. وأذنت بأن يوارى في قبر منقور في صخر الجبل بجانب قبور أجداده. كانت ميتته تفرض عليّ رغم ما كان يفصل بيننا ورغم أنهار الدماء التي أريقّت في كثير من المعارك الطاحنة أن أنسى جميع نزاعاتنا. أن أنسى كل شيء.

وعزمت على تصفية الحساب مع بسّوس. ولم أكن في الحقيقة أعيره كثيرا من الاهمية لأن أولائك الملوك الاقزام الذين تأتي بهم الصدفة يجروون على اغتصاب مناصب ليسوا لها أهلا. فيعجزون عن حفظها لأنهم يحملون في نفوسهم بذور فشلهم.

واختار بسّوس المسالك الوعرة فاقتحمها لينجو من مطاردتنا له. وكان يدمر ويحرق كل شيء حوله أثناء انسحابه، ظنا منه أنه يستطيع إرغامنا على الكف عن ملاحقته وحملنا على التقهقر بازالة مصادر الميرة.

وقطعنا ونحن نلاحقه منطقة جبال القوقاز الهندي⁽⁹⁵⁾ وسلكنا مسالك جبلية تعلوها قمم كللتها الثلوج. وكانت تلك المغامرة من أشق المغامرات التي أقدمنا عليها ولكنها زودتنا بتجربة غالية كسبناها بباهظ الثمن. ولاح لنا بعد لأي اقليم باكترياني.

كانت الاستراحة ممكنة في مدينة باكترا خاصة بعد أن قبضنا على بسّوس فوجدناه غلاما هزيلا يرتجف خوفا. وكان جنودي المقدونيون المدربون يطالبونني بالاستراحة ويلتجئون في الطلب لأنّ عبور القوقاز الهندي أنهكهم. وقد جرى في ظروف مناخية بلغت ذروة القسوة. وكان الكثير منهم مرضى. فاقمت لهم مستشفى في عاصمة اقليم باكترياني حتى يستطيع أطباء الجيش معالجة المرضى والجرحى الذين تنذر حالتهم بالخطر.

أما أنا فأنّي كنت عازما على مواصلة سيرى ومصمّما على التوغّل في الاصقاع. لا أرمي من وراء ذلك الى احتلال أقطار جديدة وتوسيع رقعة ملكي كما سيّدعه في المستقبل من سيعتنون بدراسة تأريخ حياتي.

استوليت بقوة السلاح على جميع ما كنت أطمح اليه. فكسبت مملكة شاسعة. ودان لي المصريون وأطلقوا عليّ لقب فرعون. ودان لي الفرس ولقبوني بلقب ملك الملوك. وحملت تاج ملوك الفرس العظام الذي زيّن جبين كورس الحكيم (96) أول ملوكهم. وسعدت بما هو أخطر من كل ذلك حيث كنت أضع نفسي في منزلة أسمي من المنزلة التي تحدّدها الالقب الشرفية التي أسندت لي. وقد استولى عليّ هذا الشعور ابتداء من اليوم الذي زرت فيه معبد أمّون في صحراء سيوة. فتجلّت لي فيه الاسرار.

هل من مزيد بعد أن استوليت على ما استوليت عليه وشددت ما شددت بيد من حديد؟ هل من مزيد بعد أن انكشف لي ما انكشف فحافظت عليه في أعماق النفس كالسرّ المكنون؟

أنا الغالب الذي لا يقهر. أنا صاحب أعظم مملكة في العالم. وأنا فوق صروف الدهر التي تنال البشر فتودي بالملوك وعروشهم. أنا خالد. ما هذه الرغبة في مواصلة المسيرة؟

كان في وسعي أن أشيّد عاصمة جديدة للملكي تكون ساطعة وفخمة مثلما كنت أتصوّرها في أحلامي. كان من البسير عليّ أن آمر المهندسين الذين كانوا يصحبونني ببناء مدينة المدن تحت رقابتي الدقيقة أي المدينة المثلى التي تكون مقرّ إله رضى أن يكون في نفس الوقت ملكا على البشر.

كنت أجمّع في تلك العاصمة التي قد تسمّى الاسكندرية — ولمّ لا ؟ — كلّ كوز ملوك الفرس التي أمست في عهدي. كنت أبني أبهى قصر في العالم لاقضي فيه آخر أيام حياتي البشرية هادئاً مطمئناً بعيداً عن الاخطار والمحن والمخاوف. أنعم بالسعادة صحبة أحبائي وحيرة جنودي المقدونيين أولائك الجنود القدامى المدرّبين الذين رضوا طائعين أن أقودهم عندما اقتحمنا هذه المغامرة بمعية اليونانيين جميعهم.

لو بنيت تلك المدينة لاعترف جميعهم بالوهيتي ولسلمت من احتجاجاتهم واعتراضاتهم التي كانت تؤلمني أيما إيّلام.

لو بنيت تلك المدينة لالتكأنا كل مساء على الارائك الوثيرة في قاعة المآدب الفسيحة لنحتسي الخمر الحمراء القانية التي سريعا ما تصعد الى الدماغ فتملأ النفس حبورا دون أن تلعب برأس شاربها، ولسكبنا حمرتنا في أكواب من ذهب مرصّعة بالاحجار الكريمة وكم هي كثيرة في خزائن الفرس، ولترنّمنا على نغم مقطوعات موسيقية إيونية يشنف بها أسماعنا عازفون على المزامير، ولانصتنا الى الرواة يلقون علينا فقرات من ملحمة الالياذة. واذا انتشينا قليلا باحتساء الخمر وسماع الالياذة وانكبنا على الموائد قام هفستيون وانتصب وسط القاعة وهو يعدل إله الشمس أبلون⁽⁹⁷⁾ جمالا وألقى علينا بصوته العذب الذي يثلج الفؤاد في أشدّ حالات العسر أبيات هوميروس التي تلذّ لي أكثر من سواها، وهي تلك التي تعظّم العاطفة البشرية الوحيدة التي تحمل — كما قلت سابقا — بشرى الخلود وهي عاطفة الصداقة. والصداقة التي مجّدها هوميروس هي الصداقة التي كانت تربط بين أخيلوس وباتروكلوس، فبلغت ذروة من السموّ لم تبلغها أيّة عاطفة مماثلة فأثارت حسد الآلهة.

لو تحقّق ذلك لبلغت من السعادة قمة لا يتمنّى تجاوزها أيّ انسان سوى أنا. ذلك لاني كنت أعتقد أن لا سبيل الى بلوغ النهاية ولا سبيل الى بلوغ الكمال. فاذا انتهت معركة تهيأت الاسباب للدخول في المعركة الموالية. كنت أحسّ دائما بأنني صاعد سلّما درجاته لا تنتهي. لا بدّ لي أن أصعد كل مرّة على درجة دون أن أفكّر لحظة في التوقّف قائلا :

— كفاني صعودا. تلك نهاية المطاف.

كان خلّائي لا يفهمون موقفى هذا ولو أنّهم شاركوني حماسى الفياض منذ بداية الحملة. أما جنودى فكانوا أعجز من أن يصلوا الى مستوى الفهم والادراك. كانوا ينظرون الّتي مبهوتين وهم عاجزون عن ادراك مقاصدى اذ أنّى بلغت في نظرهم الاهداف التي رسمتها لنفسي.

وكنت في حالات الهدوء والسكينة أبرّ في قرارة نفسي شكوكهم واعترافاتهم. ولكن اذا تغيّرت حالي أحسست بأن ضيق آفاقهم ونظرتهم البسيطة للامور يضيّقان صدري فاستسلمت أحيانا الى نوبات من الاستنكار والغضب ما كنت قادرا على كبح جماحها.

وها أنا أفكّر الآن والنفس حزينة في ما آل اليه أمر فيلوتاس أحد خلّائي. كان يعارض دائما مشروعاتي. وهو غير قادر على استيعاب كنهها وادراك مراميها أي المرامي التي أحملها أيّاها... وكّم حاولت أن أفهمه أنّ من يطبّق الآراء والافكار التي كان يصدح بها لا يمكن له في أحسن الظروف أن يطمح الا الى الاحراز على منصب موظّف عاطل في احدى الولايات الآسيوية الضائعة. وكنت أضيف

قائلا ان السيطرة على الدنيا لا يظفر بها ذو العقل السليم والمزاج المعتدل. ما كان فيلوتاس يريد أن يفهم وما كان يحاول... وآل به الامر الى أن أسرّ الى قوّاد الجيش بأنه أصبح يخشى عواقب سيرتي.

كان يقول لهم أنّي سأجد دائما أعدارا مقنعة حتى لا نعود أبدا الى أوطاننا. وإنّني اخترت أسلوب عيش فارسي وفضّلته على أسلوب عيش المقدونيين. وذلك لا يتجلّى فحسب في طريقة المخاطبة ونوعية الأعمال بل أيضا في نوع اللباس الذي أصبحت أرتديه.

لو واصل فيلوتاس التشنيع بي بهذه الصورة لاقتدى به آخرون وسرت العدوى في الجيش. فأرغمت على التخلص منه كلّف نفسي هذا القرار ما كلّف. وطغى عليّ حزن عميق بعد أن أمرت بقتله. ولكن ما وجدت لردع صنيعه أيّ حل آخر. وحافظ فيلوتاس على منزلته في قلبي لأنّني مازلت أعده من بين خيرة خلّائي الذين شاركوني مغامراتي وأعزّهم لديّ. وانما أتت الساعة التي فقد فيها مكانه بيننا.

أخشى أن ينحرف هذا الحديث الى مرافعة للدفاع عن نفسي. وهذا مناف لطبيعتي تمام المنافاة. اذ صُنعت خيرا في حالات هدوء وسكينة — وكم كانت قليلة — أو اقترفت شرا في حالات غضب — وكم كانت كثيرة — فقد قمت بهذا أو ذاك عن دراية. فلا أكرث بحكم الآخرين على تصرفاتي، وقد صرّحت بذلك مرارا ولا أبالي بحكم التأريخ لي أو عليّ، لان أحكام التاريخ كما يعلم جميع الناس أحكام نسبية ومشبوهة.

كيف يستطيع الكاتب الرديء الذي سيتناول حياتي بالدرس بعد مضّي بضعة قرون أن يطّلع على حالتي النفسية، فيكتشف الدوافع الخفية التي أدت بي في كل مرة الى اصدار حكم قاس لا رجوع فيه على مساعدين لي أكنّ لهم المودة مثل فيلوتاس وبرمينيون ؟

من أتاه بعد قرون نبأ حريق فاجتهد للتعرف عليه عن طريق مطالعة الكتب وجمع المراجع الاخرى، لا يشبه من وجد نفسه محاطا بنيران ذلك الحريق. فأول الرجلين عاجز عن ادراك ضوئه الساطع وقوّته المدمرة. لا يستطيع أحد ادراك كنه الحريق الذي كان يضطرم في قلبي وفي فكري، لاني أنا وحدي الذي غمرني ضياؤه ولفحتني نيرانه.

موت صديق

حقاً، لقد فقدت كثيراً ممن كنت أكنّ لهم المحبة، وكنت إلى التوادد حولي فقيراً ولو لم أصرّح بذلك لأي كان. فكان الفراغ يتسع حولي شيئاً فشيئاً كلما أصابت أصدقائي نوائب الدهر. وكان يسيطر عليّ ذلك الشعور بالعزلة عندما أمرت بمواصلة المسيرة في اتجاه أصقاع جديدة غير عالىء باعتراضات المقدونيين.

لم تكن المسيرة التي أمرت بها حملة عسكرية بالمعنى الدقيق للكلمة بل رحلة لسبر المجهول. كان الهدف في تلك المرة هو الهند. وكنت أعلم أن تلك الحملة الاستطلاعية ستكلّفنا تضحيات جديدة حيث أننا سنواجه في معارك طاحنة دامية أقواماً عقدوا العزم على الاستماتة للدفاع عن أنفسهم.

لا أستطيع عدّ الجراح التي أصبت بها أثناء المعارك التي خضناها. وكان الجنود المقدونيون أثناء المعارك الأولى التي واجهنا فيها الهنود يصارعون الأعداء بضراوة أخذت تتصاعد على مرّ الأيام حتى أصبحوا يعاملون المهزومين بدون شفقة وبدون رحمة.

وعندما بلغنا ضفّة نهر السند⁽⁹⁸⁾ ذلك النهر الذي كان بلوغه من بين الأهداف التي رسمتها للحملة في مرحلتها الاستكشافية أجبرت على مواجهة جيش بوروس⁽⁹⁹⁾ المنظمّ أحكم تنظيم والخوض معه معركة سمّيت بمعركة الفيلة.

ورغم الحنن التي كابدها والنوائب التي واجهتها ورغم الجراح التي أصابتنني في كل موضع من جسمي اشتبكنا مع العدوّ بقرب نهر هوداسيبس⁽¹⁰⁰⁾ أحد روافد نهر السند. وكانت معركة عظيمة تعدّ من بين أضرى المعارك وأجملها. دحرنا العدوّ دحراً في معركة فاصلة غيّرت مجرى الأحداث تغييراً كلياً لأنها ثبّطت عزائم ملوك الهند الآخرين الذين كانوا يتوهمون على غرار بوروس أنهم قادرون على صدي وإيقاف مسيرتي.

ولكن نشوة ذلك الانتصار الذي أثبت مرة أخرى أنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تصدني عن غاياتي، قد كدّرها فقد رفيق لي صاحبي في كل لحظة من حياتي وشاركني ساعات انتصاراتي وساعات محنتي. ذلك الرفيق هو حصاني بوكيفالوس.

ما كنت حريصا على كتمان لوعتي، لقد فقدت حبيبا عزيزا لم يسىء اليّ قط بل لم يأل جهدا ليوصلني دون كلل أو ملل الى هدف يتباعد دوما عني. وذلك بفضل قدرته على تحمّل المتاعب ومهارته في العدو.

تراودني ذكرى أول لقائي به. قال جماعة من أشهر مروّضي الخيل وأمهريهم لابي، ان ذلك الحصان متوحّش الى حدّ انه لا يستطيع أحد ركوبه. وكان الحصان قد بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. وعندما طلبت من المروّضين أن يقدّموه لي حتى أحاول بدوري ركوبه أطلق جميع الحاضرين ومن بينهم أساتذتي ضحكات عالية. فلم تكن ضحكاتهم عزيّمتي. فاقتربت من الحصان الذي كان بهتّز ويصهل، ومددت ذراعي كأني أريد أن ألامس عرقه بيدي مهدّئا إياه وملاطفا. وفطنت بغتة أن ذلك الحصان البديع خائف من ظلّه الممتدّ على الارض. فدفعت رأسه بحركة سريعة حتّى يواجه أشعة الشمس. فهدأ روعه. ووقفت بجانبه ونظرت اليه كما لو أصبح لي صديقا عزيزا. ونظر اليّ بدوره. وعلمت أنّه أدرك جيّدا منذ تلك اللحظة أننا سنكون متلازمين في ساعات التّصر وساعات البلوى. نعم. لقد فقدت يومها صديقا مخلصا له من الخصال الانسانية ما لم يتوفّر في أيّ صديق عاشته باستثناء هفستيون الذي كان عدلي.

فأصدرت قرارا بأن يدفن كما يدفن أي صديق من أصدقائي وافته المنية، وأن تقام بمناسبة مائمه جميع الطقوس التي يستحقها، وهو الصديق الذي برهن لي طوال سنوات عديدة عن وفائه وإخلاصه، وساعدني في صمت وسكينة، وأسهم اسهاما فعّالا في جميع انتصاراتي. وليست ثياب الحداد، وحزنت لفقده حزنا مخلصا. وبنيت مدينة حملت اسمه وهي مدينة بوكيفاليا⁽¹⁰¹⁾.

لا سبيل الى مواصلة الزحف. فاذا ما فُتحت أحنّ بكل جوارحي الى استكشاف أقاصي الارض وما وراءها فإنّ جنودي المقدونيين امتنعوا عن مواصلة المسيرة. لقد

أطلعوني بعد أن قطعوا مسافة طويلة على ضفة نهر السند أنهم أقروا العزم على أن يعودوا على أعقابهم. وأصرّوا على ذلك.

فاستنجدت بقوّاد الجيش، ظنّا مني أنهم يستطيعون اقناعهم بأن لا بدّ من اتمام احتلال الهند قبل العودة الى الوطن. فرفض الجنود الخوض في هذه المسألة. فأعلنت لهم عند ذلك عزمي على مواصلة السير لوحدي... فلم يهزّهم حديثي. كانوا يستطيعون أن يدلّوا الي بما يبرّر موقفهم تبريرا قطعيا. لقد برّح بهم الحنين الى أوطانهم، وزلّزهم شوقهم الى أقربائهم الذين حرّموا من رؤيتهم مدة طويلة، وأطاح بهم تعب شديد بلغ حدّ الانهالك.

ولكن رغم ذلك كلّه كنت أشعر بأن حماسي مازال يدفعني الى الامام وأنا أفكر في العوالم المجهولة التي لم تدسها حوافر خيلي.

كنت أريد أن أتوغّل في الجزيرة العربية وبلاد الحبشة بعد احتلال الهند لان تلك الاصقاع كانت تفتنني. وكنت أريد أيضا أن أخضع قرطاج وأتجاوزها لاصل الى قادس حيث يشاهد عمودا هراكليس ⁽¹⁰²⁾ اللذان انتهى اليهما اديسيوس ⁽¹⁰³⁾ في تجواله عبر البحار كما حدّثني بذلك العلماء الذين انضمّوا الى ركبتي. ولربما توجهت بجيشي بعد ذلك الى أصقاع مناخها أطيّب وأرحم وشمسها أقلّ قسوة أعني بذلك جنوب ايطاليا وصقلية.

ان العالم ينتهي في احدى تلك المناطق التي لم أبلغها. فاذا بلغت خطاي الى تلك النقطة بالذات كان بوسعي أن أعلن عن يقين أن الاله الجديد الذي تقمّص جسمي ظفر بملك البشرية جمعاء، ويسط سلطانة على كامل المعمورة بحدّ سيفه وبفضل ارادته الصمّاء. وحقّ لمثلي أن يكون ملك البشرية عذابه ومحنته.

ما ألّذها رؤية. وما أروع المشروع... ولكن في تلك الساعة كان لزاما علي أن أسلك مسلكا آخر لان جيشي كان مصمّما على العودة تصميميا لا رجوع فيه. كنت آنذاك أفكر وأعيد التفكير فيما جرى عندما قابلت نساك الهند. قابلتهم قبيل انتفاضة جندي عندما كان كل شيء ينبىء بأنّي على وشك تحقيق مشروعاتي. تعدّدت انتصاراتي وأخضعت معظم الاراضي الهندية لسلطاني. فكنت متيقنا أن العالم بأسره بأصقاعه المعروفة وبأصقاعه المجهولة أيضا يوشك أن يسقط في قبضتي.

لأقيت أولائك النسك في مرج غمرته الشمس بأشعتها. كانوا في شغل شاغل
عنا فلم يلتفتوا إلينا عندما اقتربت أنا وقوادي منهم. كانوا يقفزون قفزات قصيرة
على الأرض العارية وعلى إيقاع غريب. كانوا يقفزون دائما في نفس المكان كأنهم
لا يريدون أن يبرحوه كلّفهم ذلك ما كلّف.

كانت وجوههم هادئة ونظراتهم ثابتة مسددة إلى الفضاء. وراقبت حركاتهم
طويلا. ثم طلبت من رجل يعرف لغتهم أن يسألهم عن معنى تلك الطقوس التي
كانوا يقومون بها دون انقطاع على نفس الإيقاع.
فأجاب أكبر الجماعة سنا وهو لا ينفك عن دق الأرض بقدميه في الساحة
الضيقة التي اقتطعها لنفسه قائلا :

– أيها الملك العظيم. انتهيت إلى أقصى الأرض وامتلكت الشعوب والأقاليم
ولكنك لم تقدر على إدراك حقيقة هي أبسط الحقائق وأهمها في هذا العالم الفاني.
– وما هي أيها الشيخ ؟

– في هذه الحياة القصيرة التي لا تدع لنا فسحة لمعرفة غيرنا ولا لمعرفة أنفسنا
لا يملك كل إنسان من هذه الأرض سوى هذه القطعة الضيقة التي ندوسها الآن
بأقدامنا كما ترى. ولا سبيل إلى كسب مساحة أكبر. وأنت أنت الملك العظيم
المنصور قد سارعت باحتلال الأرض كلها. فغادرت وطنك وشققت عددا كبيرا
من الاقطار وعبرت الصحاري وكبدت نفسك وصحبك الكثير من الحن. ولا
أدري لاية غاية قمت بكل هذه الأعمال. يا جلالة الملك ستموت مثل كل واحد
منّا. ولا تحتاج يومها إلا إلى جزء ضئيل من الامبراطورية التي تتباهى بالسيطرة
عليها. وهذا الجزء من الأرض هو بالضبط مكان قبرك. تلك هي الحقيقة التي نعيدها
إلى أذهاننا جاهدين حتى لا ننساها. فندق بأقدامنا كل يوم ومدة ساعات طويلة
ذلك الشريط الضيق من الأرض الذي يحتاج إليه كل واحد منّا يوم مماته. هي
حقيقة بسيطة جدا ولكنها ذات وزن كبير لأنها تجنب كثيرا من الزلاّت. وأثقل
الزلاّت جميعها هي تلك التي يقع فيها الإنسان عندما يطغى عليه طمعه وطموحه
فينسى أن «الحياة الدنيا متاع الغرور».

هكذا تحدث الناسك الشيخ ثم أعرض عنا وعاد إلى تعايطي قفزاته القصيرة،
تمنيت لو أتاح لي الحديث معه فأصغي إليه وهو يجيبني بصوته الهادئ عن الاسئلة

الخطيرة التي كانت تختلج في نفسي. وانما بدا لي أنه لم يعد يهتم بحضوري بين يديه. وأدركت أن الشيخ مصيب في قوله. والصواب عنده هو الاعراض عن سلوك الطرق الواسعة المؤدية الى جليل الاعمال ومقت المرور تحت أقواس النصر لاحساسه العميق بأنّ كل شيء في الحياة الدنيا ضئيل وتافه. كما شعرت بأنّي أنا أيضا على صواب. والصواب عندي هو الميل الى سلوك الطرق الواسعة وحبّ المرور تحت أقواس النصر تدفعني اليهما حيرة دائمة ويهزني شوق عارم شبيه بالذي يدفع العقاب الى بذل الجهد للسموّ حتى يبلغ أعلى القمم وأقربها الى الشمس ولو جرّ توقه الى الاعالي كسر جناحه وهبطه على الارض.

هل أحسّ جنودي احساسا قويّا ملك منهم النفس بتفاهة ما كنت أرنو اليه ؟ هل كان هذا شعورهم كلّما طالبوني بأن آذن بالعودة ؟ لا شكّ في أنّ هذا الشعور طغى على أنفسهم حتّى أصبحوا يصغون الى أيّ حديث يرمي الى اقناعهم بمواصلة السير. لقد أحسّوا بعد خوضهم تلك المغامرة الطويلة بالحاجة الملحة الى العودة الى بيوتهم وبالحنين الى حياة يومية هادئة لا ازعاج فيها « امتلك جميعهم الشوق الى رؤية أقربائهم... كانوا يحنّون جميعا الى زوجاتهم وأبنائهم. كانوا يحنّون جميعا الى أوطانهم... »⁽¹⁾.

سيكتب كتبة الديوان في « اليوميات الملكية » على هذا المنوال عندما يحاولون تبرير قراري المفاجيء بالعودة وذلك بأسلوب رقيق ملمّحين الى الاعتبارات الانسانية التي دعنتني الى اصدار هذا القرار. وهذا الاسلوب في تسجيل الاحداث ضروريّ أحيانا عندما يبحث المرء عن المبررات التي تتيح له اقتراح تفسير مقنع لسلوك غابت دوافعه.

وهكذا عدنا أدراجنا. وكان الجنود يعتقدون أن الحملة بلغت منتهاها. وكان يشعر جميعهم بالفرج بعد الشدّة وهم في طريق العودة الى أوطانهم وأهليهم. ووصلنا الى نيكيا⁽¹⁰⁴⁾ بعد أن قطعنا أقاليم كان سكّانها مناوئين لنا ومناهضين وأقاليم أخرى كان سكّانها موالين لنا ومحبين.

(1) أريان · حملة الإسكندر الجزء الرابع 7 - 1 ، 13 .

لقد أمرت بأن تشيّد مدينة نيكيا تلك على ضفّة نهر هيدسبوس لتخليد ذكرى معركة الفيلة.

وعندما غادرنا تلك المدينة قرّرت أن تجري عودة جنودي لا حسب ما كانوا يتوقّعون ولكن حسب خطة رسمتها تقضي بأن يسلكوا طريقا غير التي سلكوها عندما قدموا الى الهند.

أردت بهذه الطريقة أن أترك الجنودي المقدونيين القدامى فرصة حتى يفكّروا في الامر فيقتنعوا بأن المشروع الذي طمحننا الى تحقيقه لم يكتمل بعد. واذا لم يقتنعوا بذلك فلا ضير لأنّ الخطة التي رسمتها ستفتح لهم أو بالاحرى ستفتح لي أقطارا جديدة أولاها ذلك الساحل الهندي الذي يحده محيط تصل مياهه الى العالم الآخر الذي كم كنت أودّ أن أبلغه.

استطراد قصير لمالك المخطوط

مخطوط بابل مهراً في هذا المكان بالذات. وحاولت جاهدا قراءة الكلمات المتهرئة في البردي وترميم الفقرات التي أصابها التلف فلم أفلح. وسلّمت المخطوط الى اخصائيين وطلبت منهم أن يفكّوا على أقلّ تقدير رموز بعض الاسطر الغامضة حتى أعر على الرابط بين آخر الفقرة التي قرأتوها والتي يتحدث فيها الاسكندر عن شوقه الى المحيط وبداية الفقرة الموالية المتعلقة بقطع صحراء قدروسيا (105). فلم يفلح الاخصائيون أيضا في محاولاتهم لفهم النص. وحيث أنني أرفض رفضا باتا أن أملأ فراغات النص بما يمليه علي خيالي وتخميناتي فأنني سأعتمد على ما قصه علينا أرباب ذلك المؤرخ الذي أحب الاسكندر وأدرك مقاصده أكثر من غيره ممّن اعتنوا بتاريخ حياته.

لقد سبق أن تحدّثت عن أريان في مقدمة الكتاب. واني أريد أن أقول هنا مجدّدا أن ذلك الرجل الشهم الذي نشأ في نيكوميديا من اقليم بيثونيا (106) كان له احساس مرهف يتر له فهم شخصية الاسكندر. وكانت له المؤهلات الكافية لترجمة حياته وذكر بطولاته. كان يقتدي في كتابة التاريخ بكسينوفون المؤرخ العظيم. وكان بفضل احرازه على درجة عالية من الثقافة قادرا على النفاذ الى لبّ الأمور من وراء الاحداث التي تغطّيها مثلما يغطّي اللحاء الشجرة.

اذن أرى من الضروري اللجوء الى أريان لاعادة الاستمرارية لسرد الاحداث. في هذا المخطوط أيضا نواقص لها علاقة بالعمليات العسكرية التي قادها الاسكندر العظيم. ولكن من المتوقع أن يكون هذا الاسكندر نفسه قد كتبه وهو يشكو حالة من الحيرة القصوى جعلته لا يقف الا عند ذكر الاحداث التي تركت أثرا عميقا في نفسه أو حرّكت شعوره. ولذلك لم أر من المفيد سدّ تلك الثغرات

التي لها صلة بالاعمال العسكرية الصرف. وذلك بالرجوع الى مؤلفات بلوتارخوس وأريان نفسه لأن الاسكندر قد رسم لنفسه في مذكراته غاية معاكسة تماما للغايات التي نزع اليها المؤرخون الذين تناولوا حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والذين وصفوا لنا بدقة معاركه والاحداث التي رسمت مراحل حياته.

وحيث أن الحديث أدى بنا الى الظروف التي أحاطت بقطع صحراء قدروسيا رأيت أنه من الضروري أن أورد هنا فقرات مقتطفة من كتاب « غزاة الاسكندر » لآريان :

« كان نيارخوس قائد القوّات البحرية ينتظر الاذن بالاقلاع. وغادر الاسكندر بتاله ⁽¹⁰⁷⁾ حيث حطّ الجيش رحاله وتقدّم صفوف جنوده قاصدا نهر أرابيس. ولما بلغ النهر انتخب لمصاحبته من بين فيلق الرماة نصفهم ومن بين الضباط المنقطعين لخدمته نصفهم أيضا واصطحب جميع سرايا الخيل وفي ضمنها سرايا الخيل التي كان يقودها الخلان يصحبها فيلق الرماة الراجلين التابع لها. وسار في اتجاه يتيح له أن يجعل البحر دائما عن يساره. وأمر أثناء المسيرة بحفر صهاريج حتى يضع على ذمة الجنود المشاركين في العمليات كميات كبيرة من الماء. وفي نفس الوقت شنّ هجوما مفاجئا على قبيلة الاوريت الهندية التي صدحت منذ زمان بعزمها على البقاء حرّة ولم تكن تضمّر للاسكندر ولجنده الا الشرّ. وعيّن هفستيون واليا على الاقليم وعلى من تبقى من الاوريتيين بعد الزحف.

ثم أرغم على مقاومة قبيلة الارابيين وهم قوم رحّل مضاربهم على ضفة نهر أرابيس. وكانوا هم أيضا حريصين على البقاء أحرارا. وما ان علموا باقتراب الاسكندر حتى قرّروا ملتجئين الى الصحراء لاثّهم أبوا أن يخضعوا له وأحسوا في نفس الوقت بأنّهم عاجزون على مقاومته بصورة ناجعة.

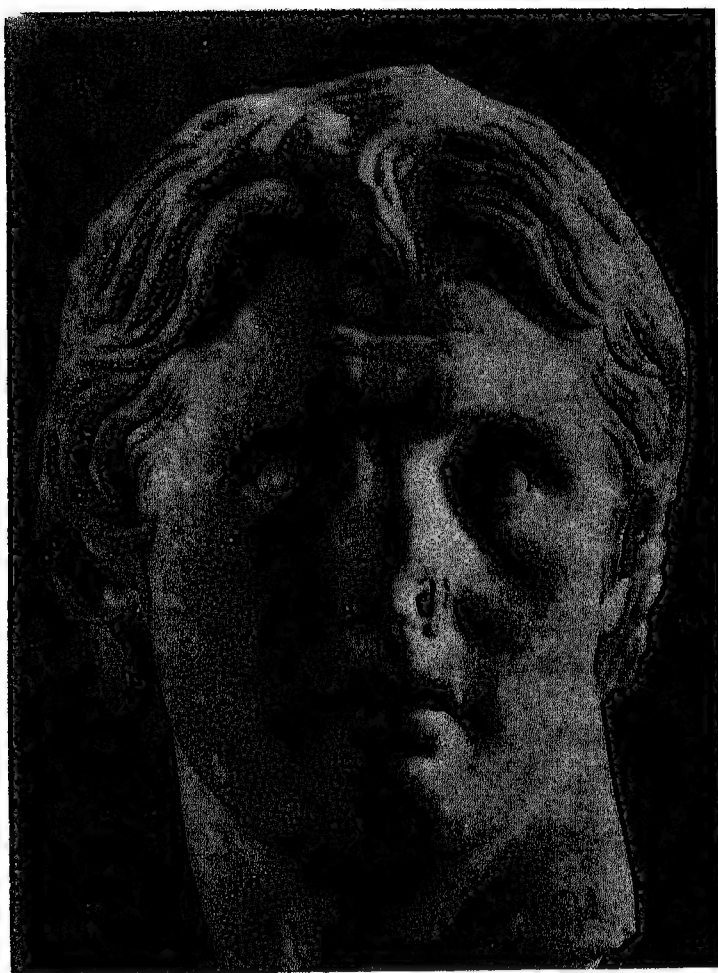
وعبر الاسكندر نهر أرابيس. وكان مجرى النهر ضيقا ومياهه ناضبة ثم واصل سيره ليلا عبر الصحراء فقطع معظم المسافة المرسومة. وعندما طلع الفجر وجد نفسه في أراض عامرة بالسكان. فأمر المشاة بأن يسيروا وراءه صفوفًا مترابطة. وتقدم لقيادة الخيل فوزعها كواكب حتى تنتشر في السهل الى أقصى ما يمكن الانتشار. واحتلّ الاسكندر كامل اقليم الاوريتيين بهذه الطريقة. فمن حاول منهم المقاومة تعاورته سيوف الفرسان أو سقط أسيرا.

ثم ضرب خيامه في منطقة لا ماء فيها. ولما التحق به هفستيون مع بقيّة الجيش واصل السير من جديد.

وبلغ الجيش بعد مرحلة فقط قرية رموكبة وهي أهمّ قرية في إقليم أوريت. كانت المنطقة تروق للاسكندر وكان معجبا بموقعها الجغرافي فكان يشيد بها دائما ويعتقد أن ذلك الموقع صالح لبناء مدينة وان تلك المدينة اذا أنشئت تكون آهلة بالسكان ومزدهرة.

فترك هفستيون هنالك وأمره باتخاذ الاجراءات الكفيلة بتحقيق ذلك العزم. كان الاسكندر يرغب في مواصلة رحلته الاستطلاعية. فاحتفظ معه بنصف عدد الضباط المنقطعين لخدمته ويسمّون أقريانيس وبنصف فيلق الخيالة وبنصف فيلق الرماة الراكبين على الخيل وبلغ أقصى حدود الاوريت وقدروسيا»⁽¹⁾.

(1) أزيان حملة الإسكندر الجزء السادس 24، 3



تمثال الاسكندر - متحف اسطنبول

صبيحات

هنا نعود الى مناجاة الاسكندر. نشعر أنّها أمست من الآن فصاعدا مناجاة
 لاهثة مرتبكة يطغى عليها الجزع أكثر من ذي قبل.
 أقر الاسكندر العزم على أن لا يقف في طريقه مادام جنوده قادرين على تحمّل
 المشقة وحتى لو لم يكونوا قادرين. وانما كان يشعر في نفس الوقت بحزن عميق
 ومرّ كأنه كان يتوقع قرب وقوع أحداث مهولة ويوقن بأن العزلة هي نصيب
 الناس جميعا في نهاية المطاف ونصيب الآلهة أيضا. ولا يقدر أحد مهما كانت
 سطوته أن يسلم من تلك العزلة القاسية التي لا ترحم.
 نستطيع قراءة بعض الكلمات في هذه الفقرة التي امتحت حروفها بعامل الزمن.
 أنقلها هنا علّها تثير اهتمام من سيقومون بدراسة المخطوط والتعليق عليه.
 غابوا جميعا... جميعهم سيغيبون.
 كان أمّون وحيدا في معبد الصحراء.
 قريبا سيأتي دور هفستيون فيغيب.
 بابل بعيدة بعيدة والعالم أيضا بعيد بعيد.
 أرى ثغرات عديدة في صفوف الخلاّان.
 قتلوهم. فارقونا ويفارقونا.
 الموت لا يصيب الالهة.
 الالهة لا يخشون الموت. انما يزعجهم الفراغ.
 هذه الجمل المقطوعة تفزعني. كنت أودّ أن لا أدمجها في هذه السيرة. ولكنّها
 ليست ملكي. هو كاتبها ولذا نقلتها بكل أمانة.

عودة الى المخطوط الصحراء حولنا وفي أنفسنا

الصحراء !

كم من مرة طلعت علي في بهجتها وجمالها الرتيب أثناء مسيرتي عبر الاصقاع
النائية.

قطعت صحاري شاسعة في مصر وسوريا وسيناء وفارس وأنا أعدو على صهوة
حصاني حصاني العزيز بوكيفالوس.

ما كنت أخشى الصحاري ولكن كنت أشعر عندما أقطعها مع جيشي بتأثر
عميق ومرح غريب ناتج من توقي الى استكشاف المجهول. وكثيرا ما كنّا ننهي
فجأة الى واحة فندخلها منتشين لنتروي بماءها ونرتاح في ظل نخيلها.

ولكن المحنة التي كنّا نعانيها في هذه المرة كانت من نوع آخر. ان صحراء
قدروسيا هي أقصى الصحاري وأجدها وأعطشها. كانت تبعث في النفس وحشة
تتحول أحيانا الى هوس.

أعترف دون تردد أن إصراري على قطعها خطأ بعينه وأخطر خطأ ارتبكته
في حملتي.

ما هو الداعي الى ارتكابه ؟ ربّما لم أوفق في تقويم حجم الصعوبات المتوقعة
أو لربّما كنت أبحث عن صدمة عنيفة تنسيني جميع المحن التي أصابتنا فأقدمت
على هذه المغامرة الجديدة ظنًا مني أنها ستكون لي متنفسًا.

ومهما يكن من أمر فبعد أن قمنا بمسيرة متواصلة دامت أياما توغلنا في صحراء
كانت تضاعف مخاوفنا كلما تقدّمت بنا المسيرة. ففطنت أنني وقعت في المخطوطة
لأنني اخترت أشقّ طريق لعودتنا.

فكنت أحاول تسليية نفسي فأذكر لها خبر سميراميس التي غامرت فقطعت بجيشها تلك الصحراء قبلي. ولكن سميراميس كانت امرأة قادرة على تحمّل أقسى المحن والتغلب على العطش والحرّ الجهنّمي. وقد قطعها أيضا كورس بن قمبيز لما رام احتلال الهند ولم يقوم قدرات القوات التي جنّدها تقويما صائبا فخاب في مسعاه.

وعندما كنت أعيد في ذاكرتي مغامرتي سميراميس وكورس كنت أحاول أن أجد عزاء لنفسي بالنظر الى محنة من سبقاني علي هذا الدرب. وأنا وجندي في أشدّ الحاجة الى هذا العزاء.

ولكن استولت عليّ الوحشة من جديد عندما تذكرت أنه لم ينج من جيش سميراميس الوافر العدد والعدّة الا عشرون رجلا قذفت بهم الصحراء في حالة رثّة. أما جيش كورس المغامر فكان فشله أفظع حيث لم ينج منه الا عدد ضئيل. كانوا سبعة وسبعة فقط.

من سينجو ممّا فيخرج من هذا المكان الجهنّمي ؟ وما هو الثمن الذي ينبغي أن ندفعه للظفر بالنّجاة ؟

مازلت أشعر الى اليوم بالاحباط كلما ذكرت تلك المحنة.

كان العطش عدونا اللدود. وكان يقسو علينا أكثر ممّا قست علينا حشود داريوس. وكنا نسير دون هواده ليلا ونهارا في برّية شاسعة قاحلة لا نبت فيها ولا عيون ماء. وكانت المحطّات التي اخترتّا فيها المؤونة متباعدة لا تفي بحاجاتنا الا بقدر ضئيل.

وتجرّعنا الأمرين من الرمال. كانت في بعض البقاع تسيخ تحت أقدامنا. وكم من جنود انخسفت بهم الرمال فابتلعتهن ومطايهاهم دون أن يستطيع اسعافهم أحد لسرعة اختفائهم تحت سطح الأرض.

كلما توغلنا في الصحراء اشتدّت الحرارة وأصابنا عطش لا يطاق وتناقص زادنا. فانضاف عذاب الجوع الى عذاب العطش. فأرغمنا على التضحية بخيلنا وبغالنا. فذبحنا منها لنقتات بلحومها فنبعد عنا ولو لحين شبح هذه المحنة الجديدة. لقد حاول ضباط حاشيتي أول الامر منع الجنود عن ذبحها لاقنين انتابهم الى أننا سوف لا نقدر على مواصلة السير اذا فقدنا دوابنا. ونحن لا نعلم عدد

الايام والليالي الباقية لقطع تلك المفازة. ولكن سرعان ما فطن الضباط بأن مساعيهم ذهبت سدى. فبلغ بهم الضنك الى أن أصبحوا يأكلون من لحوم الدواب التي يذبحها جنودهم.

وكنّا نقول لانفسنا : اذا استطعنا أن نتغلب على الجوع فلا بد أن نعثر قريبا على احدى العيون التي تنبع في الصحراء فتؤمّمها القوافل لاطفاء عطش المسافرين وعطش ابلهم. فكان ذلك الامل يشدنا الى الحياة.

من بين التدابير التي اتخذناها لتيسير قطع صحراء قدروسيا فكّ الافراس والبغال عن العربات المحمّلة بالعتاد وكسر العربات وترك حمولتها مهملة. في قلب الصحراء. غابتنا الوحيدة النّجاة من ذلك الفضاء المحترق الذي ما كنّا نرى له نهاية.

وبلغ ببعض الجنود الاجهاد والعطش حدّا جعلهم يخرّون على الارض وينامون نوما عميقا حيث سقطوا. فلم يستطع رفاقهم ايقاظهم فيرغمون على تركهم وهم يعلمون أن لا أمل في أن يعثروا عليهم أحياء في يوم من الايام.

كنت أجهّد نفسي حتى أبقى دائما في طليعة الجيش راكبا جوادي رافعا رأسي وثابتا على السرج.

لم يفتن أحد ولو كان من أقرب الناس اليّ بأن حلقي مسدود من شدّة الظمأ وجفنتي ثقيلتان من أثر الارق وبأني كنت أهب راضيا بنصف ملكي مقابل نومة هادئة وجرعات من الماء.

وكان الجنود يشعرون بقليل من العزاء وبضرب من الاطمئنان عندما يشاهدون أنني أعاني من نفس المحن وأشاركهم عذاب العطش وأقتسم معهم بنفس القدر ساعات الألم.

وشاهدت يوما جماعة من الجنود المقدونيين القدامى الذين صحبوني منذ يوم انطلاقي من مدينة بيلّا وبقوالي أوفياء دون سامة أو ملل مثل حصاني بوكيفالوس الذي أخلص لي الى يوم مماته. شاهدتهم يقتربون منّي وفي يد أكبرهم سنّا خوذة فيها قليل من الماء. لقد طافوا طويلا في الأماكن المجاورة بحثا عن الماء وعثروا على عين ماؤها على وشك النضوب فما كان ينبع منها الا بعض القطرات فامتاحوا ما قدروا عليه وصبّوه في قعر خوذة وأتوني ليقدموا ما أحرزوا عليه. ومدّ إليّ الشيخ الخوذة قائلا :

— هذا ما قدرنا عليه بعد طول الطواف. هو ماء قليل ولكنه كاف لاطفاء عطشك.

أمسكت الخوذة بيدي وأحسست بارتعاشهما لشدة رغبتني في بلّ شفتي. فكأنّ تلك الخوذة التي كنت ماسكها أئمن ما كسبت في الدنيا. كانت في نظري أئمن من تاج داريوس الفاخر ومن صولجان الملوك العظام. فشكرت للمقدونيين لفتتهم الشخصية وأكبرت اهداءهم لي ماء امتاحوه بعد كبير عناء ولكن لم أقرب الخوذة من فمي بل رفعتها بيدي فوق رأسي حتى يشاهدها الجميع ثم أرقتها في حركة سريعة الى آخر قطرة من ماءها. لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وفي اللحظة التي قمت فيها بهذه الحركة شعرت بأنّ جميع جنودي كانوا يحسّون بما يشبه الارتواء وهم ينظرون الى ذلك الماء الذي أريق الى آخر قطرة في الرمل الملتهب.

وتابعنا السير والجنود عاقدون العزم أكثر من ذي قبل على مغالبة المحنة بقلب واحد. كانوا يتقدّمون بخطى أكثر سرعة وثباتا. وهم ينظرون أمامهم بنظرات واثقة. نعم. لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وكانت الصحراء لا تزال تطبق علينا دون رحمة. وأعلمنا الرواد أن الآثار التي تركتها القوافل في الرمل قد عفتها الرياح. وأنهم أصبحوا عاجزين عن التعرّف على الطريق التي ينبغي أن نسلكها.

لم يبق لي الا حلّ واحد. سأواصل السير وحدي مصحوبا فقط بكوكبة من الفرسان بحثا عن طريق نسلكها. فاذا وجدناها أعلمنا سائر الجيش حتى يلتحق بنا. وهكذا انتهيت الى ساحل البحر مع خمسة فرسان. وعثرت قريبا من الشاطئ — يا للعجوبة — على عين من الماء الزلال.

نجونا. وكانت خساراتنا أقل بكثير من خسارات سميراميس وكورس. وأيقنت مرّة أخرى أنّي الأقوى.

لغة مشتركة وعالم موحد

كم من مرّة أحسست أثناء مسيرتي في الصحراء أن جميعهم تخلّوا عني عندما نزلت بي المحنة حتى الاله الذي بعثني الى الوجود !
والآن وقد عثرت من جديد على الطريق التي رسمتها لي (أقصد بالطريق لا تلك التي تشق الارض فحسب بل أيضا تلك التي أسير على هديها في أعماق نفسي) فاني أدرك أن لا بدّ لي أن أبادر بايجاد حلول سريعة للمسائل البسيطة حتى أعتكف على اعادة صلتى بالمشروعات العظيمة التي لا بداية لها ولا نهاية. فأنّها هي الوحيدة التي تستحقّ أن أفرّغ لها.

كنت كثيرا ما أحادث أستاذي ارسطوطاليس في مدينة نمفايوس عن ذلك النداء الذي لا يفتأ يدعونا الى صالح الأعمال ولو كنّا متيقّنين أننا قمنا بواجبنا.
هذا النداء له صيغة الأمر الذي لا يردّ ولا يدفع وكلما لبيناه علا نداء آخر ثم آخر وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له.

كنت كثيرا ما أتحدّث مع أرسطوطاليس عن مختلف الاجناس البشرية التي تعمّر الارض من أقصاها الى أقصاها فتلتئم في ممالك دول متفاوتة في الحجم والقوّة. فمنها الدول العظيمة ومنها الضعيفة ومنها التي تميل الى العدوان ومنها التي تميل الى الدعة والدفاع عن الحمى عند الاقتضاء. جميعها محتجزة ومتربّصة تنتظر كل واحدة منها اللحظة السانحة التي تنقضّ فيها على عدوّتها. مثلها مثل البزاة التي يستعين بها سكّان آسيا في صيدهم. اما تنشر أجنحتها الكبيرة وتنقضّ على الفريسة ولا تترك لها مجالا للافلات من مخالبتها.

كنّا أمام احدى خيارين:- اما الزحف على غيرنا أو الركون الى الدفاع عن أنفسنا.

أرى اليوم أن هناك خيارا ثالثا وهو وضع جسر يصل بين ضفتين ويسر للناس التلاقي.

يرى أرسطوطاليس أن أسمى رسالة ينبغي للغازي أن يتحلّى بها هي سعيه لعقد جسر يصل الشعوب بعضها ببعض مهما كانت السبل التي يسلكها للولوج هذه الغاية وبقطع النظر عن أساليب العنف والقسوة التي يعامل بها أعداءه. والمعاملة بالعدل والحسنى والاستقامة في السلوك التي يقابل بها حلفاءه.

كلما تقدم بي الزمن ألح عليّ هذا اللون من التفكير وطفى على نفسي فأقول : أرى اليونانيين قد انتحوا ناحية، وأرى الاعاجم قد انتحوا ناحية ثانية. ولكن ما الفرق بيننا — معشر اليونانيين وبينهم ؟ تقاليدنا أي المظاهر الخارجية لطرق عيشنا مختلفة ولعنّا تختلف عن لغاتهم ولون بشرتنا مخالفة للون بشرة بعض طوائفهم. وفي ما عدا ذلك ليس بيننا وبينهم اختلاف. فقد وهبنا نفس الخصال وأصبنا بنفس النقائص. نواجه بنفس القدر الحبّ والخوف والموت والجوع. جميعنا يضاجعون زوجاتهم في الفراش وجميعنا يحلمون وجميعنا يموتون. ان الجهول الذي يحيط بنا من كلّ جانب ويحاصرنا بيتّ الروح في نفوسنا بنفس القدر فنحاول أن نتغلّب على روحنا بالآيمان مهما كان الدّين الذي نعتنقه.

اذن لماذا نبقي على ضفتي النّهر المشترك بيننا، كلّ منّا ينظر الى الآخر ويضمّر له العداء ؟

لماذا لا يكون هذا العالم الرحب دولة واحدة وهو الآن منقسم الى ممالك ودول تتنازعها الطموحات المتصارعة ؟

لماذا لا توجد لغة واحدة تفهمها جميع شعوب الارض وتتكلّم بها ؟

اذا استطعنا تذليل عقبة اللغة — والامر هين في نظري — تيسّرت لنا اقامة جسر يصل جميع شعوب الأرض واستطاع الناس أن يتخاطبوا ويتفاهموا بلغة واحدة وتقترب كلّ ضفّة من الضفّة المقابلة.

واذا لم نفلح في سعينا قضت على البشرية الطموحات وعسر اتصال الناس بعضهم ببعض، وان الخيبة في هذا المجال أشدّ نكالا على البشر من الاوبئة والحمّيات.

فأدّنتني هذه التأمّلات الى القيام بمبادرة طالما كانت محلّ تعليقات الناس. ولا شك أن المؤرّخين في المستقبل سيقولون كلمتهم بشأنها وسيحكمون لها أو عليها كل حسب نوعيّة تحليله للاوضاع المتأثّر بالحالة النفسية التي يعيشها في الساعة التي يتناول فيها القضية بالنظر.

عندما حططنا الرحال بمدينة السوس زوجت ضباطي ومساعدتي الاقربين بنات أساورة فارس وأقمت لهم حفلة زفاف جماعية. وتزوجت أنا أيضا بستاتورا بست دارايوس الكبرى حتى يقتدي بي الناس فيدركوا أن تلك العلاقات الزوجية التي حثت على ايجادها هي الأسّ الأول للتصالح مع شعوب حاربنا طوال قرون. اقترن ثمانون من قوّاد جيشي ومن خلاّني الأعزّاء بأنبِل فتيات الطبقة الارسطوقراطية الميديّة والفارسية. فكانت تلك الحفلات البهيجة التي انتظمت بعد المحن المتوالية التي أصابتنا وبعد المعارك الطاحنة التي خضناها وخاصّة بعد قطعنا لصحراء قدروسيا مناسبة طيّبة شعر فيها جنودي بالغبطة والراحة والطمأنينة. وأنهم لاهل لذلك.

أظنّ أن جميع الجنود باركوا تلك المبادرة إمّا لأنهم رحّبوا بحفلات ساد فيها اللهو والمرح أو لأنّهم شاركوني شعوري وأيدوا الهدف البعيد السامي الذي أصبو اليه من وراء تلك الحفلات ⁽¹⁾ وكنت أعتقد — وقد سبق أن قلت ذلك — أن ما بادرت به هو المرحلة الاولى في طريق ما أتوق اليه وهو امتزاج عالمين.

ان أبي أيضا — رغم نقائصه وطبعه الحادّ — كانت تحدوه رغبة ملحة في توحيد اليونانيين الذين مرّقتهم — طوال سنوات عديدة — الفتن التي غدّتها حقارة قادتهم وخبث خطبائهم الذين كانوا يدعون دائما الى التمرد في الساحات العامة للمدن. لم يكن فيليبوس راضيا بذلك الوضع. كانت نظراته الى الأمور أبعد من نظرة أولئك الساسة التافهين قصيري النظر. فأدرك أن الحضارة اليونانية مهدّدة بالزوال اذا لم يقدر أصحابها على تحقيق الوحدة بينهم.

(1) ملاحظة مالك المخطوط

أما أنا فان الهدف الذي أصبو اليه أوسع وأرحب : أريد أن أجمع شمل أبناء يونان في كنف عالم موحد قادر على احتضان خصوصياته وتجاوزها في آن واحد.

حيث أن الاسكندر يركّز في حديثه على أعماله وعلى الظروف التي أثّرت في سير حياته فأنّه يهمل ذكر جزئية ذات أبعاد أقتطفها من جديد من تأليف أريان : « جرت حفلات الزفاف الجماعية حسب الطقوس والتقاليد الفارسية. نصبوا الارائك — لكل عريس أريكته. وعندما تمّت وليمة العرس واتّباعا للتقاليد الفارسية دخلت العرائس في القاعة واتجهت كل واحدة الى عريسها وجلست بجانبه فاستقبل كل عريس عروسته مقبّلا اياها. وكان الاسكندر أول من استقبل عروسته. جميع حفلات الزفاف جرت بنفس الطقوس. وهذا دليل على ما كان يمنحه الاسكندر من الخطوة لصحبه. وكانت لهذه المعاملة أثرها الطيب في النفوس. ثم ذهب كل عريس الى بيته بعد أن استلمت كل عروسة مهرها من الاسكندر. وبصورة مجملة سلّم الاسكندر لجميع المقدونيين الذين تزوّجوا بنساء من آسيا هدايا ثمينة. ويقدر عدد الزواجات من هذا النوع بما يفوق العشرة آلاف زواج ».

وئام وتداول السلطة بين المقدونيين والفرس

عندما أعود بذاكرتي الى تلك الساعات أقتنع بأنه لو خوّل لي أن أعيد حياتي من أولها لسلكت نفس السبيل ولا تركبت نفس الاخطاء. ولكني أكثر اقتناعاً بأن أصدقائي ومساعدتي وحلفائي وخلائي لو أعيدت الكرة لن يؤيدوني عن طيب خاطر ولن يغفروا لي أخطائي.

أذكر حفلة الزفاف الجماعية فتجول بخاطري ذكرى مريّة. اندلعت الاحداث التي سأذكرها بُعيد ذلك الحفل العظيم عندما أطفئت المشاعل وخمد صخب المحتفلين.

— كنت أسند الالقاب الى مساعدتي وأوزع عليهم تيجانا من ذهب. وكان أول من حظي بنعمتي — وهو أهل لذاك — نيارخوس الكريتي قائد قوّاتي البحرية الذي عاد منذ مدّة قصيرة من جولاته البحرية في عرض سواحل الهند وفي المحيط الهندي. وقد قدم الى السوس أيضا لحضور الاحتفالات الولاية الميديون والفرس الذين عيّنتهم لادارة شؤون المدن الجديدة التي شيّدها. واصطحبوا ثلاثين ألف شاب جنّدهم وجّهّزهم بالسلاح المقدوني ودربوهم على أساليبنا في القتال.

وقابلت هذا المدد العسكري الذي أتوا به بالغبطة والابتهاج إيمانا منّي بأنهم سيساعدونني مساعدة هامة على تنفيذ مخطّطاتي الجديدة.

كان أولئك الشبان المراهقون يتقدون حماسا — شأن من كان في سنّهم — كانت ملاحظتهم تدلّ على أن لهم ثقة راسخة في أنّهم سيكونون في مستوى الرسالة التي حملوها. وكنت أنا أيضا في حاجة الى اسهامهم في المغامرة لأنني كنت أعتقد اعتقادا راسخا أن استكشاف آسيا ليس موكولا اليّ والى من صحتني من جنود مقدونيا القدامى فحسب بل موكولا أيضا الى العالم بأسره. فلا بدّ اذن أن يفوّض

الامر في المستقبل الى رجال جدد سواء أكانوا يونانيين أم فرسا حتى يواصلوا المسيرة التي بدأها.

هذا ما كنت أحاول أن أفسره للمقدونيين مع الإشارة الى أنني لا أمانع من يريد العودة الى أهله لاني أعلم أنه يوجد من بينهم من يحسّ بثقل عبء السنين فيحنّ الى قضاء الايام الاخيرة من حياته في دعة وبعيدا عن المخاطر والمحن. فأنا أسمح لهؤلاء أن يتركوا الجيش وسأعطيهم من الذهب والهدايا الثمينة ما يضمن لهم رفاهة العيش والأمن من غوائل الدهر.

كنت أخاطبهم مخلصا لاني كنت أحب جنودي المقدونيين حبّا جمّا لشجاعتهم التادرة وجلدهم الذي لا يزلزل.

ولكن لم يصدّقوني بل ظنّوا أنني كنت أخدعهم لانتخلص منهم اذ أنني أصبحت قادرا على القيام بالغزوات التي كنت أهيئها بفضل ما أعددت من جنود جدد.

وأحسست بسورة من الغضب تهزّي خاصة أنني علمت أن بعض المقدونيين كانوا يقولون علانية اني بصدد تكوين جيش جديد من المرتزقة الميديين برعاية أبي أمّون.

اذن آن الاوان لتوضيح الموقف بصورة نهائية وتصفية الحساب بمواجهة صريحة مع أبناء وطني المقدونيين.

فلذهبت اليهم واخترقت صفوفهم بدون كلفة كما فعلت معهم أثناء احتفال الزفاف الجماعي. وحرصت بادىء ذي بدء على أن أوكد لهم أنّهم مديون لفيليبوس بدين عظيم فقلت :

— لما ضمّكم الى جيشه كنتم قوما من البدو الرحّل وكنتم أناسا معدمين تسترون عوراتكم بجلود الخرفان. كنتم تقضون حياتكم في خوف دائم من غارات الطراقيين والالبيين. فاجتهد أبي لتغيير عيشكم بيت الثقة في أنفسكم حتى تقاوموا أعداءكم ندّا لننّ. وخلصكم من حياة الترحال. وأنزلكم السهول الخصبة فتمتّع فيها بحياة أرحم.

كانوا منصتين اليّ مؤيدين لما كنت أقوله عن فضل أبي عليهم. ولكن غضبهم كان موجها إليّ ولآتي وحدي. وأحسست في تلك اللحظة برغبة تدفعني بقوة إلى أن أذكرهم أيضا بالذين الذي أخذوه منّي فبقي في رقابهم.

– نعم. وجدت خزائن الدولة فارغة بعد موت أبي وشرعت في ش غزاتي هذه بامكانيات تافهة. فما هي النتيجة التي أحرزنا عليها؟ إنها جلية بادية للعيان. لقد أعدت لكم كرامتكم التي داسها الفرس كما أعدتها لليونانيين جميعا. ألم يذلكم الفرس مرّات عديدة؟ ألم يبيدوكم كما أبادوا أيضا اليونانيين جميعا؟

فتحت لكم طريق آسيا عبر بحر الهلسبون وضممت إلى قطرنا أقطارا لا تحصى بقوة السلاح وذلك من آسيا الصغرى إلى الهند. ملكتكم مصر وما بين الرافدين وقورينا⁽¹⁰⁸⁾ وسوريا وفلسطين. ووهبتكم بلخ والسوس. ووزّعت عليكم كنوز فارس والهند. كلّ خيراتهم أصبحت ملكا لكم. ووهبت لكم أيضا المحيط ذلك المحيط الذي لا تحدّه حدود.

وماذا أبقيت لنفسك من كل هذا وأنا ملككم وقائدكم؟ هذا المعطف الاحمر القاني وهذا التاج.

واذا لم تقدّروا كل ما ذكرت حق قدره فاذكروا لي وضعنا حرجا لم أعشه معكم أو محنة واحدة لم أقاسمكم أهوالها. هل من بينكم أحد يدعي أن جراحه أكثر من جراحي. لم يصبني العدو ولو مرّة واحدة في الظهر. قابلت العدو في كل مكان وجها لوجه. لم أؤلّ قط الدبر. ولم أتخلف قط عن أداء مراسم التكريم للجنود الابطال الذين سقطوا في ميدان الشرف. أقمت المشاهد على أضرحتهم وكنت حريصا على تبليغ أقرباء أولئك الابطال الذين بقوا في أوطانهم آيات التقدير الذين هم لها أهل.

لا أرضى بأن يبقى أحد بجانبني رغما عنه. اذهبوا فأنتم طلقاء. اتركوا ملككم وقائدكم. إن الأعاجم الذين هزمتهم سيسهرون على حياته. وإذا عزمتم على الذهاب فلا تخلّجوا بل عليكم أن تقفوا وقفة الكرام وتطالبوا الآلهة والبشر باحترام قراركم. أعلنوا عن عزمكم وعودوا إلى أوطانكم.

وبعد ذلك الخطاب انعزلت في قصري مدة أيام وصرفت عني جميع الزائرين. ولكن خطابي في تلك المرة ترك أثرا في النفوس : أتاني جنودي المقدونيين القدامى متضرعين. يطلبون مني أن أنسى خطيئتهم ويقولون : لنا عليك مأخذ واحد وهو أنك تعامل الفرس والميديين كما لو كانوا لنا نظراء في حين أننا نحن صاحبك الأولون انضوينا تحت لوائك من اليوم الأول.

لم يسمعوا مني جوابا ولكن دعوتهم الى وليمة انعقدت في مساء ذلك اليوم وأجلستهم بجانبني وأمرت بأن يجلس الفرس وممثلو مختلف الاقطار على مقاعد وضعت بعيدا عني.

وأرقنا الخمر تقربا للاله الاعظم مديرين نفس الكأس. وعندما آلت الكأس التي وأرقت منها قطرات من الخمر الحمراء نهضت وطففت عليهم جميعا دون استثناء أي طائفة من طوائفهم وتمنيت لهم بكل جوارحي أن يكون الحظ حليفهم في المعارك التي سيخوضونها معا ببسالة وأن يوفقوا الى خلق جو من التعاون السلمي بينهم وتمنيت بالخصوص أن يكون تضامن اليونانيين والفرس تاما يوم أموت وتدف ساعة تعيين خلف لي على العرش. فلا يمكن الحفاظ على وحدة العالم وهو أعز مطمح لدي الا اذا رضيت جميع شعوب المملكة بدفع ذلك الثمن.

وكان لهذا الخطاب الذي ألقيته في وليمة أخوية صداه البعيد في النفوس. لقد عبرنا جميعا عن نفس الامنية ونحن نتوسل الى الاله ونريق الخمر تبركا وقرى. كنا ندعو الاله الاعظم حتى يجعل الوثام سائدا بيننا ويوحد نفوسنا لبلوغ نفس الاهداف وللظفر معا في نفس المعارك.

غبية إله

كانت تلك الوليمة آخر حلقة من سلسلة من الاحتفالات أدخلت على نفسي الفرح والابتهاج. لا أدري كيف انطلقت ولماذا تواصلت مدّة طويلة وكم تمّنت أن لا أحتفظ بأية ذكرى لها. ولكن لا أستطيع أن أصرف عني الاطياف التي تزورني من حين لآخر ولا أن أنفض عني تلك الكآبة الثقيلة التي أطبقت علي بعد انتهاء الالعاب الرياضية والحفلات الموسيقية التي أمرت بتنظيمها في مدينة اكبتان.

تعود اليّ ذكرى بادرة تنظيمها. أمرت باقامتها بدافع غامض يشبه وخز الغريزة كما لو كنت أتوجّس وقوع أحداث مأسوية وأحسّ بأن ظلّاما دامسا أخذ يغطّي الافق. وتحسّبا لما كنت أحسّ بقرب وقوعه أمرت بأن يبذل كل الجهد حتى تكون الحفلات أجمل وأروع ما يكون. وكنت أقيم في كل مساء بعد الاعلان عن أسماء الفائزين في المسابقات الرياضية أو الفنيّة وليمة يسودها المرح والانشراح أدعو اليها جميع المشاركين في المسابقات.

وفي احدى تلك الولائم وفي الوقت الذي كنّا نشرب فيه على نخب الاله ديونيسوس⁽¹⁰⁹⁾ للاشادة بانتصارات المصارعين الاقوياء الميديين منهم واليونانيين على حدّ سواء مرض هفستيون فجأة. ولم ييح لي على عادته بما كان يؤمله حتّى لا يزعجني بل ادّعى أنه يشعر بالتعب وغادر القاعة.

ومن الغد لم نلاحظ حضوره في الاحتفالات ولم نره أيضا في الايام الاخرى وذلك الى يوم اختتام المهرجان. ونحن نعلم أنه هو الذي اقترح تنظيم تلك الحفلات لانه كان يؤمن بأن المنافسة الشريفة السلمية بين الشبان للفوز في ميادين الالعاب الرياضية تشحذ العزائم وتقوي القلوب.

وكنّت كلّما أتيتّه عائداً قال لي إنّ حالته الصحية في تحسّن ولكن يريد أن يرتاح أكثر حتى يكون مستعدّاً تمام الاستعداد للمشاركة في الغزوات الجديدة التي ستبدأ بعد انتهاء الحفلات.

وكان الاطباء يؤيدون قوله حتى الطبيب قلو كياس الذي كان يعالجه ليلاً نهاراً. والحقّ يقال اني ما وثقت قط بكلام الاطباء.

هل كان هؤلاء يطمئنونني على صحة هفستيون لشعورهم القويّ بأنهم قادرون على انقاذه من الموت أو هل كانوا يخشون سطوتي لو تجاسروا على إفشاء الحقيقة المرّة وهي يأسهم من شفائه ؟

وأمرت بأن تذيب القرايين تقرّباً للآلهة وطلبت من العزّافين والكهنة أن يتقدّموا أمام المذابح ويتوسلوا الى الآلهة في تلك الساعات الرهيبة. وتوجّهت أنا أيضاً بدعائي الى الاله أمّون وذبحت له القرايين حتى يسعفنا. كما أمرت أحسن الاطباء التابعين « للدائرة الصحية الملكية» أن يبدلوا كل ما في وسعهم لانجاء هفستيون من الموت. وتقدم الي قلو كياس وخاطبني باسمهم جميعاً مطمئناً. وأبدى زملاؤه موافقتهم على تشخيصه للمرض وعلى تفاؤله بالشفاء.

وصادف اليوم السابع من مرضه أهمّ المباريات في برنامج المهرجان. وكانت تحتوي لأول مرة في التاريخ على مباريات رياضية بين أطفال يونانيين وأطفال من الفرس.

كانت مدارج الملعب ملأى بالنظارة وكان الاطفال يتبارون في الساحة بحماس قيّاض. وفي الوقت بالذات الذي تعالت فيه هتافات الجمهور تحيي فوز الاطفال اليونانيين أتاني رسول يعلمني بأن حالة هفستيون تدهورت.

فغادرت الملعب بسرعة. وذهبت الى بيته. فوجدته ميتاً. لم يسمح لي الحظ بأن ألحق وهو ما يزال بقيد الحياة. كانت عيناه مفتوحتين ملتفتتين الى الباب كأنّه كان ينتظر قدومي. يداه مازالتا سخنتين ووجهه قد حافظ على تلك المسحة من الطيبة والتألّق التي ألفها الناس عنده وعرفتّها منذ عهد بعيد منذ كنّا طفلين نمرح معاً في عاصمة بيلّا.

لم يميت هفستيون ! ليدع غيري أنه مات. وليقل الاطباء أنهم بذلوا أقصى
 الجهد لانقاذه من الموت. لم يميت هفستيون لانه التحق بالآلهة وانضم اليهم.
 سيبقى هنالك معهم الى الأبد. سيبقى جميلا وعزيزا وشابا الى أبد الآبدين،
 كما لو كان الها. لا بل هو إله سيستقبله الآلهة كما لو كان واحدا منهم. هذا اليقين
 عندي محقق لجميع الاعتبارات الأخرى.
 لا يحق لهفستيون الا أن يسموا الى درجة الآلهة.

مالك المخطوط يدل كيف أغفل الاسكندر ذكر أحزانه في فترة الحداد لموت هفستيون ولماذا أغفلها

ونعثر من جديد على فجوة في سياق مخطوط بابل.. يقطع الاسكندر سير الاحداث فجأة عند موت هفستيون ولا يعود الى سرد سيرته الا ابتداء من اليوم الذي عاد فيه الى بابل ودخلها في موكب حافل لاستقبال سفراء أتوه من عدّة أقطار.

لا أظن أنه لم يحدث شيء بعد موت هفستيون ولكن الاسكندر أغفل الحديث عمّا عقب وفاة هفستيون عن قصد.

أليس من الطبيعي أن يحجم الاسكندر عن التوسّع في الحديث عن حداده وعن الحزن العميق الذي غمره لفقدان صديق عزيز؟
إنّي أميل الى هذا الافتراض ولا أجزم بأنّه أصدق الافتراضات. وأجدني أكثر تعلّقاً بهذا الرأي عندما ألاحظ أن سير الاحداث في هذا المخطوط الذي أودعه الاسكندر وصف حالاته النفسية ينقطع عند هذا المنعطف الخطير بالذات. لكأنّي بالاسكندر يفطن بأنّه عاجز عن التعبير عمّا أحسّ به من ألم لفقدان صديقه لأنّ جسامته المصاب تتجاوز قدرات القول.

أتصوّر الاسكندر عندما أتمّ تحرير الفقرة التي تختم الباب السابق والتي يقول فيها ان الآلهة استقبلوا هفستيون وأوسعوا له مكاناً بينهم يحاول أن يتحدّث عن فترة حداد دامت شهوراً وشملت كامل الجيش وتميّزت بكثرة مواكب التآبين فلم يقدر على ذلك كما لم يقدر على التغلّب على حزنه فعرته نوبات من الألم الجارف الذي أفضى به أحياناً الى الهذيان.

ولربما أثر إيقاف حديثه عند هذا الحد حتى لا يعاوده الهذيان. واسمحوا لي أن أضيف هذا الرأي : كان الاسكندر يعتقد أن حزنا مثل حزنه لا يعبر عنه بالالفاظ بل بالصمت المطلق.

وأرى أنا أيضا أن الصمت وحده هو الذي يليق بالمقام ولو أنني رجل بسيط وعادي. وقد لاحظت — كما سبق لي أن قلت — ان المخطوط الذي أملكه يصف في مجموعه ما كان يجري في نفس الاسكندر طوال مغامرته. ولذلك تميز المخطوط بتلك الحيوية التي نعهدها في أغلب المؤلفات التاريخية التي تتناول ظواهر الاحداث فحسب دون أن تبحث عن الرجل الشاب الذي أثارها فتخرجه من مكمنه وتجعله ماثلا أمام أعيننا متألقا في أيام النصر وكهيبا في أيام الهزيمة.

ولذا أتوجه من جديد الى أريان رفيق الدرب في هذه الرحلة الاستطلاعية التي أقوم بها متبعا خطى الاسكندر حتى أسد تلك الثغرة التي تخفي حلقة من حياة الاسكندر مفعمة بشعور انساني رقيق.

لقد خصّص أريان في السفر الاخير لكتابه عن « غزاة الاسكندر » بعض الصفحات الرائعة روى لنا فيها الاحداث التي تلت موت هفستيون المفاجيء. استقى مادته من «اليوميات الملكية» التي كانت ولا شك زاخرة بالمعلومات المتعلقة بتلك المرحلة بالذات من حياة الاسكندر. وأضاف اليها وهو المؤرخ الجاد معلومات انتقاها من مؤرخين آخرين ووضعها تحت محك النقد حتى أدت به الدقة في التمهيص الى أن رمى بعضهم بالوقاحة عندما فطن أن كلّ كاتب يتبع هواه في ذكره للاحداث ويتأثر بما يضره من حبّ أو كراهية لهفستيون عندما يصدر أحكامه لتزكية سلوك الاسكندر أو للتفنيد به.

إليكم جزء مما أورده أريان عن تلك الفترة بسداد رأيه المعهود. أقدمه إليكم بشيء من التصرف الحيي مع المحافظة على لبّ الخطاب.

يقدمون الذبائح الى روح هفستيون كما لو كان إلهها

لكل كاتب تناول حياة الاسكندر رأيته الخاص بشأن الحزن الذي ألم به بعد موت هفستيون. ولكن يقرّ جميعهم بأن حزن الاسكندر كان مفرطاً. ولو اختلقوا في تعليقاتهم على تلك الظاهرة متأثرين حسب الحالات بحبهم أو كرههم لهفستيون وبما يصمروه أيضاً من تشييع للاسكندر أو نقمة عليه.

ينقسم الذين شوّها الحقائق في كتاباتهم الى فريقين : فريق ظنّ أنّ التأكيد على عمق حزن الاسكندر وابرار مدى ما يكنّه للفقيد العزيز من تقدير ومحبة عن طريق الوصف الدقيق لظواهر حزنه هو ضرب من المدح والتمجيد وفريق ثان ادّعى أنه لا يليق بملك وخاصة اذا كان ذلك الملك هو الاسكندر أن يتجاوز الحدود في اظهار حزنه ولو كان الفقيد أهلاً لذلك.

ولكم بعض ما روي عن تلك الاحداث :

« كتب بعضهم أن الاسكندر عندما نعي له هفستيون ارتقى على جثة صديقه وهو ينوح ويعول فأجبر الحاضرون على أن يفتكوا الجثة من بين ذراعيه ». وأضاف بعض الكتاب الآخرين أنّه بقي يبكي كامل يومه وكامل ليلته وهو ملقى على الجثة يغطّيها بجسمه.

وقال بعضهم أنّه أمر بشنق قلو كياس زاعماً أنّه ناول هفستيون دواء غير ملائم لمرضه ولم يمنعه من شرب الخمر. وجميع من يعرفون هفستيون يعلمون أنّ الخمر مضرّة له جداً خاصة في الفترة الاخيرة من حياته.

تمّ ان الاسكندر قصّ شعر صديقه تكريماً له وذلك دليل على فرط جزعه. وأنا أرى أنّ هذه الروايات المختلفة التي أوردتها والروايات الأخرى الشبيهة بها التي تصور مدى جزع الاسكندر هي روايات مقاربة للحقيقة. اذ ينبغي أن لا

ننسى أن الاسكندر كان منذ صباه يعتبر أخيلوس مثله الأعلى وقد اقتدى به طول حياته. فكانت الحركات التي قام بها تكريما لهفستيون وتعبيرا عن حزنه هي نفس الحركات التي قام بها أخيلوس لما قتل باتروكلوس. وقد قال بعض الكتاب ان الاسكندر نفسه جرّ العربة التي كانت تحمل جثة خله المحبوب.

وأمر كذلك بأن تذبح القرابين العديدة التي تليق بمقام ذلك البطل. ان جميع الكتاب مجمعون على ما سبق من معلومات. وأضاف بعضهم أنه أرسل رسولا الى معبد أمون يطلب من الاله أن يسمح له بتقديم قرابين لهفستيون حسب الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة أو بعبارة أخرى أن يسمح الاله بأن ينزل هفستيون منزلة الآلهة فلم يسمح له أمون بذلك.

وأورد أحداثا أخرى يتفق عليها جميع المؤرخين : لم يتناول الاسكندر أي طعام مدة ثلاثة أيام ولم يصلح من حاله. وبقي جامدا لا حراك له ينوح حينا ويصمت صمتا رهيبا حينا آخر. ثم أمر باضرام النار في كدس هائل من الاخشاب أعدّ لاحتراق جثة صديقه. ورصد لهذا الغرض ستة آلاف ثلاثون⁽¹¹⁰⁾. وأصدر أمره بأن يشمل حداد مطلق كامل أرجاء المملكة.

واضافة الى كل ما قام به الاسكندر فان صحبه الذين شاركوه حداده وحزنه كرموا الفقيد بتقديم النذور ترحما على روحه. وكثير من هؤلاء نذروا أسلحتهم للفقيد ومن بينهم أومينوس الذي كثيرا ما تخاصم مع هفستيون. أراد أومينوس بهذه المبادرة الحكيمة أن لا يظن الاسكندر لحظة أنه شمت بهفستيون.

وأصدر الاسكندر أمرين اتماما لتكريمه لروح الصديق المفقود. لم يعين خلفا على رأس فرسان الخلال وأبقى اسمه على رأس قائمة أعضاء تلك السرية المختارة. وأصدر أمره بأن لا يحدث أي تغيير في المراتب العسكرية التي أسندها هفستيون عندما كان قائد السرية المختارة : « سرية الالف فارس ».

وكان القرار الثاني الذي أصدره يتعلق بتنظيم ألعاب رياضية وحفلات موسيقية احياء لذكرى هفستيون. وأوصى بأن تكون تلك الحفلات ذات بهاء منقطع النظير وأوكل الى أكثر من ثلاثة ألف رياضي مهمة الاستعداد للمشاركة فيها.

ما أشأَم تلك الاستعدادات ! جرت تلك الحفلات بعد مدة قصيرة لا لاهياء
ذكرى هفستيون ولكن ترَحُّما على روح الاسكندر الذي وافته المنية.

شرح موجز يقوم به مالك المخطوط

لا أضيف شيئا الى ما رواه لنا أريان عن مراسم الحداد التي دامت طويلا ولا عن الظروف المحيطة بها. وقد كان المؤرخون يجمعون على هذه وتلك. أعود الآن الى مخطوط بابل الذي يقصّ علينا بصورة مكثفة من الآن فصاعدا المراحل الاخيرة لحياة الاسكندر وهو مصاب بالحمى وما يتبعها من هذيان. كان الاسكندر يحسّ ولا ريب بأن الافق بدأ يضيق من حوله رغم ما كان يبذله من جهد لمواجهة مصيره. فأخذ يركن شيئا فشيئا الى الوحدة ويهجر أصحابه ومساعديه الاقربين ويهجر نفسه أيضا. فانغمس في تصوّف غريب مليء بالالوهام وأصبح يصدّق تنبؤات العرافين والكهنة عندما يطلب منهم كشف الغيب له. هل كانت الغيبات ملجأ له وطريقا للخلاص؟

نعم. لأنّ المخطوط لا يترك أيّ مجال للشك في ذلك : ان بذور التصوّف التي زرعها أولمبياس في نفسه في عهد الصبا عندما كان يقيم بمدينة يلا ثم غدّتها في معبد دودونا عندما كانا منفيين في اقليم ابيروس قد نبتت وترعرعت وبلغت أوجها في تلك المرحلة بالذات من عمره.

ومن أثر ذلك أنّه كان يعتقد أن العالم الخارجي ظاهر لا جوهر له ولا عمق وعرض لا طائل من ورائه. فهو شبيه بالاحداث السطحية التي تكتسب « حقيقتها » بصورة متفاوتة من الظروف المحيطة بها فتسمح للمؤرخين أن يكتبوا التاريخ. وهناك ظواهر أخرى تكشف من ورائها عن عظمة أسرار عالم بعيد وغامض لا يستطيع ادراك وجوده الا قلة اصطحبهم الآلهة ولقنّوهم أسرار الوجود. وها هو الاسكندر يتابع فيما يلي سرد حديثه.

ثناء اليونانيين

كان الشتاء قاسيا ومتعبا.
وروّحنا على أنفسنا بشنّ غارة على الكوسيين وهم معشر من المقاتلين الأشداء
الأباة اعتصموا في منطقة جبلية وعرة. واستطاع جيشي أن يتغلّب عليهم دون كبير
عناء رغم البرد القارس.

وعند عودتي الى بابل قدمت سفارات من مختلف الاصقاع المعروفة منها
والجهولة تخطب ودّي. ومن بينهم أناس سلتيون⁽¹¹¹⁾ وإياريون⁽¹¹²⁾ أثار لباسهم
الغريب دهشة جنودي.

واستقبلتهم جميعا مبديا لهم عطفى ومعبرا لهم عن ترحابي. وقد تأكّد عندي
أنّ التعاون المخلص بين الدول أمر يمكن تحقيقه وأنّه يجب على كلّ أمة أن تسهم
في توحيد العالم بما أوتيت من قوّة وما أحرزت عليه من معرفة.
ثم أمرت بأن يشرع في صنع أسطول عظيم لاستكشاف نواحي بحر قزوين⁽¹¹³⁾.
وأوصيت بأن تجرى دراسة عن امكانية ربط ذلك البحر بالبحر الاسود
أو بالمحيط الهندي.

وعندما كنت سائرا في طريقي الى بابل حيث كنت أنوي تقديم قرابين للآلهة
اعترضني وفد من الحكماء والعرفان الكلدان ورغبوا في أن يقابلوني لوحدي
وبمعزل عن مساعدي ورجال حاشيتي.

وأعلمني كبير العرفان أن عودتي الى بابل تصحبها في هذه المرة دلائل طالع
نخس. قد أوحى بنبوءة الشؤم هذه الاله بال⁽¹¹⁴⁾.

وصدّقت هذه النبوءة التي كنت أنتظرها منذ زمن بعيد أو بالاحرى كان
توجّس حدوث المكروه ساكنا في نفسي وإنما لم أتأثر بما أسروه لي وواصلت

مسيرتي طبق البرنامج المسطر لا لظهار جلدي للكلدان فحسب بل أيضا لا غالب نفسي. وذكّرتهم بيت أوريبيديس الذي يقول :
أفضل العرافين من تنبأ بالخير.

ودلّني الكلدان على باب المدينة الذي ينبغي أن أدخل منه على رأس جيشي حتى أتقي سوء الطالع. وما كان يهمني في ذلك الوقت بالذات من أمرهم شيء. كنت أريد الوصول في أقرب وقت ممكن الى المدينة حيث كان أعيان اليونانيين في انتظاري. كانت نظرتي للزمن والاحداث التي يولدها مخالفة لنظرة العرافين. وعندما وصلت الى بابل وجدت بها رسل اليونانيين. وسررت لاني كنت أنتظر منذ سنوات وفودهم عليّ.

وسلّموا إليّ تيجانا من ذهب قرّر مواطنو مدنها بالتصويت اهداءها اليّ. وقرأوا نصوص الشاء الموجهة اليّ والتي صادق عليها مواطنو كل مدينة. وكانت جميعها تمجّد الانتصارات التي أحرز عليها جيشي في زحفة الهائل الذي انتهى به الى أعماق الهند.

انّ اليونانيين يشحّون بالثناء على القادة العسكريين ولو قاموا بخوارق البطولات. فهذه المجموعة من النصوص التي كانت تشني على أعمالي سكّنت قليلا آلام الحن التي قاسيتها منذ زمن بعيد. وضمّدت الجراح التي أصبت بها أثناء معارك عديدة.

لو فطن اليونانيون بمدى تأثير الشاء في نفوس المقاتلين لما شحّوا به ولما تمادوا في عدم الاعتراف بجليل الأعمال وعدم تقدير من يقومون بها. ولكن اذا استثنينا بعض المناسبات القليلة مثل التي أتت بوفودهم الى بابل فإنهم عاجزون عن ادراك معنى البطولة أو محجمون عن الاعتراف بها. فهم الى توجيه اللوم أميل. وأنا متيقن من أنّهم سيسلكون دائما ذلك السلوك لأنه مطابق لمزاجهم ومسائر لمصيرهم. وأنا أعلم علم اليقين أنّهم سيعودون الى نقد كلّ ما قمت به من أعمال بعد زوال هذه النوبة التي جعلتهم يثنون عليّ.

كأنّي أسمع من الآن بعض خطبائهم في الساحة العمومية يصيحون في جلسة عامة قائلين :

- بلغ الاسكندر أقصى الارض ؟ هل هو أمر عجيب ؟ ما هي أهمية ما قام به اذا أردنا أن نفحص الأمر.
 كنت أودّ أن أبوح بكل هذه المخاطر للرسول ولكن أمسكت عن ذلك لعلمي أن قولي سيذهب سدى ولن يغيّر من الأمر شيئاً.
 استقبلتهم استقبالا حارا وشكرتهم وأمرت بأن تعاد لهم جميع التماثيل والنصب التذكارية ونذور العباد للمعابد التي نهبها كسر كسييس في مدنها ومعابدهم. ووزعها بين بابل وباسرقادس والسوس. وكان من بين الغنائم التي غنمها الفرس في بلاد يونان تمثالاً هدموديس وارسطوقيتون الذين اغتالا الطاغية هبار نخوس⁽¹¹⁵⁾.

يعدّونه إلههم الثالث ولا يكفرون به

أحسّ الآن وأنا في بابل بأنّ الزمن أخذ ينقضي بسرعة هائلة كأنّه ينتظر بلهفة طلوع اليوم الذي يشهد فيه نهاية العالم أو بداية عالم جديد.

تقلع أساطيلي باستمرار قاصدة أصقاعا بعيدة. ثمّ تعود إليّ. ويأتيني أمراء البحر بأنباء بكر عن الاقطار التي اكتشفوها والبحار التي شقّوا عابها. وهم الآن بصدد تهيئة رحلة استطلاعية جديدة إلى الجزيرة العربية تلك البلاد التي لا يعبد سكّانها الا إلهين أورانوس⁽¹¹⁶⁾ وديونيسوس.

يزعم علماء حاشيتي الذين مازلت أتحمل خيلاءهم أن العرب يعبدون أورانوس لفرط بهائه ولأنّه يحوي النجوم الزاهرة في الليل والشمس الوهاجة التي تمنح العباد الدفء والتور. ويعبدون ديونيسوس لقيامه برحلته الشهيرة الى الهند.

يعبدون الهين فقط. فهذا قليل. تعبد الشعوب الاخرى آلهة كثيرين ويقدمون لهم القرابين. ربّما يليق بالعرب أن يعبدوا إلهًا ثالثًا قام بكثير من الأعمال الجليلة وهو ابن لاله أمّون. وهذا الاله حوى الأزل ولم تشيع طموحه الاقطار الشاسعة التي استولى عليها.

قام قائد الاسطول هيارون الصولي برحلة استكشف فيها كامل سواحل شبه الجزيرة العربية على ظهر السفينة التي أمرت بصنعها لهذا الغرض وسلّمها له. وعندما عاد إليّ قال لي إنّ بلاد العرب تحتل مساحة شاسعة من الأرض تجعلها تعادل الهند في اتساعها وعظمتها. ودعاني الى تهيئة حملة جديدة لغزوها. وما استطعت بعد الاستماع الى حديث هيارون الطويل أن استخلص أي معلومات مفيدة عن ثروة جزيرة العرب. وما عرفت هل لسكانها استعداد للاعتراف بإله ثالث يعبدونه بجانب إلههم.

بدأنا في صنع سفن جديدة أعظم من السفن التي كنّا نركبها حتى نستعملها للمهام الاستطلاعية التي خططنا لها.

سوف لا نحدّد في هذه المرّة هدفا لكل رحلة بل نترك الملاحين يكتشفون ما استطاعوا اكتشافه دون تقييدهم بمسار أو زمن. فالبهار وحتى المحيطات أرحم من الصحارى. وملاحونا مهرة في ركوب البحر يعرفون كيف ينجون من الأعاصير.

أما أنا فقد قرّرت المكوث ببابل تأتيني إليها الانباء في كلّ يوم يحملها التيّ قادة أساطيل وأعضاء البعثات الوافدة على أعثابي والرسل الموفدون التيّ. وأقول في نفسي كم كان خطأ حكماء بلاد الكلدان وعرفائها جسيما عندما نصّحوني بعدم العودة الى هذه المدينة لتوقّي النحس الذي يتظرني بها.

يغمرنى سرور عظيم عندما أحسّ بشعور راسخ في النفس يجعلني أعتقد أنهم مخطئون وأنّ تنبؤاتهم المشؤومة كذب وبهتان وعندما أتذكر بهذه المناسبة أنّي أجبرت كاهنة أبولون على مباركة الحملة بعد أن رفضت البوح بنبوءة الاله وأعلنت أنّها لا تضمن لنا النصر.

لو كانت لي الآن تلك القوّة ! لو كنت أستطيع ارغام الحكماء والعرفان والكهنة على أن لا يعلموني الا بما أتمنى أن أسمع به بدل أن يقذفوني بتنبؤاتهم المشؤومة التي لا تنذر الا بالشؤم !

لا تطاوعني نفسي على ارغام هؤلاء حتى يتنبأوا بما يوافق هواي ولو قدرت على ذلك لوجدت متعة في إخضاعهم. لم هذا الامساك ؟ أجيب ببساطة : لأنني أمسيت أنا نفسي لا أثق في مستقبل الأيام.

عندما سألت كاهنة أبولون بدلفي⁽¹¹⁷⁾ عن مصير الحملة التي كنت أزمع شنها كنت متيقّنا أنّه لا يوجد انسان أقوى منّي وأنّه لا يستطيع أحد أن يغلبني. ولكن فقدت اليوم تلك الثقة، بنفسى ولو أنّي أستعدّ لاكتشاف أقطار وبحار عديدة. لم تبقي أمامي جيوش داريوس المدجّجة بالسلاح التي هزمتها ولا الهنود البواسل الذين أخضعتهم رغم كفاحهم المستميت. فقدت الثقة بنفسى لأنّ عدوّا جديدا ومستترا أخذ يقتفي خطاي ليلا ونهارا ويتبعني كظليّ. أنّه أقوى منّي وأقوى من أعدائي الآخرين الذين قضيت عليهم. يسلط عليّ قوّته في كل لحظة ولو أنّي

أَتَظَاهِرُ بِعَدَمِ الْاِكْتِرَاطِ بِهِ أَوْ أَرْفُضُ الْاعْتِرَافَ بِسَطَوْتِهِ. لَا يَفْطِنُ الْآخَرُونَ بِمَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنِهِ. لَا يَسْتَطِيعُونَ فَهْمَ مَا يَجْرِي وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. لِأَنَّ الْعَدُوَّ الْجَدِيدَ لَا يَفْرُضُ وَجُودَهُ إِلَّا عَلَيَّ وَعَلَيَّ وَحْدِي.

بَانَتْ لِي مِنْهُ إِشَارَةٌ مِنْذُ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ. كُنْتُ رَاكِبًا عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الْمَلِكِيَّةِ وَكَانَتْ تَطُوفُ بِنَا فِي النَّقْعِ الَّذِي تَوْجَدُ فِيهِ قُبُورُ مَلُوكِ أَشُورَ. فَهَبَّتْ رِيحٌ قَوِيَّةٌ قَلَعَتْ قَبْعَتِي مِنْ فَوْقِ رَأْسِي. وَقَدْ اخْتَرْتُ يَوْمَهَا أَنْ أَضْعَ عَلَى رَأْسِي قَبْعَةً شَبِيهَةً بِتِلْكَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا أَجْدَادُنَا فِي مَقْدُونِيَا.

لَنْ يَمَّحِيَ اسْمُ هَفَسْتِيُونِ. سَأُبْذِلُ قِصَارَى جَهْدِي لِأَجْلِ ذَلِكَ. سَيَبْقَى اسْمُهُ مَنْقُوشًا عَلَى جَمِيعِ وَاجِهَاتِ الْمَعَالِمِ فِي الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَيَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ يَذْكَرَ اسْمُهُ فِي جَمِيعِ الْعُقُودِ الَّتِي يَبْرُمُهَا تِجَارَةُ الْمَدِينَةِ.

وَافَقَ الْإِلَهِ عَلَى إِحْلَالِهِ مَنْزِلَةَ الْإِلَوهِيَّةِ فَعَلَيَّ أَنْ أَقُومَ حَالًا بِمَا تَعَهَّدْتُ بِهِ.

« لتكن هذه الاغنية بلسما لقلوبنا »

لما شرعت في كتابة هذا النص الذي يسوده الهذيان ما كنت أتوقع أنني سأصل به الى هذا الحد. كنت أنوي البوح فقط ببعض مشاعري في بعض ساعات من حياتي. كنت أريد أن أحييا من جديد تلك الساعات مع الفسحة الزمنية التي توضح الرؤية. فالبعد الزمني ضروري عندما يعزم الانسان على كتابة وقائع حياته ومغامراته ولو كان ما يكتبه — كما هو الحال هنا — معدّا للمطالعة الشخصية.

وما كنت أتوقع أنني سأكون قادرا على مواصلة الجهد بهذه الصورة حتى أصل الى هذه المرحلة من مغامراتي خاصة بعد تدهور حالتي الصحية... في هذه الايام الاخيرة.

لا أثق مطلقا بأطباء دائرة التطبيب المنقطعة لخدمتي. فهم يقدرّون على كل شيء سوى معالجة المريض بصورة تؤدّي به الى الشفاء. مقدرتهم على الكلام عجيبة وتشخيصهم للأمراض دقيق ومقنع. ولكن مواهبهم غير نافعة اذا حلّ الأجل المحتوم. ولذلك قررت الاستغناء عن خدماتهم اذا استفحل سقمي لاني أفضل أن أتحمّل وحدي المحن التي كتبها الآلهة لي دون أن أشغل نفسي بعلاجهم.

وجدت في هذه الايام سلوى في تناول الخمر ولم يكن هذا دأبي من قبل. ما كنت أترفع عن شرب الخمر ولكن أشربها بالخصوص لبعث المسرة في قلوب ضباطي وخلائي عندما ينتظم سلكنا في مأدبة نقيمها ليلا بعد معركة ضارية. ان المقدونيين مولعون بالخمر الجيدة. فكنت حريصا على أن أثبت لهم أن ملكهم قادر على التباري معهم في احتساء الخمر. وكنت أبزهم في بعض الاحيان حتى أصبحوا لا يجروون على مباراتي في هذا المضمار.

فقدت الآن قدرتي على التباري وأمسيت لا أشرب الا بمحضر أصدقائي المقربين فأحسّ بالانفراج وبسكون الهواجس المفزعة التي أخذت تتضخّم يوما بعد يوم. وكان ميديوس أحد الحلائن يحذق توخّي الطرق الكفيلة بخلق جوّ مرح أثناء المأدبات لانه يستطيع أن يتحدث في شتى المواضيع دون عناء أو تكلف ويقدر على مشاركة الندمان في شربهم طول السهرة دون أن تبدو على ملامحه علامات السكر المفرط.

لم يلفت انتباهي من قبل. وما اعتنيت بطلب معلومات عنه. ولو كنت أجد لدّة في الاطلاع شيئا فشيئا على حقيقة شخصية جنودي سواء عندما أختبر سلوكهم في ساحة القتال أو أراقب حركاتهم في مجالس الشراب. واليوم أمسيت لا أهتمّ بذلك إمّا لضيق الوقت أو لأن حب الاطلاع الذي يدفعني من قبل قد خبا في نفسي.

المهمّ وأنا أعود الى الحديث عن ميديوس هو أنّه يعرف متى ينبغي أن يتحدث ومتى ينبغي أن يسكت. ويحسن كذلك القاء القصائد الشعرية فلا يتصنّع التفخيم ولا يبالغ في الحركات المعبرة التي تفسد المعنى.

لم أسمح له بالقاء مقاطع من الالياذة ولو أنّه استأذن منّي أن يلقيها مرارا عديدة. وهذا أمر طبيعي لاني خصّصت هفستيون وحده بالقاء شعر هوميروس بمحضري لأنّه هو الوحيد الذي يدرك معنى ذلك النوع من الصداقة التي تتحدّى الموت نفسها فلا تستطيع هذه إخمادها.

كان ميديوس ينشد قصائد لشعراء آخرين. ويستطيع عندما يراني مهموما أن يرتجل أبياتا مرحة في الخمر وأثره في النفس فيشيد بفرحة الحياة وبالنشوة العذبة التي تستولي على الرجل البسيط فتجعله يحسّ بأنه ارتقى الى سرير الملك. وعندما تنتهي المأدبة الرسمية يدعونا ميديوس الى خيمته. وفيها نواصل مجلس الشراب ونفرط في الشرب. وعندما نمسك عن الشراب يقدر دائما على فسخ قرارنا قائلا ان الآلهة أنفسهم يلجأون الى احتساء الخمر لترويح أنفسهم رغم رصانتهم وعظمتهم وهم لا يحشون شيئا حتى الموت الذي يلزم البشر الفاني كالظلّ. فترانا نقتنع بقوله ونشرب جميعا الى طلوع الفجر.

ما استهوتني قطّ الحلول السهلة ولذلك أشعر الآن تمام الشعور بأنّه من المضحك والمؤسف معا أن أبوح بهذا السرّ : إذ لم أكن مشتغلا مع ولاية الاقاليم في جلسات عمل لتهيئة الزحف على شبه جزيرة العرب الذي نشرع فيه بعد أيام قليلة قضيت الوقت في حضور تلك الولايم التي كانت تساعدني على استعادة الطمأنينة التي كانت تملأ نفسي في السنين الماضية عندما كنت أنفرد بصنع القرار وعندما كانت الظروف دائما مواتية.

ها أنا أنتظر الحملة القرية. أتايني نيارخوس طالبا التعليمات وهو من أشجع أعضادي وأخلصهم إليّ. وكان قبيل كل زحف جديد يعرف متى ينبغي له أن يطلب تعليمات منّي ومتى ينبغي له أن يقوم وحده بمبادرات. وجرى نقاش بيننا ودار النقاش في تلك المرّة حول الزحف على بلاد العرب الذي تقرّر. وتبادلنا الرأي حول جميع النقاط المطروحة للدرس. وسررت لذلك. أميتنا ففتح طريق تصل بانتظام البحر الاحمر بالخليج الفارسي... وربما نستطيع تحقيق أعمال أخرى... أنصت إليّ نيارخوس باهتمام. وكان يبدي من حين لآخر ملاحظة دقيقة تكشف عن حصافة رأيه وعن تجربة عميقة اكتسبها من قيادة الاسطول مدّة طويلة في مجاهل البحر.

وكان يعلم ونحن على أهبة الانطلاق أنّ هذه المغامرة الجديدة ستستغرق وقتا طويلا وتستدعي منا تنظيما محكما. ولذلك كان يطلب منّي أن أصحب الاسطول الغازي ويصرّ على الطلب.

ولم أجبه بالسلب ولا بالايجاب. وربما كنت أحسّ أنّي غير قادر على تحمّل متاعب تلك الرحلة الطويلة. ولكن لم أمتنع صراحة حتى لا أحزنه. لم يزل يعرض عليّ مشروعاته. وكان يعدّ ما أعددناه لاكتشاف سواحل شبه جزيرة العرب أهمّ رحلة بحرية استطلاعية قمنا بها. وكان يقول لي : حالما نجد الموقع المناسب نشيد اسكندرية جديدة ستكون أعظم وأوسع من سمّياتها التي تحمل نفس الاسم. ونقيم في وسط المدينة نصبا لتعجيد السلطة المقرونة بالايان بقدرة البشر التي تستطيع السيطرة على الطبيعة مهما قست واستعصت والارتقاء الى منزلة الآلهة.

كنت أجد متعة في الاستماع اليه. وكنت عندما يعرض عليّ مخططاته المطابقة
لتعليماتي أصبحته بفكري في تلك الرحلة التي لن تكون لها نهاية.
ثمّ دعوت أعزّ خلّائي وشربنا ونحن نستمع الى ميديوس يحضّننا على الشرب
بقوله : « لتكن هذه الاغنية بلسمًا لقلوبنا ».
وفي تلك اللحظات كنت ألبي ذلك النداء لانه هو النداء الصالح في الوضع
الذي كنّا نعيشه.

التصر

تقضى هذه الرحلة مضجعي لأنّ المشروعات الجديدة التي ينبغي انجازها حسب الترتيب التي ضبطت جرياتها مع أعضادي تخامر ذهني ليلا ونهارا. زوّدتهم بتعليمات مدققة. ولكن تبرز في نفسي من حين لآخر نقطة تحتاج الى مزيد من التدقيق.

أظنّ أننا قاربنا بلوغ الهدف العظيم الذي رسمته منذ بداية المغامرة. وذلك بفضل الوحدة بين شعوب يونان والشعوب الاخرى التي بدأت تتدعم يوما بعد يوم. ومن حسن الحظّ أن جميع تلك الشعوب أصبحت تؤمن بضرورة الوحدة حتى أننا أمسينا لا نستطيع احصاء عدد الفرس والميديين والهنود الذين أصبحوا يفهمون لغتنا خاصة من بين الشبان. واذا استثنينا الذين مازالوا متعلقين بعاداتهم و متمسكين بلهجاتهم.

لا أعتني الا بالشباب لأنّه هو الذي سيواصل المعركة التي بدأناها ويحقق الحلم الذي لازم أذهاننا بفضل ما يتمتع به من قوّة وعزيمة صماء. ودعوت الناس في كثير من الأقاليم الخاضعة لنفوذني الى اقتناء الكتب اليونانية إيمانا منّي بأنهم سيجنون منها الفوائد الجمّة ويخذقون عن طريقها لغتنا. وأمرت الاساتذة والعلماء اليونانيين الذين يصحبونني بالتفرغ لدراسة علوم الشرق وترجمة مؤلفات علمائهم الى لغتنا لأنّي أعتقد أننا سنفيد منها جمّ الافادة. ولو أننا نزعّم أننا ألمانا بجميع المعارف. أظنّ أن ذلك التبادل في ميداني الفن والفلسفة الذي يجري في مناخ يسوده السلم والوئام بين الشعوب. سيساعد على المضيّ قدما لتجسيم مشروع حضاري شرعت في وضع أسسه بقوّة السلاح. ولا شك أن المرحلة الثانية التي بدأنا نقطعها لم تيسر لنا لو لم نقطع المرحلة الاولى.

صرعنتني حمى استعصت على كل علاج. وأنا أحاول مغالبتها حتى لا تغير شيئا من مظهري لأنّ عامة الناس وخلائي أيضا لا يقبلون أن يبدو الغضب على ملامح الملك. فهم يفرضون عليه أن يظهر في كل لحظة قوة لا تزعجها العوارض وأن يخطّ دائما الطريق الذي ينبغي سلوكه وأن يستنبط باستمرار مخططات جديدة للقيام بعمليات حربية مجددة.

فكنت أجنح أكثر فأكثر الى الوحدة حتى لا يلاحظوا وهني ونظراتي التائهة. وفي اللحظات التي أعيد فيها ذكرياتي وأحيي ماضي برسم صورته على البردي أعود بمهجتي الى دودونا فأسمع حفيف أوراق شجرة السنديان المقدسة التي علّمتني أولمبياس تأويل همسها وأتذكر بعض نصائحها. كانت تقول لي أنّه ينبغي للانسان كلّما قارب مرحلة أساسية من مراحل حياته أن يستعدّها بتجميع شتات فكره وشعوره في عملية تركيز سرّية تجري في أعماق النفس. هدفها انضاج الروح حتى تكون قادرة على مواجهة المرحلة الجديدة.

وأجدني في معبد آمون أمام الباب السريّ. لا أرى الاله كما رأيته عندما زرته في معبده. ولكن أرى عمودا من الثور الساطع متغير الحجم والمظهر ألح فيه حيناً فيليبوس بملامحه القاسية الضارية التي عهدتها فيه في ساعات القرارات الحاسمة وحيناً هفستيون بجماله الرائع ورصانته وحيناً آخر خلائي الذين سقطوا في ساحة الشرف.

وأسمع في تلك الحالات جلبة النصر تلك الجلبة التي طرقت سمع ديونيسوس عندما توغل في أعماق القارة الهندية بعد أن احتلّ معظم القارة الآسيوية. فأطلق عليه لاجل ذلك كله لقب المنصور.

ولكن النصر الذي ظفرت به لا يشبه نصر ديونيسوس. إنه نصر يشاركني فيه أعزّ خلائي. وأنا أعتقد أن الجلبة التي أثارها ستبقى داوية الى آخر الدهر ولو مزّق ملكي خلفائي وتألّب عليّ أعدائي وحلفائي.

سوف لا يتعالى نشيد النصر لتمجيد امبراطور ملك البر والبحر ولكن سيتعالى نشيد لتمجيد اله لا يقدر بشر على تشويه سمعته ولا يححو ذكره أيّ حدث عارض ولو بعد عدّة قرون.

مالك المخطوط يتدّخل من جديد

ما هي الظروف التي أحاطت بموت الاسكندر العظيم ؟ وما هي أسباب ذلك. الموت المفاجيء عندما بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة وهو متمتع بجميع قواه العقلية ؟

لم نعثر على جواب مقنع عن هذا السؤال. وأقول بكلّ تواضع أن الاسئلة الهامة المطروحة بخصوص حياته ومعاركه ومشروعاته بقيت بدون أجوبة موثوقة. لا شك أننا نجد عددا كبيرا من الاجوبة في الكتب الكثيرة التي تناولت حياته وأعماله بالدراسة والتحليل أو بالاحرى شوّهت حياته وأعماله. ولكن نفتقد الجواب الموثوق.

ويتوه كثير من الناس عند الحديث عن الاسكندر في خضمّ من التخمينات ويسبحون بخيالهم في شتى الاتجاهات.

ولو عثرنا يوما على « اليوميات الملكية » التي سجّلت تفاقم مرض الاسكندر يوما بعد يوم لانكشفت لنا الحقيقة وأعني بها الحقيقة المجردة. وهي الحقيقة الوحيدة التي ترفع الستار عن الاسباب الحقيقية لموت الاسكندر المقدوني.

سألنا مرّة أخرى الى كتاب أريان لازالة هذا الخلط. قد يدّعي بعض الناس أني أجنح الى الحلّ الايسر. ولكن ليست لديّ طريقة أفضل لأن مخطوط بابل ينتهي عندما يلاحظ الاسكندر أن أحاسيسه بدأت تضعف وأن العالم المحسوس انغلق في وجهه ليترك مكانه عوالم الاسطورة والحلم.

فإنّ أريان لا يقتصر على ابداء آرائه الشخصية بل يضيف اليها مجموعة من الاحتمالات توضح نوعا ما الاسباب التي أدّت الى موت الاسكندر الكبير في بابل وهو في سنّ الشباب.



نقد ذهبي عليه صورة الاسكندر ذو القرنين

ولذلك أعود الى ما كتبه صديقي أريان النيكوميدي وأنقل بشيء من التصرف الفقرات التي أوردت بعض الاجوبة عن الاسئلة الخطيرة المطروحة بشأن موت الاسكندر ابتداء من اليوم الذي قام فيه آخر مرة بتقديم القرابين للآلهة (أو بالاحرى للاله الواحد الفرد الذي لا يتجزأ) (وقد كان يهيئ تجليته في الكون كما لو كان ينتظر في أعماق نفسه اشراق عهده).

لقد نشر الاسكندر اللغة اليونانية فبلغت في انتشارها أقصى الارض. وقد كانت هذه اللغة وعاء لآراء الكتاب القدامى ولمعاني الرحمة التي أقى بها السيد المسيح.

امتزج الشرق والغرب في فكر الاسكندر وفي وجدانه وأصبح لا يفرق بين الشعب اليوناني وغيره من الشعوب بل يرى أن البشرية جمعاء هي شعب واحد. تلك هي الشرارة المقدسة التي أضاءت وأحرقت العباد والشعوب والأمم والافكار.

أقول عمدا أضاءت وأحرقت لأن الاحداث الجسام ذات الاثر البعيد تنير وتحرق فتصهر العباد والشعوب وتيسر الامتزاج والتآلف بين الافراد والجماعات. والأمر يختلف طبعا باختلاف تأثيرها في البشر وتأثر البشر بها. لا أريد أن أقص ما جرى ولا أن أصدر أحكاما بل أفسح المجال لرفيق الدرب مؤرخ نيكوميديا.

اليكم ما كتبه أريان في الباب السابع والأخير من « غزاة الاسكندر » عن موت الملك.

من هنا وهناك حول موت الاسكندر

كان متعبا جدّا لما أشرف على تقديم القرابين لآخر مرّة في حياته. وبعد أن أتمّ القيام بالطقوس الدينية التفت الى الضباط السامين المحيطين به على اختلاف درجاتهم واختصاصاتهم وأمرهم بالعودة الى بيوتهم والكفّ عن الظهور بالقصر. كانت هذه الكلمات التي خاطب بها الضباط السامين للجيش آخر أمر تفوّه به. وحمل الى قصره لأنّه عجز عن المشي. وكانت حالته الصحية سيئة للغاية. ولازمته حمّى عاتية جعلته عاجزا عن التلفّظ ولو بحرف واحد. ولكن الناظر الى تقاسيم وجهه يفطن بأنّه مازال يستطيع أن يميّز بين أقربائه.

وقد سجّلت «اليوميّات الملكية» تفاصيل كلّ ما جرى بمنتهى الدقة. وهي المرجع الذي أقتبس منه الآن ما سأورده من معلومات حول الظروف التي أحاطت بوفاته.

عندما بدأ نبأ موته ينتشر بصورة غامضة بين الناس هرع الضباط والجنود الى القصر في جموع غفيرة. وولجوا الأبواب عنوة. وهم عاجزون عن كبح الرغبة التي كانت تدفعهم الى رؤيته ولو ميّتا.

ولكن عندما دخلوا عليه لاحظوا أنّه مازال حيّا ولكنه فقد القدرة على الكلام. فكان ينظر الى جنوده وهم يمرّون الواحد تلو الآخر صامتين وهو لا يقدر على مخاطبتهم.

كان ينظر بحسرة الى أولئك المقاتلين الأشاوس الذين شاركوه المحن والانتصارات. وكانت نفسه تنوق الى مخاطبتهم ولكن لم يستطع التعبير عن ذلك الشوق الذي كان يهّزه الا بحركة لعينه يكاد لا يدركها الناظر اليه. وكانت حركة عينيه تعبّر عن مدى حبّه لرفاقه في القتال.

وسهر بعض أقربائه ليلة كاملة في معبد إله سيرابيس كما جرت به العادة في مثل تلك الحالات. كانوا يريدون أن يعلموا في تلك الساعات الحرجة هل أن الإله يوافق على نقل الاسكندر الى المعبد حتى يقوموا بمحضره بالدعوات والابتهالات للتعجيل بشفائه. ولكن رفض الإله طلبهم قائلاً :
- ليبق في مكانه فذلك خير له.

ولفظ الاسكندر بالنفس الاخير بعد ذلك بقليل. وربما كانت تلك حسن الخاتمة التي أشار اليها الإله.

ان أرسطوبولوس وبطليموس أوردوا نفس التفاصيل حول موت الاسكندر. ولكنهما يضيفان ما يأتي : عندما سأله أصدقائه وهو في النزاع الاخير عن خليفته أجاب بلهجة مريرة : « إلى الاقوى ».

تنبأ الاسكندر في جوابه المقتضب بأطماع خلفائه الجارفة التي سوف تفضي بسرعة الى تمزيق مملكته التي كوّنوها بعناء شديد بعد خوض حروب طاحنة لا تعد ولا تحصى.

راجت بين الناس كثير من الشائعات حول سبب موت الاسكندر السابقة لاوانها.

فمنهم من ادّعى أنّه مات من أثر سمّ ناوله اياه أنتيباتروس⁽¹⁸⁾. وقيل إنّ أنتيباتروس هذا تسلّم السمّ من يد أرسطوطاليس الذي حقد على الاسكندر منذ اليوم الذي ثار فيه نزاع شديد بين الملك وكالستان أودى بحياة هذا الأخير. ومنهم من اتّهم كاسندروس ابن أنتيباتروس. وقيل أنّه هو الذي أتى بالسمّ الى مدينة بابل.

ومنهم من وجّه التهمة الى إيولاس أخى كاسندروس لأن إيولاس كان يسقي الشرب في المأدبات فكان في امكانه أن يصبّ السمّ بكل يسر في قدح الملك. خاصة أنه كان حاقدا على الاسكندر لأنه غضب عليه غضبا شديدا قبل أيام في احدى نوباته العصبية وأهانته بالغ الاهانة.

واتهموا أيضا ميديوس خليل إيولاس. قيل أنّه كان شريكا في الجريمة. وهذه الاشاعة تعتمد على الأمور التالية : دعا ميديوس الاسكندر الى مواصلة مجلس الأنس في بيته. وعندما حلّ بالبيت قدّم ميديوس الى الاسكندر أنواعا متعدّدة من الخمر

فتناولها. وأحسّ بعد تناولها بآلام شديدة كانت فاتحة للاعراض التي قضت عليه. وقد تجرّأ أحد مذيعي هذه الشائعات المتضاربة الى أن ادّعى أن الاسكندر أحسّ بأنه لم يبق له أمل في الحياة فتوجه الى الفرات عازماً على الالقاء بنفسه في اليمّ ليغرق فيه. وكان يريد من وراء ذلك الانتحار المحجوب عن العيان أن لا يترك أثراً لموته حتّى يرسخ في أذهان الاجيال القادمة أن الآلهة رفعوه الى السماء وأنّه ابن أمّون حقاً. ولكن في آخر لحظة وفي الوقت الذي خرج فيه الاسكندر متسلّلاً من القصر قاصداً النهر لمحت زوجته روكسانا⁽¹⁹⁾ فتعرّضت له وصدّته عمّا عزم عليه. وأنّبها الاسكندر أشدّ التأنيب بعد ذلك قائلاً لها إنّها حرمته من مجد خالد لأنّها منعته من الالتحاق بالآلهة وهو من سلالتهم.

ليست هذه الاشاعات مقنعة تماماً. ومعاذ الله أن أطلب من القراء تصديقها. واذا أوردتها هنا وقدمتها كمجرد أقاويل فحتّى لا يظنّ أحد ممن سيقروا «غزاة الاسكندر» هذه أني أجهلها.

خاتمة موجزة وتكميلية لكاتب سيرة الاسكندر أريان النيكوميدي

لا أرى أنه ينبغي أن نعتبر الأخطاء التي ارتكبها الاسكندر أخطاء جسيمة. ولو أنه انساق الى ارتكاب هفوات في ساعات الغضب أو عندما يصاب بنوبات عصبية. ولو أنه افتتن بعبادات الأعاجم وطرق عيشتهم فتبناها أحيانا. كان حديث السنّ لما أقبلت عليه الدنيا وبدأت جميع أعماله تكُلّل بالنصر. ولا غرو أن المجد المبكر يدفع صاحبه الى القيام بمبادرات نائية. هذا بالاضافة الى سوء تأثير مستشاريه : ذلك الرهط الذين يحيطون عادة بالملوك العظام ويسلكون معهم سلوكا يصطنعونه. فلا يأتونهم الا بالانباء السارّة خشية إثارة غضبهم ويجتنبون اسداء النصائح النافعة لهم ويقتصرون على التملّق لهم عند مخاطبتهم. وأرى من واجبي أن أوكدّ هنا أن الاسكندر هو من بين الملوك الاقدمين الرجل الوحيد الذي برهن عن مروءته بندمه على ما كان يقترفه من الأخطاء وباعلانه عن استعداده للتكفير عنها.

ينبغي لمن يتسرّع فيقذف الاسكندر أن لا يكون حكمه عليه معتمدا على احصاء بعض زلّاته وأعماله المنكرة فقط بل على نظرة شاملة لسلوكه تفحص التواحي الايجابية والسلبية معا. وقبل اصدار حكم لا رجوع فيه ينبغي للناقد أن يقيس قدراته الشخصية بما قدر الاسكندر على تحقيقه من الأعمال الجليلة والانتصارات الباهرة. اذ إنّ الاسكندر استطاع أن يستولي على قارّتين اثنتين مديعا اسمه وناشرا أنباء بطولاته في جميع أصقاع العالم. وهذا أمر يفرضه الواقع ولا يستطيع أسلط النقد لسانا أن ينكره.

اذن ينبغي لمن ينقده متعجّلا ومتساهلا بذلك التساهل الذي يخفي الحسد أن يتفطّن الى الحدود المفروضة على أعماله التي تجعله في أغلب الحالات لا يقدر على اجتازها على الوجه الأتم.

ويحسن أن نشير الى حقيقة لامراء فيها وهي أنه لم يوجد في عهد الاسكندر
قطر أو مدينة أو حتى شخص لم تبلغه شهرة الرجل. وأنا أعتقد أن الاسكندر
أنجز تلك الأعمال الجليلة التي تثير الاعجاب بفضل قوة الاله الذي شاركه نوابه
وأعماله.

لا يوجد في الحقيقة رجل يقارن بالاسكندر ووهب نفس الامتياز ونفس
العظمة.

كان في واقع الامر إلها أو الخاتمة الثانية على لسان مالك المخطوط

هكذا انتهت «غزاة الاسكندر» حسب رواية أريان وهكذا انتهى مخطوط بابل. ولا أدري هل أحسنت صنعا عندما أذعته بين الناس لأن الاسكندر كان يتمنى أن يتلف حتى لا يطلع أحد على شخصية «الاسكندر الآخر» التي تبرز بين سطور النص. ولكن ما استطعت مقاومة الرغبة التي كانت تدفعني الى إطلاع غيري على هذا النص الذي أعجبت به كثيرا وصاحبني طوال الرحلة التي قمت بها في آسيا من أدناها الى أقصاها متجولا في الاصقاع التي كانت مسرحا رائعا لحياة المقدوني الطموح أو — اذا شئتم — للاسطورة التي نحتها نحن.

وعندما انتهيت من قراءة هذا المخطوط بعد أن أقدمت على اقتفاء خطى ذلك الرجل كالظل التائه في فضاء نوره الساطع أيقنت بأنه إله حقا.

أعيد فقط ذكرى احدى لحظات الشك التي ساورت الاسكندر عندما أثنى بالجراح في معركة من تلك المعارك العديدة التي كان يدفعه حماسه الفياض فيها الى التعريض بحياته. فلما رأى نفسه مطروحا كأبي جندي من جنوده المجندين جسّ كلومه وأحسّ بدم سخن يسيل بين أصابعه فالتفت الى هفستيون والى الخللان الذين كانوا يحيطون به وقال لهم بصوت مريّر :

— هذا دم ولا شك، وليس الذي يسيل إخورا⁽¹²⁰⁾. هذا أمر عجيب.

عجيب حقا لأن السائل الذي يسيل في عروق الآلهة هو الإحور.

لم تدم خيبة الأمل هذه طويلا وذلك راجع الى حسن طالع بل سرعان ما نسيتها لأنّ إيمانه بأنه إله تغلب على الدلالات المتناقضة التي توحى بعكس ذلك. اذن — وليكن ما سأبوح به الآن سرا بينا في هذه الساعة التي أنهي فيها

نسخ المخطوط — لا ينبغي أن يشك أحد منكم في أنه كان إلهًا ولا يليق بكم أن تنساقوا إلى تأييد تفكير منطقي سخيف يحاول دون جدوى استنفاص الأحداث الجسام التي تجري من حولنا.

كان الاسكندر انسانيًا يتصف بجميع صفات الإنسانية ولكن القوة الخفية التي كانت تسكنه سمّت به إلى مستوى الاسطورة لا في نظر شعوب يونان فقط بل في نظر جميع شعوب العالم.

لقد سبق أن قلت إن الأساطير تكتسب جمالها من محافظتها على نضارة شباب لا يزول. فالأساطير لا ينال منها الدهر أبدًا لأنها تجدد دائمًا كيانها. وهكذا وصلت إلينا أسطورة الاسكندر ولم تفقد ذرةً من بهائها.

إن وجه الاسكندر ولو كان منحوتًا في المرمر أو البرنز يشعّ بقوة تفوق القوى البشرية. فهي قوة تخلب الالباب أو تبعد الشرور وهي شبيهة بتلك القوى النابعة من الاقنعة السحرية التي صادف أن شاهدها بآسيا أثناء حفلات دينية سرية تقام باقليم نيبال⁽¹²¹⁾. فهذه الاقنعة تخلب لبّ من حدّد إليها النظر بمفعولها السحري. حقًا إن صورة الاسكندر تحتوي على نفس القوة المخزونة في الاقنعة السحرية. هذا ما أكّده لي كثير من حكماء الهند في بنارس مدينة الهندوس المقدسة وكثير من حكماء التبت⁽¹²²⁾.

عُثرت في «المنتخب الشعري الاسكندراني البلاطي»⁽¹²³⁾ على قطعة شعرية قصيرة لبوسيديوس يمدح فيها ليسيبوس الذي خلف لنا أروع تماثيل رأسية للاسكندر وأقربها لصورته الحقيقية :

تحيّة لك يا ليسيبوس المبدع الموهوب من الآلهة.

يا من كانت له سكيون⁽¹²⁴⁾ موطنًا.

وجه الاسكندر الذي نحتّه من البرنز

يرسل الأشعة.

ذعر الفرس لما رأوه

ففرّوا

كما يفرّ الثيران

أمام الاسد الضاري.

إذا قدر هذا الوجه على اخضاع جحافل الفرس فأنه قدر أيضا على تحقيق مأثرة أعجب وأبهى وهي اخضاع الزمن بأبعاده الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ومحاه محوا ليعوّضه بزمن حاضر ذي بعد واحد لا يحول.

ان الحكاية الشعبية الساذجة التي تقصّ قصة السيدة قرقونا التي تريد أن تتأكد هل أن الاسكندر مازال حيّا ومازال يحكم هي رائجة الى الآن في جميع الاقطار وحتى على قمم جبال الهندوكوش المنيعه.

وهكذا نشأت الاسطورة وانتشرت في اللحظة التي انتهت فيها سلسلة الاحداث التاريخية التي منحت للاسكندر الخلود.

شاهدت بنفسي أن أسطورته مازالت حية اثناء تلك الرحلة الطويلة التي انتقلت فيها من الباكستان الى أفغانستان ومن أعماق الهند الى تلك القرية النائية المنعزلة في إقليم نيبال التي تسمى كانكاي ومن ايران حيث زرت أنقاض مدينتي برسبوليس وباسرقادس اللتين تعيدان ذكرى أجداد الفرس الى سوريا ومدنها الهلينستية.

وحدثني كثير من الناس عن الاسكندر الكبير أثناء تلك الرحلة الطويلة. وادّعوا أمامي بكل ثقة أنهم من سلالة وأنهم أحفاده. وأريد أن أشير الى أنهم كانوا جميعا أناسا بسطاء وأميين يتعاطون الزراعة أو الرعي ولم يتجاوز اطلاعهم على الدنيا حدود المنطقة المحيطة بقراهم ومنازلهم التي يعملون فيها لاكتساب قوتهم.

لم تكن لديهم أية معلومات تاريخية وقد لقنوا في أحسن الحالات مبادئ القراءة والكتابة بلهجتهم المحلية. وإنما كانوا يتحدثون عن الاسكندر بكلام فصيح ومؤثر رغم بساطته كما لو كان البطل أقرب الاقربين اليهم. وكان فريق منهم يدّعون أن أسلافهم الأولين عرفوا الاسكندر وقاتلوا في صفوف جيشه.

وصاحبني صديقي أزار محمود الموظف بالمركز السينمائي الوطني بكراتشي في هذه الرحلة. وكان لي دليلا ومترجما. فيسر لي الاتصال بأولئك الناس البسطاء الذين يتكلمون بلهجات محلية تتغير بتغير المكان.

وساعدني بكل صبر حتى أستطيع التحدث مع «أحفاد» الاسكندر الكبير. وأقر لي جميعهم أو أغلبهم بأن آباءهم وأسلافهم هم الذين غرسوا في أنفسهم اقتناعهم بانتسابهم الى الاسكندر وإنهم سيغرسونه بدورهم في نفوس أبنائهم وأحفادهم.

أُكِّد لي شيخ نوتي باكتساني يحمل الركاب والبضائع في زورقه على نهر الهندوس (السند) الذي يجري قريبا من ثاتا المدينة المقدسة أن أجداده قدموا من جزيرة كريت (إقريطش). غادروا جزيرتهم مع أمير البحر نيارخوس الذي صاحب الاسكندر. واستوطنوا في قرى تلك المنطقة على ضفة النهر بعد نهاية حملة الاسكندر. وكنت أستمع اليه وأنا مبهور. كان يحدثني عن كل ذلك بلهجة طبيعية كما لو كان يقص علي أحداثا قريبة في الزمان شاهدا بعينه. وتوجه الى القنطرة الكبيرة التي تصل بين ضفتي النهر في مكان قريب من مصبه في البحر. ووقف عند ضفة النهر ونظر الى مياه المضطربة التي يعلوها الزبد وقال بلهجة طبيعية :

— في هذا المكان بالذات أنهى «اسكندر سيام» أي الاسكندر الكبير حملته. ونزل عدد كبير من جنوده في هذه البقاع واستوطنوها. وكان أجدادي من بينهم. وكانت عربات تجرها الثيران تعبر النهر سالكة القنطرة. وكانت مثقلة بحمولتها عليها نسوة وصبية وخرفان. وكان الضجيج الذي تحدثه وهي تمر على القنطرة يصمم الآذان. فلم أعد أسمع ما يقوله الشيخ النوتي. ولكن هل من المفيد أن أعلم أشياء أخرى ؟

كفى أنني علمت منذ تلك اللحظة أن أسطورة الاسكندر بقيت حية هنا يتعامل معها الناس بصورة طبيعية كما لو كان الاسكندر معاصرا لهم. لم ينل من صورته الدهر مهما طال الزمان. قد حافظت أصقاع آسيا المترامية الاطراف التي قطعها الاسكندر بسرعة البرق على أسطوره واضحة السمات حاضرة حضور الواقع المعيش تتحدى المنطق المألوف.

أذكر لكم من بين ما احتفظت به من عديد الصور والذكريات التي تزدهم في ذاكرتي منذ قمت بذلك البحث الطويل في آسيا طوال رحلة تعددت مراحلها حادثتين اثنتين تدلان بكل وضوح على أن الاسكندر الاله حي لا في طيات الكتب الجامدة فحسب بل أيضا في قلوب الرجال الدافئة.

في فضاء فسيح تحرقه الشمس فيقسو نشاهد ربوة مستديرة عريضة القاعدة دقيقة الذروة تحيط بها حقول مزروعة. وفي تلك الحقول فلاحون باكستانيون

منحنون يفلحون الأرض التي هي مصدر رزقهم طوال حياتهم ونصيهم في هذه الدنيا. وتحرقهم شمس قاسية ويكسوهم العرق وتبدو عليهم علامات التعب الشديد. وقرىبا منهم صبيان يلعبون بالتراب ويطاردون جمالا صغيرة تعدو أمامهم. فاذا التحقوا بها ركبوها وابتعدوا بها يتبعهم سحاب من التراب المثار.

كنت بقرية مانكياالا على بضع كيلومترات من مدينة تاكسيلا⁽¹²⁵⁾. وكانت تلك مرحلتي الاولى بعد الاكتشاف المثير الذي بهرني في تاكسيلا المدينة اليونانية العتيقة عندما زرت متحفها : لقد احتفظت تماثيل بوذا المودعة في المتحف على سمات وجه الاسكندر الكبير وعلى نظرتة الحادة التي تعبر عن عزمته الصماء. أتيت الى مانكياالا تقودني اليها أسطورة. قيل إن الاسكندر الكبير دفن تحت هذه الربرة الواقعة وسط هذا السهل الفسيح أوفى رفاقائه. ذلك الذي صاحبه في جميع معاركه وغزواته. وهو حصانه بوكيفالوس. ويسمى أهالي المنطقة ذلك القبر العالي «ستوبا».

لا نجد في التأريخ ما يؤكد هذا الزعم. ومعنى ذلك بكل بساطة أن للاسطورة تأثيرا يفوق تأثير التأريخ. وأن الزمن اذا طال عمق ذلك التأثير ورسخه في النفوس. واتجهت صعبة الدليل الباكستاني أزار محمود الى الفلاحين الذين كانوا يعملون بجهد تحت الشمس المحرقة وحييناهم وردّوا التحية بحرارة على عادتهم. يتسمون وينحنون قليلا برؤوسهم ويصافحون ممسكين اليد بين الراحتين. وكانوا يتكلمون لغة هي من أقدم لغات الهند.

ودعونا لننزل ضيوفا عليهم بتلك البساطة واللباقة في الاستضافة التي يتحلّى بها أيضا فلاّحو موطني. فالتمسنا منهم العذر نظرا لضيق الوقت. وبيّنت لهم سبب زيارتي لمانكياالا عن طريق الدليل.

وأشرق وجه أكبر الجماعة سنّا عندما علم أنّي «يافاني» أي يوناني (إغريقي) وأخذ يتحدث بأسهاب محبّب عن مرور «اسكدرسيام» بمانكياالا. وأشار بفخر الى «الستوبا» التي دفن فيها بوكيفالوس.

وسألتة قائلا :

— هل قرأت هذا الخبر أو هل حدّث عنه ؟

قال ببساطة :

— لا أعرف القراءة. ولكن جميع أهالي قريتي يعلمون ذلك منذ طفولتهم.
وكان جدّي ملماً بكثير من التفاصيل. وكان الناس يغنون أغنية عن
«اسكدرسيام» وبوكيفالوس.

والتف حولنا الاطفال تاركين ألعابهم وكافين عن مطاردة صغار الجمال
وحققوا فينا النظر بفضول.

وسألهم الشيخ عن «اسكدرسيام». فأجابه كبارهم بأنهم سمعوا عنه أخبارا
غامضة وأنهم يعرفون ما تحويه الربوة ويعلمون من هو بوكيفالوس.

وعمّ الحقول التي داعبتها آخر أشعة الشمس المحمّرة سكون يبعث الطمأنينة
في النفوس. وتعالّت فجأة جلبة وضوضاء وسمعت صهيل خيل ودقّ حوافر على
الأرض وصيحات مقاتلين. ولحت من وراء الربوة على خط الافق الذي امتزج
فيه لون الورود بلون الذهب شبح جنديّ يحيط به الثور من كل جانب.

وفي تلك الساعة التي تفصل بين الليل والنهار استعاد ذلك الفضاء الريفي
الهادئ بعده التاريخي !

أما الصورة الاخرى التي تشير الى أنّ الاسكندر الاله مازال حيّا بيننا فأتني
التقطتها في مدينة هدا.

هدا مدينة عتيقة مقدّسة تقع في وسط أفغانستان قرب إتزيلايات.
حارس الآثار بها نورستاني. وعندما علم ما هو موطني دمعت عيناه ومدّ ذراعه
مشيرا بتأثير الى الجبال التي كانت تبدو باهتة في أقصى سهول هدا وقال :
يختفي اقليم نورستان داخل تلك الجبال. نحن من أصل يوناني وكان أجدادنا
جنودا مقدونيين أتوا مع «اسكدرسيام» ونزلوا هنالك واستوطنوا بتلك الارض.
فسألته قائلا :

— كيف تستطيع أن تجزم بذلك ؟

فأجابني جوابا لا يحتمل المعارضة قائلا :

— هي الحقيقة بعينها. فعليك أن تنزل بقطرنا وتعيش معنا لتقتنع بما أقول. كنّا
الى بداية هذا القرن نعبد الآلهة اليونانيين القدامى. ولكن أرغمنا على التناكّر
لديننا واعتناق دين جديد. وإنما حافظ شيوخنا — أعني بذلك كبارنا سنّا — على
عقيدتهم الاصلية.

كان رجلا من عامة القوم يرتدي ثيابا رثة قد عضته الأيام مثل أغلب سكّان ذلك القطر فتركته فقيرا معدما. ولكن كان أيبّا كريما. فلما مددت يدي لاناولة بعض النقود جزاء مصاحبتة لي ليدلّني على آثار هذا العتيقة لم يقبل الهبة قائلا : - أنتم أول من أتانا من شعب يونان. فاستقبالكم بالحفاوة التي نقدر عليها من أوكد الحاجيات.

سأقصّ عليكم من جديد قصة الاسكندر. مات قائد عسكري وحلّ مكانه إله.

وحضور ذلك الاله يثير دائما تأويلات متناقضة مثل حضور الآلهة الآخرين. أصبح ذلك الاله ذريعة للتجار والاستغلال والانحراف. شأنه شأن سائر الآلهة.

ولكن كان إلهها على كلّ حال إلهها في نظر فلاح مانكيالا البسيط الذي يقيم قريبا من تاكسيلا وفي نظر ملايين من العباد يقطنون في أعماق آسيا ويقدرّون الى اليوم على التعلّق بالاسطورة بروح فيّاضة بالوجد الصوفي رغم فقرهم المدقع وجهلهم.

كان إلهها أيضا في نظر بعض العالقين بطقوس التطهّر في مياه نهر القنج المقدسة. يعومون في النهر ويطفو من حولهم ما طرح فيه من رماد ومن قطع محروقة من لحم البشر أتي من محارق الجثث المكشوفة التي لا يقيها سقف. وينتظر أولئك أيضا «اسكدرسيام» لأنهم يعتقدون أن الاسكندر لم يمّت. ان تلك القوّة البشرية العجيبة التي تعبق بعبير شذّي لم تتلاش ولم تضمحلّ. لم يترك لنا أريان وهو المؤرخ الدقيق أي خبر عن مكان ضريحه ولم يقل لنا أين نقلت حثّته في حين أنّه يؤكّد على تفاصيل عديمة الاهميّة منقولة من الكتب جمّعها بعناية حتى لا يقال عنه إنّه لم يطلّع على جميع المراجع.

جميع من تطرّقوا الى هذه المسألة غطّوها بغشاء من الغموض والخلط. ولم يعثر أحد على قبره أو على أثر لقبر دفن فيه ثمّ أخلي من الجثّة رغم الابحاث الكثيرة التي أجريت للعثور عليها. لو قرّر القواد الذين تقاسموا مملكته أو خلفاءهم الذين أتوا بعدهم اخراج الجثّة من القبر لعثرنا على أثر لذلك أو دلالة.

نحن نعلم أن العلماء عثروا على كثير من الآثار التي ترجع الى العهد الهلنستي فكيف لم يهتدوا الى اكتشاف أهم أثر لذلك العهد وهو قبر الرجل الذي يمثل فاتحة ذلك العهد الجديد.

لا جواب عندي ولا أحاول ولوج ذلك الباب السري الذي يشبه تماما الباب الذي ولجه الاسكندر في معبد صحراء مصر. وإنما لازمني ذلك التساؤل طوال الرحلة الى أعماق آسيا بحثا عن حقيقة الاسكندر.

إن المنطق لا يقبل الأمور الخفية بل يرفضها لأنها فاقدة في منظره لكل أساس ولكن الموت يعيد للسرد دوره المجهود وبه حياة خفية تكسبه بعدا آخر هو بعده الحقيقي.

وإن إله بابل عندما كتب هذا المخطوط في الأيام الاخيرة من حياته ترك لنا مفتاحا نستطيع أن نفتح به بابا آخر. أعطاني تزيلا ذلك المفتاح في اليوم الأخير من اقامتي ببابل عندما سلم الي هذا المخطوط. فحملت معي لما غادرت المدينة هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن. وسلمت المخطوط لمختصين حتى يجمعوا أجزاءه ومختصين آخرين ليقروا ويفكوا رموزه. ولكن المخطوط بقي رغم ذلك وثيقة تحتوي على فراغات وفقرات مشوشة. فأنا أقدم لكم هذه الوثيقة كما هي جوابا عن الاسئلة المطروحة ومفتاحا لما استغلق من الأمور.

الى من ينبغي أن يسلم هذا المفتاح ؟

يسلم الى الذين يعرفون أين يوجد الباب السري ويؤمنون بوجوده ويشتاقون الى رؤيته ويخشونها في نفس الوقت.

أنقل الآن شذرات من الجزء الأخير من المخطوط وأهديها بنفس الحمية التي جعلتني أنبذ المؤلف من العقائد الى كل من أنصت الى صوت الاسكندر وهو ييوح بمكنون نفسه.

الدورة الاخرى

قال لي حكماء الهند الذين قابلتهم في مدينة تاكسيلا :
 - أتيت الى هنا. وحاربت. وجُرحت وانتصرت. ولكن لم تغيّر أي شيء. ولن
 يتغير أي شيء في هذه الدنيا.

فأجبته قائلا :

- نعم. أنا أعلم ذلك. ولكن الكفاح له وجود. وذلك الوجود يتجاوزنا
 ويفوقنا. كم اشتقت الى استكشاف المحيطات المترامية الاطراف. وكم تاقّت نفسي
 الى بلوغ أقصى الارض والانتفاء الى أبعد نقطة يقدر الانسان على بلوغها. فاذا
 لم أبلغ النقطة فعزائي أنني كافحت.

فقال لي الحكماء :

- وما فائدة ذلك الكفاح ؟ إن الذين أنقذتهم من البلايا سيبدّدون إرثك يوم
 وفاتك ويبدّلون كل ما في وسعهم لازالة ذكرك ومحو اسمك من أذهان الناس.
 إذن لماذا تكافح ؟

- أكافح في سبيل الاله الواحد حيثما يوجد. وأكافح أيضا محبة للكفاح.
 ان أمّي أولمبياس هي التي كشفت لي عن ذلك المجهول البعيد الغور الذي
 نحتضنه في أنفسنا. فغصت فيه فوجدته أقسى وأخوف من صحراء قدروسيا ومن
 لهيبها. ولن يقدر أحد على فكّ لغز ذلك المجهول ولذلك لن يستطيع أحد ادراك
 حقيقتي. لماذا أطلق عليّ رسل اليونان لقب «الاسكندر الكبير» عندما قدمت
 وفودهم الى بابل محمّلين بآيات الولاء وتيجان الذهب. لن يستطيع خلفائي ولا
 الأجيال القادمة فهم الوازع الذي دفع مجموع الشعوب اليونانية الى احلالي تلك
 المنزلة السامية. سيبقى ذلك الاعتراف العارم بمنزلة تفوق منزلة البشر لغزا سيحاول

فكّه الباحثون والمؤرخون وكذلك الكتاب الذين يخدعهم خيالهم وذلك باقتراح مختلف التأويلات. وسينتهي كل ذلك الى تزييف شخصيتي.

فالمجهول الذي لا تدرك أغواره ساكن فينا ومسيطر على ما يحيط بنا. ولا عجب أن يغيّر ملامح الشخصية في نظر من لا يستطيع ادراك كنهه ومعناه. سوف أعود. وسوف أعبر عتبة باب إشتار ولكن في الاتجاه المعاكس. وأقوم من جديد بنفس المغامرة من بدايتها الى النهاية. سوف يؤمسون لي ويمجدونني ثم يخونونني.

لقد جرحت مرات كثيرة في حياتي وان أنكى جرح هو جرح الخيانة ولكنّ الخيانة أمر لا مفرّ منه. شأنها شأن الموت. فهي ملازمة للشر الفاني وللآلهة الخالدين أيضا تتبعهم كالظل طيلة سيرهم.

سوف أعود. وسوف يستقبلني الناس في موكب بهيج حاملين جريد النخل. وأطوي من جديد نفس المسيرة المحددة منذ الأزل والتي تنتهي في الموعد الموعود أي عندما أبلغ السنة الثالثة والثلاثين من عمري.

سوف أنشئ عالما جديدا لجميع البشر مهما كانوا وحيثا كانوا. ويلهج الناس بذكري ثم يهدمون ما أنشأت مشنّعين باسمي. ويفنى كل ما أنجزته الى الأبد. ذلك ما كتب للناس جميعا : المجد والحنّة والموت والنشور.

ببابل في شهر دايسوس.

كتب بيد الاسكندر بن فيليبوس أو أمّون.

(يقول مالك المخطوط إن شهر دايسوس يقابل في مقدونيا شهر يونيو).

توفي الاسكندر يوم 28 من شهر دايسوس سنة 323 قبل ميلاد المسيح. ولا ريب أن الاسكندر كتب هذا المخطوط قبل موته بأيّام قليلة أي قبل بداية شهر دايسوس. وقد يكون الحانب الاكبر من المخطوط قد وضعه الاسكندر في صائفة سنة 322.

ويحقّ لمن يشك فيما أدّعه أن يتمسك برأيه. فالاسكندر والمسيح وسقراط لم يتركوا لنا آثارا مكتوبة. هذا ما تعلّمناه عنهم. وهذا ما نعتقده وبرّدده طبق تقاليد راسخة ولدت عددا من الاساطير وكثيرا من التعاليم الموثوقة أيضا. أنا لا أحاول تفنيد ذلك المأثور ولكن أرفضه. ذلك أنّ عدم عثورنا على أي أثر مكتوب

لهؤلاء ليس بحجة قاطعة على أنهم لم يكتبوا شيئاً. ونحن نعلم أن أهمّ مؤلفات القدماء سواء أكانوا يونانيين أم من شعوب أخرى ضاعت وأتلفت عمداً. وإذا نجحت بعضها من الضياع أو التلف مثل مخطوطات البحر الميت البالغة الأهمية وعثرنا عليها أو تعثر عليها الأجيال القادمة فلمجموعة ظروف مواتية شدّت عن القاعدة العامّة. وأنا أودع هذا التأليف بين يدي كل من يبغى الاطلاع على «الاسكندر الآخر» من وراء الاسكندر المحطّط الذي نطلّع عليه في الكتب المدرسية وفي كتب التاريخ المزيف.

الاسكندر هو من بين آلهة العالم القديم الاله الوحيد الذي بقي حيّاً بيننا الى يومنا هذا. وقد حافظ على نضارة الشباب ورونق الجمال بعد دخوله دار الخلود من بابها السريّ.

الهوامش

- (1) بينارس : احدى مدن الهندوس المقدسة تقع على نهر القنح بالهند.
- (2) الاسكندر الكبير (356 - 323 ق.م.) اسمه باليونانية ألكسندروس وعرفه العرب باسم الاسكندر أو الاسكندر المقدوني أو الاسكندر ذي القرنين. هو ملك اقليم مقدونيا الواقع على الحدود الشمالية لبلاد اليونان. ولذلك لقب بالاسكندر المقدوني.
- استطاع أبوه فيليبوس الثاني في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أن يسيطر بموذه على كامل البلاد اليونانية بفضل حزمه ودهائه وشجاعة جنوده المقدونيين وانصيابهم وأن يحصل بعد حروب عديدة ومطقرة ومساووات سياسية ناجحة على تجمع اليونانيين حوله الراصي منهم والمكره لقيادتهم في الرحف المرمع شته على المملكة الفارسية العظيمة التي كثيرا ما هزمت اليونانيين وحلفاءهم من الشعوب غير اليونانية مثل شعب مقدونيا ودمرت مدنهم وأحرقت حقولهم خاصة أثناء الحروب الميدية التي اندلعت بين الفرس واليونانيين في الثلث الأول من القرن الخامس قبل الميلاد.
- واستفاد الاسكندر المقدوني من هذا الرصيد الذي كوّنه أبوه. ونفذ المشروع الذي أعد له فيليبوس العدة وحشد له الجيوش ولم يستطع تففيده اد عاجلته الميعة.
- اعتلى الاسكندر عرش مقدونيا خلفا لآبيه سنة 336 ق. م. وكان عمره آنذاك عشرين سنة بعد أن صاحب أباه في عزوانه ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمره.
- وبعد أن قضى سنتين في احماد الثورات التي اندلعت في بلاد اليونان وخارجها بعد موت أبيه قاد ابتداء من سنة 334 ق.م. الحملة العسكرية الكبرى التي أطاحت بمملكة فارس وأقطار أخرى خارج بموذا وأسس امبراطورية واسعة تشتمل اضافة الى مقدونيا وبلاد اليونان على آسيا الصغرى (الأناضول) وبلاد الشام وفلسطين ومصر وبلاد ما بين الرافدين ويران الحالية وافغانستان والتركستان وإقليم السند من شبه القارة الهندية. وذلك في مدة وجيزة لا تتجاوز احدى عشرة سنة (334 - 323 ق.م.). وكان سنّه عندما زحف على مملكة فارس العظيمة اثنتين وعشرين سنة. فاستحق بذلك لقب الاسكندر الكبير الذي أطلق عليه.
- ولد الاسكندر سنة 356 ببيلا العاصمة الجديدة لمقدونيا التي انتقل اليها أبوه فيليبوس فحلفت العاصمة القديمة أيقاي.

كان اليونانيون يعدّون أباه وقومه من أعاصم أوروبا لأنهم لا يتكلمون باللغة اليونانية ولكن بلغة قريبة منها. ولكن موقع قطرهم المجاور لبلاد اليونان جعلهم متأثرين بالحضارة اليونانية معجبين بها يحاولون أن يتسبوا بها. وكان الملك فيليبوس من بين القلائل الذين يتكلمون باللغة اليونانية وقد عاش خمس سنوات بمدينة ثيباي (طبية) وبعن انتباهه وقومه للحضارة اليونانية التي كان معجبا بها. وقد أدّى نه ذلك الايمان

الى تبني قضايا الشعب اليوناني والى حرصه على جمع شملهم بعد قرن ونصف قرن من الحروب الأهلية وتواطؤ بعضهم مع العدو العارسي الذي كان يتدخل دائما في نراعاتهم لضعافهم وكسر شوكتهم وبغري بعض قادتهم بالمال.

وكانت أولمبياس أم الاسكندر أميرة من إقليم إبيروس وهو إقليم «أعجمي» أيضا محاور لمقدونيا. عرفها أبوه أثناء زيارة لمعد «الكبير» بحزيرة ساموثراكيا حيث تقام طقوس سرّية عمادها الغناء المقدس الذي كان منتشرا في الادبيات القديمة. وكانت الأميرة الابرية تقضي فترة تعدد وخشوع في ذلك المعبد. فتزوجها فيليبوس رغم معارضة صحبه لأنهم كانوا يعتبرونها بغيا. وكانت تلك الأميرة التي أصبحت ملكة مقدونيا ذات طبع مندفع وهائج الى حد الهذيان والهوس تؤمن بالخرافات والاساطير الى حد أنها كانت تعتقد أن ابنها الاسكندر هو ابن الاله المصري أتون الذي له مركز بؤعات في واحة سيوة في الصحراء الغربية لمصر. وكانت محورة أيضا بانتماء أسرتها المالكة الابرية الى البطل اليوناني أخيلوس الذي أبلى البلاء الحسن في حرب طروادة ومجده هو ميروس في إليادته. في حين أن زوجها فيليبوس كان يفخر بانتماء أسرته المقدونية المالكة الى البطل اليوناني الاسطوري هيراكليس.

كان يتارع الاسكندر تأثير أبيه الذي لفته طرق مواجعة الأمور مخزم لتدليل جميع العقبات كحده البطل المغوار هيراكليس وعلمه كيف يعالج الأمور بوضوح رؤية وواقعية ومكر ودهاء وتأثير أمته التي زرعت فيه ميله الذي صاحبه طول حياته الى العيبات والمواراة وعقيدته الراسخة بأنه إله على الأرض لا يغلب ولا يقهر لأنه حمل رسالة كوية.

بررت مواهبه في عهد مبكر حيث كان يحيد ركوب الخيل ولا يهرب في ساحة القتال بل له صولات مزج فيها بين اندفاعه الحيلبي واحكام خطط المحوم الذي تعلمه عن أبيه. وكان يشارك أباه في الغزوات على رأس سلاح الخيالة. كان بجانب أبيه في معركة خيروي الشهيرة التي هزم فيها فيليبوس اليونانيين المتحالفين وأخضعهم لسلطانه (338 ق. م).

وحرص أبوه على أن يحصل ايه على تربية عالية. فدعا الفيلسوف أرسطوطاليس الى مقدونيا وأنزله قصر ميارا الملكي وكلفه بتعليم ابيه ومجموعة من أقرانه من بينهم صديقه الوثقي ورفيق الدرب هفستيون. قضى مع معلمه الكبير أرسطوطاليس ثلاث سنوات فقط. حاول الفيلسوف أثناءها كسب جماع ذلك الشاب المدمع المتحمس الذي تعروه أحيانا حالات من الهوس «الصوفي» لفته إياه أمه أولمبياس الأميرة «الاعجمية». علمه الفيلسوف اليوناني التعلب على نزوات النفس والاعتدال في السلوك وتغليب العقل على العاطفة وحب الاطلاع على أسرار الطبيعة والتحليل العلمي الموضوعي. وجميعها قيم يونانية متحضرة متنت في نفس البطل الشاب شعوره بالانتماء الى الحضارة اليونانية. وساعدته على تبني قضايا الشعب اليوناني عن قناعة. وذلك ما يعلل تفضيل الاسكندر للثقافة اليونانية على سائر الثقافات والجهد الذي بذله لنشر اللغة اليونانية في جميع الأصقاع التي فتحها حتى تكون لغة الخطاب لجميع الشعوب التي انصهرت في الامراطورية العالمية التي طمح الى إرساء قواعدها. وذلك ما يعلل أيضا اصطحابه في حملته الكبرى لعلماء يونانيين من جميع الاختصاصات في ذلك العصر مهمتهم تجميع المعلومات النافعة عن جغرافية الاقطار التي يقع احتلالها وعن المسالك ومحاري الانهار وشواطئ البحار وعن النباتات والحيوانات. وكان يرسل أرسطوطاليس بانتظام ويرسل اليه عينات من النباتات وبعض الحيوانات النادرة.

والى جانب تلك التربية الأخلاقية والعلمية التي اجتهد أرسطوطاليس في تلقينها لتلميذه نمت الاستاذ ثقافة تلميذه الادبية ودوقه الحمالي وذلك بتدريسه ملحمة الاياداة التي كان يحذ فيها الأمير الشاب أبطالاً

يونانيين قد يقتدي بهم. وقد حافظ الاسكندر على نسخة للزيادة مصححة من طرف أرسطوطاليس طيلة حياته. كان يرجع اليها باستمرار ويضعها كل ليلة تحت رأسه مخاف سيغه عندما ينام. لما اغتيل فيليبوس سنة 336 ق. م جلس الاسكندر خلفا له على عرش مقدونيا. وكان عمره آنذاك عشرين سنة.

وشق شعوب يونان عصا الطاعة في وجه الملك الشاب للتخلص من التبعية التي فرضها عليهم أبوه. فاندلعت الثورات في كل قطر فقاومها الاسكندر بكل حزم متنقلا على رأس جيشه من مكان الى آخر طاويا مسافات شاسعة بسرعة هائلة حتى هزمهم جميعا.

واحتل معتمدا على مدينتي كورنث وغيثا فائدا أعلى لهم وحاميا لأوطانهم مدعاهم الى عزو فارس مثلما دعاهم أبوه. فوافقوه جميعا على ذلك.

ولكن مدينتي ثيباي (طيبة) وعاصمة إقليم بويوتيا نقضت العهد بإيعاز من مدينة أثينا فحاصر الاسكندر طيبة واحتلها وسواها بالارض وقتل أهلها ووسى بساءها وأطفالها وباعهم في أسواق العبيد حتى يزل الرعب في قلوب مواطني أثينا وجميع شعوب يونان. ولم يمضِ أثينا سوء.

وفي ربيع سنة 334 ق. م. اجتاز البحر عبر مضيق الهلّسبون (الدردانيل) الى آسيا الصغرى (الأناضول) التابعة لمملكة فارس على رأس جيش من المقدونيين واليونانيين من مختلف الاقاليم يعدّ خمسة وثلاثين ألف مقاتل. وزار موقع إيون عاصمة طروادة وتخلّى أنه يعيد ملحمة الإلياذة.

وأرسل إليه ولاية الفرس في المنطقة جيشا فهزمه في معركة حرت على ضفة هر قرائيكوس من إقليم طروادة (334 ق. م.).

ثم اتجه الى سرديس عاصمة إقليم ليديا ومقرّ والي الاناضول الفارسي وفتحها ثم فتح المدن اليونانية الواقعة على ساحل الاناضول الخاضعة لملك فارس.

ثم توغل في الجبال في اتجاه الشمال الشرقي الى أن وصل الى مدينة أنكورة (أنقرة الحالية) ثم انحدر جنوبا وعبر مضيق كيليكيا ودخل إقليم سوريا.

وفي سوريا اعترضه داريوس الثالث كودومان ملك الفرس بمكان يسمى إسّوس على رأس جيش عظيم قوّي العدّة وافر العدد. وكان أول لقاء له مع ملك الفرس. فألحق الاسكندر بجيش الفرس هزيمة بكراء. وفرّ داريوس في ثلة قليلة من جيشه تاركا أمّه وزوجته وبناته في قبضة الاسكندر. واستولى هذا بعد معركة إسّوس على كنوز الملك التي كانت تنتم للجيش في تنقلاته والتي كانت مودعة آنذاك في دمشق قاعدة الجيش قبل معركة إسّوس. جرت تلك الاحداث في سنة 333 ق. م.

وواصل الاسكندر سيره نحو الجنوب على ساحل سوريا. وحاصر مدينة صور مدة ستة شهور حتى احتلها (332 ق. م.).

لماذا واصل الاسكندر احتلاله للموانئ الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ابتداء من ساحل الاناضول بدل أن يلاحق ملك الفرس المنهزم ويتوغل في تراب المملكة الفارسية ؟

يبدو أن الاسكندر كان حريصا على الاستيلاء على الموانئ الآسيوية لمنع الاسطول الفارسي بقيادة ممون الرودي من استعمالها ولحلا يطمع اليونانيون الماهضون له في حشد أساطيلهم وتنظيم حملة ضده بالتعاون مع الفرس تتبعه وهو متوغل في أرض فارس وتجعله واقعا بين خطرين أحدهما أمامه والآخر ورائه كان يعلم أن أعداءه في بلاد يونان كثيرون وأن مشاركة اليونانيين في الحملة مشاركة رمزية لأن أكثرية الجد كانت من المقدونيين. قهر الاسكندر اليونانيين فخدموا وقلوبهم متأججة حقدا وهم له بالمرصاد. ناهيك

أد جيش الاسكندر لما دخل دمشق للاستيلاء على كنوز ملك الفرس وحد بها رسلا من اسبارتا وأثينة أتوا للتصاهم مع الفرس للكيد بالاسكندر.
ثم احتار الاسكندر الى مصر بعد أن احتل في طريقة عزة واستولى على مصر كلها وبزل بعاصمتها مفس وأطلق عليه الكهنة لقب مرعون ودان له الشعب المصري ورار معد الاله آمون ومركز نبوءته نواحة سيوه في الصحراء العربية.
وسى على ساحل مصر مدينة حديدة سمّاها باسمه وهي الاسكدرية. وكان العرض من بناء هذه المدينة تعويض مدينة صور التي كسر شوكتها مدينة حديدة تستولي على الطرق التجارية التي كانت تسيطر عليها صور وبغشاه الفينيقيون.

ثم غادر مصر واتّجه مشرقا الى سوريا ثم العراق. وعبر الفرات ثم دجلة قرب بيوي عاصمة الاشوريين القديمة التي تقع عبر بعيد من مدينة الموصل الحديثة.
واعترضه داريوس ثانيا شرق دجلة في أرض فارس. وحررت بين الجيشين معركة طاحنة في سهول أربيل في مكان يسمى قوقملا (مرعى الجمال). هانزم داريوس هزيمته الثانية (331 ق.م).
واحدى الاسكندر حوبا فاحتل مدينة بابل ثم اتّجه حوبا شرقا نحو مدينة السوس من إقليم خوزستان وهي إحدى عواصم ملوك الفرس الاحميين الثلاث (العاصمتان الاخريان هما برسيوليس أو إصطخر في إقليم فارس واكتان أو همدان في إقليم ماداي) فاحتلّها. وعسم في تلك العاصمة غنائم عظيمة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ثم اتّجه حوبا واحتل مدينة برسيوليس وأحرقها أخذا بالثأر لأنّ الفرس سبق لهم أن أحرقوا أثينة سنة 580 ق.م. أثناء الحرب الميدية.
ووردت على الاسكندر أنباء تعلمه أن الملك داريوس يحاول جمع جيش جديد في إقليم ماداي. فاسرع للالتحاق بذلك الاقليم الواقع في الشمال قاصدا عاصمته اكتان مروراً بصبهان. ولما وصل المدينة علم أن داريوس عادرها وتوجّه شرقا قاصدا إقليم خراسان صحبة ابن عمّه سّوس مرزبان إقليم باكترياني (خراسان).

فانطلق مقتفيا آثار داريوس عبر هصاب ماداي وانقضّ في دماغان على معسكر سّوس. وقد عادره أهله. فوحد فيه داريوس طريقا قد قتله سّوس ليخلفه على عرش فارس (330 ق.م).
فأرسل الاسكندر حثاين الملك القتال الى مدينة إكتان حتى تسهر أم داريوس على مراسم دفن ابنها. وواصل الاسكندر مطاردته لسّوس الذي كان قارّا أمامه وذلك مدّة سنة كاملة (329 ق.م).
توجّه سّوس أولا نحو الجيوب الشرقي لبلوغ مناطق أفغانستان الجبلية ظلّا منه أن الاسكندر سيجمتسب التوغّل في منطقة جبلية مبيعة ولكن الاسكندر اقتفى أثره وغامر بجيشه وأسّس في طريقه مدينتين حديديتين بعرص تكوين قاعدتين للجيش فيهما تتجمّع المؤن والعتاد وهما إسكدرية أريا (هراة الحالية) واسكندرية أراحوسيا (كاندهار الحالية)

وعندما غادر الاسكندر أفغانستان مقتفيا دائما آثار سّوس الذي حل بولايته أي ولاية باكترياني (خراسان) وأحرق المزارع والساتين حتى يعجز جيش الاسكندر عن مواصلة الزحف حتّ السير حتى وصل الى مدينة باكتريا (بلخ).

فعلم أن سّوس عادرها وعبر هر إكسوس (سيحون أو حاليا أموداريا). فعب الاسكندر النهر بدوره وقبض على سّوس حيّا وقطع له أنفه وأذنيه كما يفعل الفرس جزاء حيائه للملكه وأرسله الى إكتان (همدان) حتى يقتله أحو داريوس انتقاما لأبيه.

وتوغّل الاسكندر شمالا في إقليم السعد (التركستان) ليعرف حدود امبراطورية فارس التي عادت له. فاحتلّ ميراكندا (سمرقند) ووصل الى نهر أراكس (جيحون أو سيرداريا الحالية) وأسس مدينة إسكندرية أقصى الارض (خاجند).

وقفل راحعا واشتغل باخماد ثورات السغد وأهالي باكترياني (حراسان) وأسس أثناء إخماده للثورات اسكندرية مرقياي (مرو)

ودانت له مملكة فارس كلّها. فلم يحرق المزارع ولم يدمّر المدن بل أنقى ولاية الفرس في ماصيهم وأصاف لهم حامية مقدونية وأدخل شباب الفرس في الجيش وسأواهم بالمقدونيين وكونّ منهم فيالق صحبته في غرواته داخل فارس وخارجها.

وذلك هو المنعطف البالغ الخطورة في سيرة الاسكندر.

زحف على فارس أولا أحمدا بثارات اليونانيين الذين طالما حاربهم الفرس واكسحوا أرضهم وأهانهم. وكانت الغاية احضاع جميع الشعوب المضوية قهرا الى مملكة فارس وتحويل جميع أمراء تلك الشعوب الى رعايا خاضعين لمملكة لا تعترف بذاتية الشعوب ولا بقيمتها ولا بتقاليدها بل تدس بالقيم اليونانية وحدها وتتفوق الثقافة اليونانية على سواها من الثقافات. ذاك ما علّمه أرسطوطاليس الاسكندر. علّمه أن مصير الشعب اليوناني هو السيطرة على جميع الشعوب لأنه شعب مختار بلغ ذروة من الحضارة لم يلعها أيّ شعب آخر. وذلك ما يحوّل لذلك الشعب قيادة الشعوب الأخرى.

ولكن عندما سقط داريوس آخر ملوك الفرس صريعا وقع تحوّل في نفس الاسكندر. أصبح يعتقد أنه وارث مملكة الفرس وراعي شعوبها جميعا. فلا يجوز له أن يفرّق بين شعب وآخر ويرفض أن يكون في مملكته رعايا من الدرجة الثانية لأنهم ليسوا يونانيين وأيقن من ناحية أخرى أن حضارة الفرس حضارة راقية تفوق في بعض جوانبها الحضارة اليونانية. ولذلك قرّر أن يكون ملك جميع الشعوب الخاضعة لسلطانه وأن يعامل جميع رعايا المملكة نفس المعاملة وأن يكونوا جميعا متساوين في الحقوق والواجبات. وهذا التحوّل من الوطنية الضيقة الى النظرة العالمية الشاملة التي تسوّي بين البشر وتقرّب بينهم أحدثت القطيعة بيه وبين أرسطوطاليس فانقطعت المراسلة بينهما. وضاق جنوده المقدونيون ذرعا بذلك السلوك الذي كان يؤلمهم لأنه سوّى بين صحبه القدامى وأبناء وطنه الذين شاركوه المحن وبين أعدائهم بالامس. فثاروا في وجهه. ولكنّه أحمّد جميع الانتفاضات وحافظ على موقفه بكل حزم حتى أصبح حيشه يحتوي على أكثرية من الفرس أغلهم من الشباب.

وقرّر الاسكندر وقد نجح في المزج بين الشعب اليوناني والشعوب المختلفة التي كانت تخضع لملك الملوك أي ملك الفرس أن يمدّ فتوحاته خارج الامبراطورية الفارسية وذلك حتى يصل الى أقصى الارض الى تلك الشواطئ الشرقية التي يحدها البحر المحيط بالارض المعورة كلّها حسب افتراضات علماء ذلك العصر. ولذلك نظّم زحفه على شبه القارة الهندية.

دامت التحضيرات لغزو الهند سنتين (329 - 328 ق.م.). أسس الاسكندر في شتاء سنة 329 ق.م. مدينة إسكندرية القوقاز التي بقيت أطالها بارزة قرب مدينة كابل عاصمة افغانستان الحالية وذلك لتجميع الميرة والعتاد وتنظيم المواصلات لتزويد الجيش أثناء زحفه لوقوع المدينة الجديدة في مفترق الطرق المؤدية الى الهند. وحشد حيشا يعدّ مائة وعشرين ألف مقاتل وهو أعظم حيش عرفه العالم القديم. وانطلق الجيش سنة 327 ق.م. من أراسيا على بعد ثلاثمائة كيلومتر تحوي سمرقند وقطع حمال الهندوكوش المنيعه وهضابه ووصل بعد سة الى نهر السد الذي عبره على حسر من المراكب. وخضع له ملك تاكسيلا دون قتال وأهداه قناطر من الفضة وثلاثين فيلا آملا أن يهزم ذلك الغازي الذي طمّنت شهرته الآفاق عدوّه الملك بوروس. وتقدّم الاسكندر الى مهر هيداسبوس أحد رواد نهر السند وعبره ليلاقي الملك الهندي العظيم بوروس الذي قدم بجيش يعدّ مائة ألف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان

وأربعمائة عرمة حربية وثلاثمائة فيل واستطاع الاسكندر بمصل درسته ودهائه أن يهرم ذلك الجيش العظيم وانتكر طريقة لاعاد حطر العيلة بأد درّب فدائين وورّعهم في جميع فيالق الجيش مهمّة هؤلاء المهجوم بالشواقيز والماسحل الكبار على العيلة ومحاولة اصابتها في أعينها أو في أماكن قاتلة من بطها حتى تولي القهقري تشنّت جموع المقاتلين الهود من ورائها. وبحمت الحطة وكند الاسكندر بوروس هزيمة بكراء وكانت معاملة الاسكندر للملك بوروس معاملة كريمة حيث أنه أعاد له ملكه بعد أن هزمه فأناه ملوك السد معنيين له الطاعة والولاء

وكان يوي مواصلة رحه الى أن بلغ سهر القمح ولكن حيشه أي أن يواصل السير فأرعم على العودة ولكن عن طريق عبر التي سلكها فحمل حرم من حيشه في السفن وأمرهم بأن يحدروا على سهر السد الى أن يلعبوا البحر الارثري (المحيط الهندي حاليا) وقاد بقية الجيش براً والبحر في نفس الاتجاه الى الجنوب وكان يحارب طول الطريق شعوبا كانت تحاول صدّ عدوانه. ووصل الجيش الى المحيط الهندي عند مصّ سهر السد.

وأمر عند ذلك الاسكندر بيارحوس الكريتي بقيادة أسطول يعود الى العراق عن طريق البحر مستكشما الطريق البحرية المؤدية الى مصّ العرات

أمّا الاسكندر فقد قاد حرم كبيراً من حيشه عبر صحراء قدروسيا (بلوشستان الحالية) حسب مسيرة موارية لمسيرة الاسطول. فعقد عدداً كبيراً من الخنود لم يقصد مثله في أي غزاة من عرواته بسبب شدة الحرّ والعطش. وعاد الى مدينة السوس في صائفة سنة 325 ق م.

وفقد في نفس السنة آخر أصدقائه وأحد قواد حيشه همستيون وذلك بمدينة إكبتان من إقليم ماداي قصى الستين الاحرّتين من حياته في تهيئة غططّات ضخمة لعزو قرطاج في الغرب وللزحف على جزيرة العرب

وهو بذلك يرمي الى هدفين : الهدف الأول الاستيلاء على جزيرة العرب للسيطرة على الطرق التجارية التي تسلكها القوافل المحملة بحور عدن وظفار وحصرموت والهدف الثاني بلوغ أقصى الارض من ناحية الغرب في تلك النقطة الواقعة على المحيط الاطلسي والمشرقة على رفاق جبل طارق حيث عرس فيها حدّه الاسطوري هيراكليس عموديه : جبل طارق وجبل سبتة. ولا بدّ له لبلوغ هدفه الثاني أن يستولي على قرطاج التي كانت تسود على جانب كبير من مناطق حوض البحر الابيض المتوسط العربية. وعاجلت الاسكندر المية فمات في مدينة بابل سنة 323 ق م. وقد بلغ من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة. ملأ الاسكندر الكبير الدنيا وشعل الناس. واستولى في بضعة أعوام على أصقاع شاسعة. ولذلك سرعان ما تحوّلت سيرة الاسكندر التي سخلها التأريخ الى أسطورة ربّها حيال الشعوب وخاصة منها الشعوب الشرقية التي شاهدت بطولاته عن كثب فأعجبت به.

وقد يكون من المعيد أن نطلع على صورة الاسكندر كما كان يتخلّلها العرب في العصور الراهرة للحضارة العربية اعتماداً على مقتطعات مما كتبه عنه المسعودي وهو من كبار المؤرّخين في «مروج الذهب». ولما قتل الاسكندر بن فيليبس دارا بن دارا تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته. وقد نصبت كل طائفة لها ملكاً لعدم ملك يجمع كلمتهم. وذلك أن الاسكندر أشار عليه معلّمه وهو وزيره أرسطاطليس في بعض رسائله اليه بذلك وكانت الاسكندر ملك كل ناحية وملكه على ناحيته وتوجه وحياه فصار ملكه من بعده في عقبه مما بعاً عمّا في يده وطالبها بالاردياد من غيره (المسعودي : مروج الذهب — المكتبة التأريخية الكبرى — الجزء الأول ص 234 و235)

وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوج بانية ملكها دارا بعد أن قتله. ثم سار الى أرض السند والهند ووطىء ملوكها وحملت اليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها مور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الاسكندر مباررة.

ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبّت فدانت له الملوك وحملت اليه الهدايا والصرائب وسار في معاوير الترك يريد حراسان من بعد أن ذلّل ملوكها ورثب الرجال والقوّاد فيما افتتح من الممالك ورثب ببلاد التّبّت حلّقا من رحاله وكذلك ببلاد الصين وكوّر محراسان كورا وصى مدنا في سائر أسفاره. وكان معلّمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المطلق وما بعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط. وصرف هؤلاء همهم الى تقييد علوم الاشياء الطبيعية والنفسية وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالاهيات وأنانوا عن الأشياء وأقاموا الرهان على صحتها وأوصحوها لمن استمعهم عليه تناولها.

وسار الاسكندر راجعا من سفره يؤمّ المغرب فلما صار الى مدينة شهر زور اشتدّت علّته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقيل بالعراق. (نفس المرحع ص. 288 و289).

(3) **أريان (95 — 180)** مؤرّخ يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي. تعلّم على الفيلسوف الرواني إنيكتيوس وخلّد ذكره بتأليف كتابين سجّل فيهما تعاليم أستاذه بالروح الى أماليه. كان على غرار جميع المؤرّخين اليونانيين حازما ونشيطا له اسهام في الحياة السياسية ومشاركة في الحروب. تطوّر في حيوش الامبراطورية الرومانية وحارب في الثغور في نواحي اللقان. وعيّن قنصلا في روما سنة 130 ثم واليا على إقليم كندوكيا غربي إقليم أرمينية بالاناضول وذلك مدة ست سنوات من سنة 131 الى سنة 137 وانتخب في نفس السنة حاكما من بين حكام مدينة أثينة. وتفرّغ بعد تقلده تلك المخططة للكتابة والتأليف. يسب الى إقليم نيكوميديا بالاناضول لأن نيكوميديا موطنه.

(4) **الدورة الاولمية :** الدورة الاولمية ومدتها أربع سوات اتحدت قاعدة للتقويم الرسمي في الحضارة اليونانية القديمة.

كانت المباريات اليونانية الجامعة تجري كل أربع سنوات في بلدة أولمبيا في إقليم إلبليس. ويقع هذا الاقليم في الركن الشمالي الغربي لشبه جزيرة السيلوبوير (موريا الحالية). يقع التجمّع في منتصف فصل الصيف ويدوم اللقاء خمسة أيام وتشتمل الحفلات الاولمية على مهرحايين : الأول مهرحان ديني تقام فيه المواكب الدينية وتقدّم فيه القرابين والثاني مهرحان رياضي تنظّم فيه المباريات وكانت المباريات مفتوحة لكل المواطنين اليونانيين الأحرار المسحدرين من أونيين يونانيين صميمين ومحرمّة على الأعاجم والعبيد.

وفي ختام الالعب الاولمية توضع على رؤوس الفائزين أكاليل من أوراق الزيتون وتقام وليمة في دار البلدية يحضرها الفائزون وأقاربهم ويشد أثناءها كبار شعراء يونان أناشيد تمجيد الأبطال الفائزين ويحصر الشعراء والكتّاب الاحتفالات للتعريف بأنفسهم وأعمالهم.

أسست الالعب الاولمية سنة 776 ق.م. فكانت تلك السنة هي السنة الأولى في التقويم الرسمي اليوناني الذي يعتمد العدّ على أساس حقيبات رباعية

(5) **هقسوس :** اسم حاكم من حكام أثينة التسعة (أرخون جمعه أرخونيتيس) يدلّ بالضبط على السنة التي وقع فيها الحدث.

يمارس السلطة التنفيذية في أثينة تسعة حكام يعيّنون بالاقتراع من بين قائمة من المرشّحين بالانتخاب من طرف مجلس الشعب ويباشرون مسؤوليتهم مدة سنة فحسب.

يطلق اسم أحد الحكّام على السنة التي تولّى فيها مهامّه. والدور الذي يقوم به هذا الحاكم من بين رملاته هو ضبط الرزنامة والاشراف على الاعياد الدينية ومتابعة القضايا المتعلقة بالميراث والوصاية على الارامل واليتام.

فالتقويم الزمني يعتمد في العصور القديمة عند اليونان الدورات الاولمبية التي تعقد كل أربع سنوات وتحدّد السنة بالدات داخل الاربع سنوات بذكر اسم الحاكم الاثيني المانح اسمه للسنة التي تولّى فيها مهامّه. (6) **أرسطوبولوس** : مؤرّخ يوناني عاصر الاسكندر المقدوني وشارك في غرواته. وقد ذكر أريان أنه اعتمد في سيرة الاسكندر التي ألّفها ما رواه أرسطوبولوس هذا وكذلك ما رواه بطليموس أحد رفاق الاسكندر وأحد قادة جيشه ذلك الرجل الذي ملك مصر بعد موت الاسكندر وحكمها وأسّس فيها أسرة البطالسة المالكة.

(7) **ثيوفيلوس** : لم أعر على ذكر هذا الرسام فيما لدي من المراجع.

(8) **جبل يليون** : هو جبل يعزل إقليم ثساليا في شمال البلاد اليونانية عن البحر الايوني.

(9) **القسطنطينية** : اسم قديم لمدينة استانبول وتكتب أيضا استنبول واسطنبول. وهي مدينة من مدن تركيا الحالية تقع على ضفتي البوسفور. جعلها الامبراطور الروماني قسطنطينوس احدى عاصمتي الامبراطورية الرومانية (العاصمة الاخرى هي روما) في القرن الرابع الميلادي سنة 330. وكانت تسمى قبل ذلك بوزنتيون باللغة اليونانية وعُرفت فسميت بيزنطة. وأعاد اليها الأباطرة البيزنطيون اسمها القديم بيزنطة وحافظت على هذا الاسم الى أن فتحها محمد الفاتح سنة 1453 ميلادية فأصبحت عاصمة الخلافة الاسلامية وأطلق عليها أولا اسم اسلام بول ومعناها مدينة الاسلام ثم استانبول.

(10) **كسينوفون (430 - 355 ق.م.)** كاتب يوناني غزير الانتاج. كتب في مختلف الأغراض. ولد بأثينة في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد. وتعلم على سقراط وعمره لم يتجاوز ثمان عشرة سنة. والتحق بمحيط المرتزقة اليونانيين الذي كان يحشده كورس الاصغر في الاناضول لمحاولة افتكاك عرش أخيه أرتاكسر كسيس ملك الفرس (405 - 359 ق.م.) وذلك سنة 401 ق.م. ولكن محاولة كورس فشلت وانهزم الجيش الذي حشده وقتل الثائر في المعركة. فأجر العشرة آلاف مقاتل يوناني على الانسحاب والعودة الى بلاد اليونان عبر الاناضول ومضيق الدردانيل في رحلة شاقّة قصّها كسينوفون في أحد كتبه. وتطوّع بعد ذلك في جيش ملك إسبارتا الذي كان يحارب الفرس في الاناضول وذلك سنة 396 ق.م. ودعي الى إسبارتا الذي كان يهددها الاثينيون والثيريون المتحالفون. ورضي بأن يحارب في صفوف أعداء مدينته أثينة وشهد معركة حيروني من إقليم بويوتيا (394 ق.م.) التي كان التصّر فيها حليفا لإسبرتا ولذلك أصدر أهالي أثينة قرارا بفضله المؤبد مع مصادرة أمواله. فجازته مدينة إسبرتا بأن وهبت له ضيعة بمكان يسمى سكلونتني قرب مدينة أولمبيا. واعتنى كسينوفون هنالك بالفلاحة. وخصّص جانبا كبيرا من وقته للدراسة والتأمل والتأليف. وقد كتب تأليف عديدة سجل فيها ذكرياته عن معلمه سقراط ودوّّن فيها ذكريات معامراته وحروبه وتحدّث في بعضها عن قواعد حسن التصرف في العمل الفلاحي وعن تربية الخيل وركوبها.

(11) **كورس** : هو كورس الاصغر للتمريق بينه وبين كورس الكبير مؤسس الامبراطورية الفارسية الاخمينية الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ودام ملكه من سنة 560 الى سنة 529 ق.م.

٥ ثار كورس الاصغر على أخيه أرتاكسر كسيس ملك الفرس فانهزم وقتل سنة 401 ق.م.

(12) **كبدوكيا** : إقليم من أقاليم الاناضول في السّاحية الشرقية منه يحده شرقا إقليم أرمينيا.

(13) **إبكتيتوس** : فيلسوف روائي يوناني عاش من سنة 40 الى سنة 125 ميلاديتين ولد في إقليم فريجيا في آسيا الصغرى (الآنصول). وقضى جاسا من حياته في العبودية. قدم الى روما مع سيده في عهد الامبراطور نيرون. وأعتقه سيده الروماني ومكّنه من التلمذ على الفيلسوف الروائي موسويوس. ولما أطرده الامبراطور دوميسيان الفلاسفة من عاصمة روما سنة 93 التحأ إبكتيتوس الى إقليم إبروس من بلاد اليونان. ودّرس هنالك الفلسفة الرواقية الى أن توفي بها سنة 125.

كان تعليم إبكتيتوس تعليمًا شفويًا ولم يكتب أي شيء. ولكن تلميذه المؤرخ أريان عرّف به بتأليف كتاب عنوانه : « أحاديث مع إبكتيتوس » بالرجوع الى أمالي الفيلسوف على تلاميذه ثم عندما صادف الكتاب الأول رواج كبير ألف أريان كتابا ثانيا عنوانه : « الموحز » وهو شبه كتاب مدرسي.

(14) **هادريان** : أو هادريانوس باللغة اللاتينية. هو امبراطور روماني عاش في القرن الثاني الميلادي وسير شؤون الامبراطورية من سنة 117 الى سنة 138. كان ذا حزم وتدبير أصلح الادارة وأقام على حدود الامبراطورية معازل وتحصينات لحمايتها من هجومات الشعوب المتهمجة. وكان ميّالا للثقافة اليونانية خاصة وللاداب والفنون عامة.

(15) **بابل** : نسى بابلون باللغة اليونانية. هي مدينة قديمة ترى أطلالها الى اليوم على صفة الفرات قرب الحلة على مسافة مائة وستين كيلومترا جنوبي شرقي بغداد.

يعود تأسيسها الى الالفية الثالثة قبل الميلاد وتذكر لأول مرة في عهد الاكاديين في النصف الثاني من الالفية الثالثة. ولم تلعب دورا في التاريخ الا في بداية الالفية الثانية عندما غزاها اقوام ساميون قدموا من شمال سوريا وهم الاموريون واتخذوها عاصمة لهم ودانوا فيها لسلالة مالكة كان سادس ملوكها حتمورابي الذي وحد سومر وأكد وسنّ قوانين حمورا في الشهيرة. وعندما طلع نجم الاشوريين كانت بابل تخضع لنفوذهم وتحشى سطوتهم. ولم تسترحع مجدها القديم الا بعد سقوط نينوي عاصمة الاشوريين سنة 612 ق.م.

لا نعرف بابل بشيء من التفصيل الا عندما ازدهرت في القرن السابع قبل الميلاد في عهد نبوكدودو بصر ملك الكلدانيين الذي يسميه العرب نُحْتَنَصْر.

يقول المسعودي في « مروج الذهب » : « وهو الذي وطىء الشام وسبى اسرائيل » (الجزء الأول ص. 228).

وبختنصر هذا الذي دام ملكه من سنة 605 الى سنة 562 ق.م. قد غزا مصر مرّات عديدة وهزم اسرائيل واحتلّ القدس ودمّر هيكل سليمان بها وساق جانبا من السكان اليهود أسرى الى بابل حيث قضوا بها سبعين سنة الى أن أعادهم الى القدس كورس الكبير مؤسس سلالة الأخمينيين الفارسية. واحتلّ كامل منطقة الشرق الاوسط ومصر.

قد تحدّث عنه التوراة وتحدّثت عن مدينة بابل في عهده. كما أنّ المؤرخ اليوناني هيرودتس الذي كتب تاريخه في القرن الخامس قبل الميلاد قد وصف المعالم التي شاهدها في بابل وترجع جميعها الى عهد ذلك الملك. ثم إن الآثار الباقية تمكّنا من تصوّر المدينة.

مدينة بابل لها شكل مربع، مستطيل مجموعة ضلوعه ستة عشر كيلومترا. وكان يحيط بسورها حديق عريض كان يملأ ماء. وكانت للمدينة ثمانية أبواب رئيسية. وفي الناحية الشمالية باب اشتهر وهي إلهة الخصب. كان ينطلق من هذا الباب في اتجاه داخل المدينة زقاق طوله ثلاثون مترا على اليمين مه وعلى اليسار حدار نقشت عليه صور أسود. وكان هذا الزقاق الذي تسلكه المواكب الدينية يؤدّي الى معد

- الاله مردوك. وكان المعبد على شكل مربع مستطيل طوله خمسمائة وخمسون مترا وعرضه أربعمائة وأربعون مترا وعلوه عشرون مترا. وبجانب المعبد برج بابل ذو الاطباق الثمانية وعلوه تسعون مترا.
- (16) **حدائق بابل المعلقة** : تسب تلك الحدائق المعلقة الى سحراميس وهي ملكة اسطورية. تلك الحدائق المعلقة هي احدى عجائب الدنيا السبعة في رأي القدماء وقد أحصاها ووصفها فيلون البيروني في كتاب بعنوان : حول عجائب الدنيا السبعة. وهي أهرام مصر وحدائق بابل المعلقة المسنونة لسحراميس وتمثال ريوس الأولمي الذي نحته فيدياس الاثيني من العاج والذهب ومعبد أرتميس بمدينة إفيوس في آسيا الصغرى وضريح موسولوس بمدينة هاليكارنوسوس بآسيا الصغرى أيضا وتمثال العملاق البرنزي للاله أبولون بحزيرة رودس ومنارة للاسكندرية.
- (17) **بيلا** : عاصمة اقليم مقدونيا تقع في سهل قريب من البحر. كانت عاصمة مملكة فيليبوس الثاني ملك مقدونيا وأبي الاسكندر الكبير.
- (18) **غيروني** : مدينة من مدن اقليم بويوتيا اليوناني وعاصمة هذا الاقليم هي مدينة ثيباي.
- (19) **الكلية المقدسة** : كلية مفضلة في حيش مدينة ثيباي (طيبة). كانت مكونة من ثلاثمائة شاب اختيروا من بين شباب الاسر الارسطوقراطية الماجدة. وتفرغوا للقتال واكتسبوا أحسن تدريب عسكري برعاية المدينة التي تتفق عليهم من الخزينة العامة وأقسموا أن يموتوا وأن يموتوا معا.
- (20) **أرسطوطاليس (384 - 322 ق.م.)** ويسميه العرب أيضا أرسطاطاليس وأرسطو. هو من أعظم فلاسفة اليونان ان لم يكن أعظمهم بغزارة اتاحه وسعة أفقه وتطلعه الدائم الى أسرار الطبيعة والعقل والنفس وقدرته العاقبة على التركيز والترتيب والتأليف. لم يكن لسواه من فلاسفة اليونان تأثير مماثل لتأثيره في تطوير الفلسفة في حل حضارات العالم.
- هو أرسطوطاليس بن نيكوماخوس. ولد بمدينة ستاقورس من إقليم مقدونيا سنة 384 ق.م. في أسرة تدعي الانتماء الى أسكليبيوس اله الطب وتتعاظم التطبيق أبا عن جد.
- كان أبوه نيكوماخوس طبيبا خاصا لأمتاس ملك مقدونيا. وهذا ما يعلل علاقة أرسطوطاليس بالأسرة المالكة المقدونية.
- وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره قدم الى أثينة حيث تلمذ على افلاطون الذي كان يلقي دروسه على تلامذته في حديقة تحمل اسم أكاديموس وهو بطل أثيني خرافي، وكانت تلك الحديقة خارج أثينة على بعد كيلومتر ونيف من المدينة على طريق مدينة إلوسيس وبقرية من قرية كولوني التي تجري فيها أحداث مسرحية «أوديبوس في كولوني» التي كتبها سوفوكليس في آخر حياته. ولذلك سميت تلك الحديقة التي احتارها أفلاطون لتكون مكانا يلاقي فيه تلامذته بانتظام ويبحث فيه تعاليمه «أكاديميا».
- لازم أرسطوطاليس أفلاطون مدة عشرين سنة ولم يغادر أثينا الا عندما توفي معلمه أفلاطون سنة 347 ق.م.
- وكان أستاذه معجبا به وكان يسميه «الفكر» (نوس باليونانية).
- ودعاه فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 342 ق.م. ليكون معلما لابنه الاسكندر. وسهر على تربية ولي العهد مدة ثلاث سنوات الى أن قرر فيليبوس إنهاء فترة التعليم سنة 340 ق.م. حتى يياشر ولي العهد مهام سياسية وعسكرية بجانب أبيه.
- ولما آل عرش مقدونيا الى تلميذه الاسكندر بقي مدة قصيرة بيلا ثم طلب من الاسكندر أن يأذن له بمعادرة مقدونيا والالتحاق بأثينة وذلك سنة 335 ق.م. حتى يعيش في جو ثقافي يلائمه. وفي أثينة أنشأ أرسطو مدرسة يشر فيها تعاليمه وسماها لوكيون باسم الحي الذي أسست فيه. وكان يلقي درسين

كل يوم الدرس الاول في الصباح أمام مجموعة صغيرة من حيرة تلاميذه والدرس الثاني في المساء أمام جمهور كبير.

ولما مات الاسكندر الكبير سنة 323 ق.م. هاجمه الحزب الاثيني المناهض لعمود المقدونيين. فارتحل الى حالكيس في جزيرة يوبويا وبرل بيت أحد أقاربه. وقد قال لما غادر المدينة : «أحشى أن يعتدي الأثينيون على الفلسفة باقتراف جريمة ثانية» مشيراً بذلك الى حكمهم على سقراط بالاعدام. وتولي أرسطوطاليس بحالكيس بعد مدة قصيرة من هجرته اليها وذلك سنة 322 ق.م. وقد يكون من المفيد أن نقس بعض الفقرات من كتاب «الملل والتحلل» للشهر ستاني يقدم فيها أرسطوطاليس حتى تكون لنا صورة عن أرسطو كما يراه العرب.

«أرسطوطاليس بن نيقوماحوس من أهل اصطحرا. وهو المقدم المشهور والمعلم الأول والحكيم المطلق عدهم. وكان مولده في أول سنة من ملك أردشير بن دارا. فلما أتت عليه سبع عشرة سنة أسلمه أبوه الى المؤدب أفلاطون فمكث عنده نيما وعشرين سنة. وأما سمّوه المعلم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة الى الفعل... وله حق السبق وفضيلة التمهيد وكتبه في الطبيعيات والالهيات والأخلاق معروفة ولها شروح كثيرة (الشهر ستاني : الملل والحل — دار المعرفة بيروت 1975 ص. 119 — 120) ملاحظة : أن أردشير بن دارا (أرتاكسركسيس بن داريوس باليونانية) كان ملكا على الفرس من 405 الى 339 ق.م. فان لم يولد أرسطوطاليس في سنة تولّى هذا الملك على العرش فقد كان معاصرا له. (21) ثيباي : مدينة يونانية هي عاصمة إقليم بويوتيا. وتسمّى أيضا طية تقول الاسطورة ان مؤسسها هو كادموس الفينيقي. كانت ثيباي مجاورة لاثينة وكانت عدوة لها تحاول في أغلب الحالات أن تحالف مع إسبارتا لمقاومة أثينة. وان شدّة كراهيتها لاثينة قد دفع ثيباي في بداية القرن الخامس قبل الميلاد الى التحالف مع الفرس وتمكينهم من شق بويوتيا للزحف على أثينة واحراقها (580 ق.م.). بقي ذلك الموقف وصمة عار في وحه الثيبين. وقد أدّى ما تحالفها مع إسبارتا الى أن أرغمت على قبول سيطرة هذه المدينة عليها في القرن الرابع قبل الميلاد ولكن استطاعت بمساعدة الأثينيين في هذه المرة أن تطرد الاسبارتيين. ويرى مدينة ثيباي تحالف مع أثينة لصدّ فيليبوس المقدوني ولكن فيليبوس يهرمها في معركة حيروني سنة 338 ق.م. وعندما ثور من حديد في عهد الاسكندر بايعار من الأثينيين يدمرها هذا الاحير ويقتل أهلها.

(22) الالباذة : هي أعظم ملحمة عند اليونانيين. وتمثل ذروة الشعر اليوناني. كان يلقى الاطفال اليونانيون أجمل مقاطعها منذ سواهم الأولى في المدرسة. وكانت عماد التربية الأخلاقية والأدبية للشعب. منها يستوحى كتاب المسرح اليوناني بعض موضوعاتهم والى أساطيرها وتشابيهها والحكم الماثورة فيها يرجع فلاسفة اليونان مثل أفلاطون وأرسطو لتوضيح تعاليمهم بالاشارات والاستشهاد. وهي أيضا أقدم ملحمة في العالم اذا استشينا ملحمة قلغامش السومرية البابلية التي سبقتها بقرون

تقصّ علينا ملحمة الالباذة جزء من المعارك التي حاصها أهل مدينة إليون من إقليم طروادة الواقع في آسيا الصغرى على خليج الدردانيل واليونانيين الراحين عليهم الذين حاصروا مدينتهم مدة عشر سنوات الى أن فتحوها عنوة وأحرقوها وقتلوا أهلها. وذلك حوالي سنة 1200 ق.م. ولا تتناول هذه الملحمة كامل الحرب الطروادية ولكن تقصّ علينا سلسلة من المعارك الشرسة التي حرت بين أبطال اليونانيين وأبطال الطرواديين في السنة العاشرة والأخيرة من الحصار وفي مدة قصيرة لا تتجاوز السعة أسابيع.

بلغت المعارك قمّتها في الصراوة عندما نارت خصومة بين الملك أقامنون القائد الأعلى للحملة اليونانية وأحيلوس ألع أبطال الجيش فغضب هذا الأخير وانسحب من القتال مع جيشه الصغير ورابط في معسكره

مطعن الطرواديين أن الظرف ساع للتغلب على أعدائهم والقذف بهم في البحر وقد فقدوا أشجع أبطالهم. وفعلا كئدوا اليونانيين هزائم شعاء واحتلوا جانباً من معسكرهم وأوشكوا أن يضرعوا النار في سفهم المطروحة على الشاطئ ولم يستطع أي بطل من أبطال اليونانيين أن يحمل محل أحيلوس المنسحب وأن يقوم سطلوات مماثلة لبطلاته خاصة أمام البطل هكتور حاملي مدينة طروادة وسورها المنيع. وعندما شاهد أحيلوس ان انسحابه من المعركة قد جرّ الولايات رصي بأن يعيث قومه بالسماح الى حيشه بالدحول من حديد في المعارك بقيادة صديقه الحميم باتروكلوس الذي ألسه سلاحه حتى يومه الطرواديين أن أحيلوس نفسه عاد الى ساحة القتال. ورجحت الكفة لفائدة اليونانيين وأجلوا أعداءهم عن معسكرهم ولكن قتل هكتور باتروكلوس. وعندئذ عاد أحيلوس الى ساحة القتال ليأثر لصاحبه وبارز هكتور وقتله.

فالملمحة مركزة على غضب أحيلوس. وتعدّ 15.537 بيتا وقع تجميعها وصطلها في القرن السادس قبل الميلاد. وكانت تشدّ كل سنة في عيد الالهة أثينا سيده المدينة دون أن يسمح للرواة أن يعيروا من اللص الحقّ شيئا. وقسمت تلك القصيدة في العهد الهلينستي الاسكندري الى أربعة وعشرين جزء أو شيئا. (23) أحيلوس : هو البطل الأول في الاليادة والمخور الذي تدور حوله الأحداث. وهو أصغر الأبطال اليونانيين سناً وأقوامهم حاشاً وأوسهم حلقة. فانسحابه عن المعارك يحزّ للجيش اليوناني الكوارث ولا يستطيع أيّ بطل من الأبطال سدّ الثغرة التي يحدثها وعودته الى القتال تبعد الولايات عن اليونانيين وتيسر لهم النصر النهائي.

هو ابن تيتيس احدى ربّات البحر زوّحها الآلهة البطل اليوناني بيليوس ملك المرميديين القاطن بمنطقة إفنيا من إقليم ثساليا. وهو ابنهما الوحيد. وكلف أنه القسطور (شخص خرافي جسمه حصان ووجهه وحه إنسان) حيرون تربيته فكان يطعمه أحشاء الأسود والخنائير البرية ونخاع الدببة ليكسبه الشجاعة ويأوله أحياناً شهد النحل ونخاع الأيول ليكسبه القدرة على العدو السريع فنشأ شجاعاً مقداماً وعداء لا يعدو أحد في غباره.

شارك في حرب طروادة وقتل هكتور ورماء البطل الطروادي باريس بسهم فأرداه قتيلاً. (24) باتروكلوس : صديق أحيلوس الحميم ورفيقه الوفي منذ أيام صباه. وكان أكثر منه سناً. صرعه هكتور تحت أسوار إليون.

(25) إسّوس : مدينة تقع في إقليم كيليكيا من أقاليم الأناطول.

(26) قوقملا : سهل من سهول أشور قرب مدينة نينوي العاصمة القديمة للأشوريين.

(27) صور : احدى المدن الفينيقية الثلاث التي اشتهرت في العصور القديمة بنشاطها التجاري العظيم وبسيطرتها على مسالك البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي والبحر الأحمر والطريق البحرية الى الهند وهي الجبيل (بيسلوس) على بعد خمسة كيلومترات شمالي بيروت التي اختصت بالتجارة مع مصر الفرعونية : كانت تصدر الى مصر أخشاب الارز وتستورد أوراق الرديّ ومن هذا المنتج المصري اشتق اسمها القديم. وصيدا التي تبعد عن بيروت خمسة وأربعين كيلومتراً جنوباً والتي استولت على الطرق التجارية في البحر الابيبي حتى أصبح لفظ «صيدوني» مرادفاً عند اليونان للفظ فينيقي واتّفت صيدا مع البابليين واستفادت من الطريق التجاري الذي كان ينطلق من الهند في اتجاه الخليج العربي الذي كان يسيطر عليه السابليون. وثالثتهما مدينة صور

تعد صور عن بيروت ثلاثة وعشرين كيلومتراً جنوباً. وكانت تقع في العصور القديمة على جزيرة صخرية قريبة من الشاطئ ارتطت الآن بالقارّة وذلك ما جعل منها مدينة منبعاً أعجزت المعتدين. استولت في آن واحد على مسلكين بحريين للتجارة أحدهما ينطلق من خليج العقبة على البحر الأحمر

وينتهي الى الهدد مع محطّات احبارية في موانئ اليمن لانتظار الرياح الموسمية والآحر يطلق من صور نفسها في آتجاه شمال افريقيا واسبانيا والمحيط الاطلسي الى حوئي بريطانيا.

ان الفينيقيين كانوا يعتقدون أنهم هاحروا من اليمن. وذلك ما يَسرّ لهم التعاون مع مملكة سبأ. فكانت هذه المملكة تلعب دور الحارس للمضائق العينية الوافدة اليها حتى يتسنى لها أن توصل طريقها انما الى الهند أو الى صور. وكانت تمّد صور بضاعتها المحلية الشهيرة أي عطور اليمن ومحورها.

وقد سعت صور مد أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى فتح — الطريق البحرية العربية فأسست في نفس الوقت أوتيكت تنونس الحالية (1100 ق.م.) وقادس في اسبانيا على المحيط الاطلسي. وأسست كذلك قرطاج سنة 814 ق.م. ولعت قرطاج بالنسة الى صور دور محطة للتجارة والتبادل للبضائع الآتية من الشرق والعرب معا.

احتلّها نوكدونصر (بختنصر) في سنة 587 ق.م. وفي سنة 574 ق.م. ودات مالمولاء للفرس وساعدتهم في حروهم بأسطولها الحربي ونواتها المهرة وحافظت مع ذلك على استقلالها. وحاصرها الاسكندر سنة 332 ق.م. مدة ستة شهور واحتلّها عوة ودمّرها. ويجدر أن نشير الى أن الاسطول القرطاجي قدم الى صور في الأيام الأولى من الحصار وحمل كنوزها وأحل عن المدينة كلّ من لا يقدر على حمل السلاح (28) السوس : مدينة قديمة بقيت أطلالها في إقليم حورستان — يرجع تأسيسها الى الالفية الخامسة قبل الميلاد. كانت عاصمة لمملكة صغيرة كانت دائما مهددة على مرّ القرون من طرف السومريين والأكاديين والكلدانيين والاشوريين. ودمّرها أسور نابال ملك الأشوريين سنة 640 ق.م. جعلها ملوك فارس من أسرة الأخمينيين إحدى عواصمهم.

(29) باكتريان : (باكترياني باليونانية) تسمية قديمة لاقليم حراسان — عاصمته ماكترا (بلخ).

(30) تاكسيلا : مدينة في باكستان الحالية

(31) أولمياس : (375 — 316 ق.م.) ست بيوتولاموس ملك إبيروس ومملكة مقدونيا وأمّ الاسكندر الكبير. تزوّجت فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 357 ق.م. وطلّقها فيليبوس في سنة 337 ق.م. ليتزوّج من كليوبترا المقدونية. غادرت مقدونيا بعد طلاقها حاملة معها ابنها الاسكندر وأقامت في قصر أحياها ملك إبيروس. ولكنّ فيليبوس أرحعها بعد مدة قصيرة. واسترصاها. ورثما شاركت في المؤامرة التي أدت الى قتل روحها سنة 336 ق.م. وبعد صعود ابنها الاسكندر على العرش انتقم من ضربتها كليوبترا فأمرت بقتلها كما أمرت بقتل كثير من أعدائها.

وعندما كان الاسكندر الكبير يقوم بغزواته نازعت على السلطة أنتياتروس الذي كلّفه انها تسيير شؤون مملكة مقدونيا في فترة عيانه

ولما أتاها بأ موت الاسكندر الكبير (323 ق.م.) غادرت مقدونيا للاقامة بابيروس.

وفي سنة 319 ق.م. تواطأت مع بوليبرحون خليفة أنتياتروس وأصبحت وصيّة على عرش مقدونيا. ولكنّ كاسدروس بن أنتياتروس شقّ عصا الطاعة في وجهها وحاصرها في مدينة نودا وفتح المدينة وقتلها (316 ق.م.)

(32) بلوتارخوس (46 — 120) : مؤرّج يوناني عاش معظم حياته في القرن الأول الميلادي ولد بمدينة خيروي من إقليم نوبوتيا تلك المدينة التي جرت محابها المعركة الشهيرة التي هزم فيها فيليبوس الثاني اليونانيين المتحالفين سنة 338 ق.م. وقصى بلوتارخوس حياته كلّها في تلك المدينة وكتب فيها مؤلفاته التي تناولت تراجم الرجال العظام مثل سولون المشرّع الاثيني وبريكليس حاكم مدينة أثينا الذي أطلق اسمه على القرن الخامس قبل الميلاد والاسكندر المقدوني وغيرهم

(33) أثيني (النصف الأول من القرن الثالث الميلادي) . محوِّي يوناني كانت له ثقافة واسعة ولد بهوكراتيس بمصر وكتب بعد سنة 228 كتابا في ثلاثين سحلاّ عنوانه «مأدبة السفسطائيين» وهو عبارة عن موسوعة ضخمة تتناول كل معارف وفنون زمانه. والعرب في الأمر أن أكثر ما نعرفه عن الحياة اليومية لليونانيين مستمد من هذا الكتاب.

(34) فيليبوس الثاني (382-336 ق.م.) ملك مقدونيا وأبو الاسكندر الكبير استطاع بفصل حزمه ودهائه أن يجعل من قطره الضعيف المقيّر الذي كان يعتمد في عيشه على احتطاب خشب الجبال ورعاية العم والمعر مملكة قويّة ثريّة ومن شحه شبه المتهمّج الساكن على أطراف البلاد اليونانية شعبا متحضّرا يشارك في حصاره يونانية كانت أحسية عنه ولكن تنّاه وتعلّق بها حتى أصبح مدافعا عنها عن قناعة. كان الابن الثالث للملك أمتاس. ولما تولّى أخوه الأكبر برديكاس الملك أرسله كرهينة الى ثيبي حيث قصى فيها ثلاث سنوات من 368 الى 365 ق.م. تعلّم فيها اللغة اليونانية وتأثّر محاضرة اليونان. ودعاه أخوه الى مقدونيا فالتحق بحاشية الملك. ولما قتل أخوه سنة 359 ق.م. في معركة ضدّ الإليريّين (الألبانيين حاليا) عين وصيا على العرش حتى يبلغ ابن أخيه أمتاس الثالث سنّ الرشده. وقام أثناء فترة الوصاية بأعمال حليّة. هاجم الألبانيين فجأة فهرمهم وانتقم بذلك لعمّه الذي قتل وهو يقاومهم. وفرص يعود على إقليم إليريا (ألبانيا الحالية) بعد أن كان ذلك الاقليم مسيطرا على مقدونيا. وحارب الطراقيين الذين كانوا يباوشونه في حدود مقدونيا الشمالية واحتلّ سنة 357 ق.م. مدينة أمفيبوليس التابعة لأثينة التي لم تستطع الدفاع عنها واستولى على مينائها فتمكّن بفصل ذلك من تصدير الأخشاب التي تتحها مقدونيا.

وأهمّ عمل قام به وأبعده أثرا استيلاؤه على منطقة جبال مانقيون في إقليم طراقيا وصمّها الى مقدونيا. وتلك المنطقة الحليّة شهيرة في العالم القديم بمناجم الذهب والعصّة وكان متوح تلك المعادن الثمينة يقسم بين القبائل الطراقية المقيمة بالمنطقة.

اغتم فيليبوس فرصة التنازع فيها فاستولى على المدينة الصغيرة التي كانت مستودعا لها ومركزا للمعاملات التجارية وأنزل بها حامية وسمّى المدينة باسمه وأمر يذل جهود مصاعفة لاستخراج أكبر كمّيّات ممكنة من الذهب والفصة. فأحرز على نجاح باهر حيث صعد الانتاج من قرابة خمسة أطنان دها كانت تتحها القبائل سويلا الى أكثر من ستّة وعشرين طنّا سنويا.

وهذه الكمّيّة الوفرة من الذهب جعلت من مقدونيا مملكة ثريّة مرهرة قادرة على حشد الجود وحلب المرتقة وشراء الصمائر في جميع المدن اليونانية التي أفقرتها الزّاعات فيما بينها والحروب الأهلية. فذلك السيل من الذهب مكّن فيليبوس بكّل يسر من أن يعتمد في كّل مدينة يونانية على حرب موال لمقدونيا وللنظام الملكي بمؤله بالنظام حتى يؤثّر على الرأي العام ويهرم الحرب الديمقراطي فيحنح اليونانيون شيئا فشيئا الى التعاون مع مقدونيا والى الرضا بفودها على الجميع ولم تتردّد الأحزاب اليونانية الماهصة لمقدونيا والمتمسكة بالنظام الديمقراطي في التواطؤ مع العرس ومدّ يدها الى الأموال التي كان يعدقها عليها ملك العرس في صورة نقود ذهبية تحمل اسم داريبوس الثاني ذلك الملك الذي رحف على بلاد اليونان في بداية القرن الخامس قبل الميلاد فأصبح اليونانيون تنارعهم عملتان ذهبيتان قويتان العملة الفارسية من جهة والعملة الذهبية الجديدة التي أصبح فيليبوس يصرب نقودها الثقيلة العريضة بكمّيّات وافرة بفضل مناجم ذهب طراقيا

وفي سنة 356 ق.م. بنفسها أعد ابن أخيه عن عرش مقدونيا وحلّ مكانه وأحد فيليبوس يتدخل في الزّاعات بين اليونانيين بهدف جمع شملهم تحت لوائه حتى يحوّل ضعفهم وشناتهم

الى قوّة يستعملها لغزو الفرس الذين طالما قهروا اليونانيين وأهانوهم. وهو يشعر بأنه أهل لتبتيّ قضايا اليونان. وهو يعتبر أن الحضارة اليونانية هي الحضارة المثلى التي ينبغي أن تنتشر وتوسد. واغتتم لنشر نفوذه ضعف المدن الثلاث الكبرى : أثينا وإسبرتا وثيبي التي أسكنها الحروب فيما بينها وأفقرتها القلاقل والعنّ ومساویرات الفرس.

وبدأ فيليبوس يتوسع شيئا فشيئا يعين بعض المدن على الأخرى أثناء حروب طويلة تقطعها فترات سلم مفروضة من طرف فيليبوس مكنته من الاستيلاء على الموانئ والمدن. ودامت تلك الحروب قرابة عشرين سنة وكلّلت بمعركة حيروني سنة 338 ق.م. التي هزم فيها فيليبوس الثيبين والأثينيين المتحالفين لمقاومته وأرغمهم على إبرام معاهدة صلح معه.

وفي سنة 337 ق.م. اجتمع ممثلو جميع المدن والاقطار اليونانية بدعوة من فيليبوس في مدينة كورنثة وأسسوا منظمة فديرالية تجمعهم باستثناء مقدونيا وأكدوا على استقلالية كلّ قطر بالنسبة الى الآخر وعلى محافظتهم على أنظمتهم السياسية وتقاليدهم الاجتماعية ولكن عيّنوا فيليبوس رئيسا لهم وقائد اليونانيين الأعلى في حالة الحرب. وأعلن فيليبوس لممثلي اليونانيين أنه سيثأر لهم من الفرس.

ولكن عاجله الموت فلم ينفذ خطته لأنه اغتيل في مدينة أيقاي العاصمة القديمة لمقدونيا سنة 336 ق.م. (35) **الكبرى :** هم آلهة الحصص القدماى الفريجين سبة الى مقاطعة فريجيا في الأناضول هذا ما كان يعتقد اليونانيون. وأضافوا أنهم آلهة الدفائن والكنوز والماسجم في أعماق الأرض وبالتالي آلهة مسيطرون على القوى الخفية التي تكمن في أعماق الأرض وتثور أحيانا في صورة رلازل أو براكين. ولذلك سموهم «بالآلهة العظام» واحتمى بهم الحدادون والعَمال الذين يتعاطون صناعة تدوير المعادن. ولهم معبد مشهور في جزيرة ساموثراكي هو مركز نبوءات يؤمّه الجميع للتطهر واكتشاف الغيب وأسرار الكون عن طريق عادات سرية تتمحن فيها قدرات المریدين النفسية وتكتسي أحيانا مظاهر مزعجة لا نعرفها الا بصورة غامضة بسبب سرية ذلك النوع من العبادة.

(36) **ساموثراكي :** جزيرة يونانية تقع في الجالب الشمالي للبحر الإيبي بين طراقيا وجزيرة امبروس في نقطة التقاء بين ثلاثة عوالم وثلاث حصارات : العالم الطراقي العنيف شبه المتجمع وعالم الأناضول الزاخر بالديانات الآسيوية والعالم اليوناني بدينه الوثني المميز.

(37) **إبيروس :** إقليم يقع على طرف بلاد اليونان معزول عنها بجبال يعسر احتراقها، وتقسم الاقليم الى مقاطعات منعزلة عن بعضها جبال تتقاطع طولاً وعرضاً تطلّ على أودية عميقة. وكان الأبيريون والأليريون يحاولون فرض هيبتهم على مقدونيا. وقد يكون رواج فيليبوس الثاني ملك مقدونيا من أولمبياس أخت ألكسندروس ملك ابيروس طريقة لصمدّ عدوان المملكة المخاورة واستألتها.

(38) **معابد مصر :** كانت مصر ترزح تحت نير الفرس منذ أن احتلّها قمير سنة 525 ق.م. وثارّت ضد المحتلّين مرّات وقاست من القمع ومن امتهان الفرس لمعتقداتها ومن تعدياتهم على المعابد وكهنتها. ولما قدم الاسكندر وفرت أمامه جود الفرس المرابطون في المعازل على الحدود المصرية وأسلم له والي الفرس البلاد استقبله المصريون استقبال المنقذ لهم. فمنع حيشه عن النهب وأمر جنوده باحترام المعابد وكهنتها. ونزل بعاصمة منفس المدينة المقدّسة وقدم القرابين في المعبد للثور المقدّس أبيس تقرّبا لآلهة مصر وارضاء لساكنتها وكهنتها. وأعلن كهنة منفس بأن عهد الظلم قد ولى وإن مصر تستقبل في شخص الاسكندر فرعونا جديدا خليفة الاله آمون في الأرض. ووقع تنويع الاسكندر في معبد ناه (القوّة الالهية المسيرة لشؤون البشر) بحضور رئيس كهنة الاله الأكبر آمون الذي قدم حصيصا من طيرة المدينة ذات المائة ناب مدينة آمون المقدسة التي كانت تقع في صعيد مصر في مكان الكرنك والاقصر ومحصور جميع كهنة معابد منفس. فالاسكندر

بقي متأثراً طيلة حياته بتلك الطقوس الدينية الضاربة في القدم التي تصل بين عالم اللاهوت والشر وتعمل من فروع ظل الاله آمون على الأرض وهابيه الروحي. وقد أثرت في نفسه بالخصوص بعد تنويمه ريارته لمعبد آمون ومركز نبوءته في واحة سيوة في صحراء مصر. استقبله كهنة المعبد بمحاوة. وأحرجوا له ولصنائه صمم آمون محمولاً في رورق ترمعه الراهبات فوق رؤوسهن. وكان الكهنة يحجبون عن أسئلة الزائرين تأويل حركات الصنم الذي تحركه الراهبات وهن يطفن به. ومكن الكهنة الاسكندر بعد ذلك من المثول وحده أمام آمون في أقصى المعبد وجرى بينهما ما لم يعلمه أحد. وخرج الاسكندر من البيت الخفي الذي يحفظ فيه صم الاله وهو حامل قريب من ذهب أصبح يشدهما أحياناً الى حانتي رأسه تحت حودته. وقد رسم رأس الاسكندر فوق القود المضروبة في عصره وهو يحمل قرين.

(39) أبو الهول : هو تمثال أسد رابض ماذا ذراعيه. وجهه وجه انسان. تعددت تلك الصورة الرمزية في مصر.

أشهر هذه التماثيل هو أبو الهول الرابض بالحيزة قرب أهرام مصر.
(40) الهندوكوش : سلسلة من الجبال الشاهقة يبلغ أحياناً ارتفاعها ستة آلاف متر بالنسبة الى سطح البحر وهي بجانب جبال حملايا في آسيا الوسطى.

(41) أكرولانيا : إقليم يقع في وسط البلاد اليونانية ويشمل المنطقة الواقعة بين خليج أكسيوم غرباً وخليج كورنث شرقاً يشقه نهر أجيلوس وهو أطول أنهار البلاد ويبعد من وسط إقليم إبيروس وينصب في الطرف الغربي من الخليج الكورنثي.

(42) ميازا : اسم يطلق على القصر الملكي المقدوني ببيلّا.

(43) هوميروس . شاعر يوناني أعنى يشك في حقيقة وجوده وفي العصر الذي عاش فيه. إليه تنسب ملحمتان وهما الإلياذة والأوديسا وبعض الأناشيد الدينية.

(44) الميديون : هم سكان إقليم ماداي أو (ميديا) الذي يسميه جغرافيو العرب إقليم الجبل. وعاصمتهم في أيام مجدهم إككتانا (وهي همدان حالياً). ذكر الميديون لأول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد في حوليات الملوك الاشوريين وبالضبط في حوليات الملك الاشوري سلمنصر الثالث وفي سنة 835 ق.م.

والميديون كانوا يكتنون في بداية أمرهم قبائل هندوأوربية انسابت مع قبائل أخرى من بني أعماهم الفرس من روسيا الجنوبية الى المرتفعات الشمالية الغربية من إيران الحالية عبر القوقاز. ويندو — اذا اعتمدنا الحوليات الاشورية — أن الميديين احتلوا المناطق الحصنة من إقليم الجبل حيث تكثر المياه الجارية والعيون الفوّارة وتحولوا من أقوام رحّل رعاة الى مزارعين مستقرين أخذوا يعتنون بعرس الأشجار المثمرة وتربية الماشية فصلاح حالهم وتحول فقرهم وترحالهم الى غنى ودعة. وتأثروا بالحضارة الاشورية وكوّن رؤساء عشائرتهم دويلات ميديّة كانت جميعها تابعة لملك آشور. أما بو أعماهم من الفرس فقد وجدوا أنفسهم منزعجين في المناطق الجبلية الوعرة المجردة التي لم تمكنهم من العيش الرخّي.

ووقع توحيد جميع عشائر الميديين في القرن السابع قبل الميلاد تحت راية قائد واحد وهو ديوكيس. وخلفه على عرش ماداي ابنه فراوتيس الذي أتم توحيد المملكة معتمداً ما أصاب مملكة آشور من إعطاط ووهن. فاحتوت مملكته على إقليم واسع يمتد في اتجاه الشرق من همدان الى دماوند وفي اتجاه الجنوب من همدان الى مفارة إيران الوسطى. وهرض نفوذه على بني أعماهم من الفرس الذين أسسوا مملكة صغيرة في منطقة بارسوماش.

واستطاع الميديون بعد ذلك أن يقصوا على مملكة آشور وأن يحرقوا عاصمتها نينوى سنة 612 ق.م متعاونين في ذلك مع الكلدان. واستولى الميديون على الجانب الشرقي من إقليم ما بين الرافدين. وطوّأهم

يقدر على تعويض مملكة الأشوريين في ساحة الشرق الأوسط وأخذوا يسرون سويتهم الى أن أطاح بهم كورس الكبير ملك الفرس وضمهم الى مملكة فارس سنة 550 ق.م.

ولم يصح استيلاء الفرس على مملكة ماداي مجارر أو حرائق بل عامل الفرس ببى أعماهم بالحسى وأبقوهم على عاداتهم وتقاليدهم ونظمهم السياسية والادارية وأشركوهم في الملك. وكان الشعب الميديي يتمتع من بين الشعوب الخاضعة لسلطان الفرس بامتيازات خاصة. وكان يذكر الميديون دائما بجانب الفرس ويسود بهم حتى أطلق اليونانيون على الحروب التي حرت بينهم وبين مملكة الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد اسم الحروب الميديّة لصعوبة التفريق بين الفرس والميديين خصوصا أن الفرس تنوّا عادات الميديين في طريقة العيش واللّباس لأن الميديين كانوا أعرق من الفرس في الحضارة.

(45) أبقاي : اسم العاصمة القديمة لمملكة مقدونيا قبل أن ينتقل ملوكها الى بيلّا.

(46) إسبرتا : تقع مدينة إسبرتا جنوبي شبه جزيرة السيلونيسوس (البيلوبونيز) في إقليم لاكونيا الذي تعزله الجبال عن بقية بلاد اليونان. كان هذا الإقليم مع عاصمته إسبرتا في قديم العهود مملكة منلاوس وهييني. كان مجتمع مدينة إسبرتا مجتمعاً محافظاً وقاسياً. وكانت نظمها السياسية وتقاليدها الاجتماعية تركز وتؤكد الفوارق بين الطبقة الارسطوقراطية «طبقة المتساوين» وجمهور الشعب الكادح في الحقوق الذي لا يسمح له بالخروج من وضعه والآلاف من العبيد الذين لا يملكون رقابهم. وقد كان حمل السلاح والتدريب العسكري مقصوراً على الطبقة الارسطوقراطية فأصبح جيش اسبرتا قادراً على إخماد الفتن الداخلية وعلى المشاركة الفعّالة في الحروب الخارجية. وقد نامست إسبرتا أثينة على رعاية بلاد اليونان فتحالت معها حيناً ولعترات قصيرة لصعد العدوان الفارسي وحاربتها أحياناً خاصة في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد أثناء حروب طويلة دامت ثلاثين سنة وأضعفتها معاً، أطلق عليها اسم «حرب السيلوبونيز» (431 - 404 ق.م.).

(47) بلاد الكلدان : هو اسم قديم لمنطقة ما بين النهرين الجنوبية أي بلاد سومر وأكّاد. عاصمتها بابل ومن مدنها القديمة أور. احتضنت بلاد الكلدان حضارات عريقة ضاربة في القدم اشتهرت بازدهار العلوم وخاصة بها علم الفلك والسحر أيضاً.

(48) طروادة : اسم قديم لإقليم من أقاليم الأناضول عماد لمضيق الدردايل. عاصمته إليون.

(49) برفامون : مدينة قديمة في إقليم ميسيا من أقاليم الأناضول. مركز حضاري ممتاز نال شهرته من مكتبته الشهيرة. تأثرت منذ العهود القديمة بالثقافة اليونانية.

(50) البيلوبونيز (البيلوبونيسوس باللغة اليونانية) ومماها جزيرة بيلوس. وبيلوس هذا شخصية أسطورية وهو أبو أتريوس وجده أقامنون القائد الأعلى في الحرب الأسطورية التي شنها اليونانيون على إليون بإقليم طروادة. ويعرف البيلوبونيز اليوم باسم شبه جزيرة موريا. وهذا القسم من أرض اليونان معزل عن بلاد اليونان الوسطى والشمالية يفصل بينهما برزخ كورثة الضيق. وتقل في ساحل البيلوبونيز الموانئ الهامة التي تيسر التواصل والاتجار. فكانت المنطقة في العهود القديمة معزولة وفقيرة.

(51) أثينة : مدينة أثينة هي قصبة إقليم أتيكا وإقليم أتيكا هذا هو شبه الجزيرة المثلثة الشكل التي تمتد الى داخل البحر من جنوب إقليم بويوتيا تفصلها عن هذه الأخيرة سلسلة من الجبال المتصلة. وتقع هذه المدينة في أوسع منطقة صالحة للزراعة تحترقها طرق سهلة مما ييسر للمدينة الهيمنة على كامل الإقليم وفرص نفسها كمقر للحكومة المركزية وكانت أثينة تستغل مناجم للفضة مكّتها من ضرب عملة فضية «الدراخما الاثينية» كان لها الأثر البعيد على تنمية اقتصاد المدينة والإقليم معاً. وان قرب أثينة من ميناءي هالرون وبيرية أهل سكانها للاتجاه الى البحر والاتجار. وأحرزت بفضل تلك الميراث على سيادة اليونانيين وزعامتهم في البحر.

وقد كانت مركزا للحضارة اليونانية لا يضاهيه أي مركز آخر. فيها اردهر المسرح اليوناني بأعلام كبار مثل أيسكيلوس وسوفوكليس. وأوريبيديس وأرسطوفانيس. وفيها بلغت الفلسفة اليونانية أعلى قممها مع سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس. وفيها شكلت التّحّات فيدياس تمثيله العجيبة وفيها اردهرت مدرسة رسّامين وصنعوا صورا وزخارف على أواني الحرف تعجّ بها اليوم متاحف العالم. وان دستوروا الديموقراطي مارال مرجعا يُحتدي في محال الأنظمة السياسية

(52) الهلسيون : هو الاسم اليوناني القديم لمصيق الدردانيل.

(53) بوسيدون : إله البحر عند اليونانيين. عندما اقتسم الأخوة الثلاثة الكون بالاقتراع كانت السماء من نصيب

زيوس وباطن الأرض مع عالم الأموات من نصيب هاديس والبحر من نصيب بوسيدون.

كان يمثّل راكبا عربية تجرّها على سطح البحر مخلوقات أسطورية لها وجوه البشر وأحسام الدلافين وماسكا بيده حرية ذات ثلاثة أشواك يستعملها عادة صائندو السمك. فتلك الحرية المميّزة هي شعار إله البحر بوسيدون.

(54) زيوس : هو الإله الأكبر وسيد البشر والآلهة معا. اسمه مشتقّ من الضياء أو السماء الصحو. هو إله السماء

يرسل منها المطر ويشعل فيها البرق ويرل منها الصواعق ويرعد هيبث الفرع في الثّمس.

كان الصولخان شعاره والعقاب طائرته والصاعقة سلاحه الرهيب ما يعاقب من طعى وتجبر. وينسب اليه أيضا شجر السديان أعظم الأشجار. قوته تفوق قوّة الآلهة الآخرين جميعهم. وهو أبو الآلهة والنّاس والحاكم العادل. وكان يقطن في أعلى جبل أولمبوس تحيط به الآلهة كما تحيط الحاشية بالملك.

(55) أثينا : هي إلهة عدراء مقاتلة خرجت لابسة الدرع وماسكة الرمح من دماغ أبيها زيوس سيد الآلهة. فلم

تسجبا أم. ولم تتروح بل بقيت إلهة فتاة تتقن السجج والتطريز فتسهر على أعمال العتبات في مازلهنّ وتحمي أصحاب الحرف والصناعات.

تمثّل في صورة فتاة تحمل الخودة وتمسك الرمح وتلّس درعا من حلد الماعر يتدلّى منه رأس القرقوبا المرع الذي يترك كل من يراه مهوتا لا يدي حراكا والقرقوبا شخصية حرافية احتزّت أثينا راسا البشع الذي تعلوه حيّات حلت محل الشعر.

أثينا هي حامية مدينة أثينة. اشتق اسمها من اسم المدينة بنى لها أهل أثينة معبد البرثيون الشهير الذي مارالت حواسب منه قائمة الى اليوم (ولفظ البرثيون مشتق من لفظ برثيوس ومعناه العدراء) والإلهة كما هو معلوم إلهة عدراء.

تتارعت مع عمّها بوسيدون إله البحر على سيادة إقليم أثيكا حيث تقع مدينة أثينة. فرأى بوسيدون أن يظهر نعمته على أثيكا بأن ضرب بحرته المثلثة الأشواك صخرة الأكروبوليس (المدينة العالية) فتفحرت منها عين ماء أجاح ثم برر من الصخر الحصان وتقدمت أثينا فغرست شجرة الزيتون. فحكم ملك أثيكا لصالح أثينا لأنها وهبت أثيكا ما هو أنفع لها وبسى لها معبدها على صخور الاكروبوليس وأصبحت مند ذلك اليوم إلهة المدينة.

شعار أثينا شجرة الزيتون وكذلك الحيّة والبومة. وهذان الحيوانان يسكنان صخور الأكروبوليس وصبرت مدينة أثينة نقودا فضيّة تحمل صورة البومة وسميت «دراخما» ومنها اشتق العرب اسم الدرهم.

(56) هراكليس أشهر أبطال اليونان الخرافيين. قيل أنّه ابن لزيوس من امرأة اسمها ألكمين. وكان يمثّل منرلة

وسطى بين الآلهة والبشر. لاحقه عصب هيرا روحة زيوس لأنّه كان ابنا غير شرعي لزوجها فأوحت الى ملك أرفوس أن يكلفه بأعمال حطرة علّها تزهد روحه وهو يؤدّي احداها. فقام هراكليس نائني عشر عملا طويلا عدّها القدماء أشهرها حمله السماء على ظهره لحظات بدل العملاق أطلّس الذي تسب

اليه جبال الأطلس وشقّه مضيقا يصل المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط الذي يسمى اليوم بمضيق جبل طارق وكان يسمى في العهود القديمة عمودي هراكليس. وكان فيليبوس الثاني ملك مقدونيا يدعي أنه من سلالة هراكليس

(57) ديموستينيس (384 — 322 ق.م.) رجل سياسة خطير وحطّيب أثيني مصقع قضى حياته كلّها في مكافحة المدّ المقدوني بقيادة فيليبوس الثاني ثم انه الاسكندر الكبير. وكان يتنازع المدينة في عهده حزبان : حزب موال لمقدونيا يدعو الى التصالح معها والرضا بالحلّول الوسطى وحزب ثان يتزعمه هو يدعو الأثينيين الى مقاومة مقدونيا دون هوادة وبشتّى الوسائل ولو أدّى ذلك في بعض الحالات الى التواطؤ مع الفرس. ولد بأثينة وكان أبوه صانع سلاح جمع ثروة عظيمة وكانت أمّه من إقليم طراقيا المتاحم لمقدونيا من جانبها الشمالي الشرقي. فكان أعداؤه يعتبرونه بأمة الأحسية ويعتبرونه هجيا. ومات أبوه وكان ديموستينيس لم يبلغ السابعة من عمره. فاستولى على ثروته الأوصياء. وحاول عدما بلغ سنّ الرشد استرجاع الثروة التي خلفها أبوه فلم يفلح. وتعاطى مهنة محرّر مرافعات لم يقصده من المتقاضين. وفي سنة 355 ق.م. بدأ ديموستينيس يشتعل بالسياسة اما بتحرير خطب يطلبها منه رجال السياسة أو بالدفاع عن بعض القضايا باسمه الخاص أمام مجلس الشعب.

وتفرّج ابتداء من سنة 351 ق.م. للعمل السياسي. وانقطع لمقاومة فيليبوس الثاني ملك مقدونيا ومحاولة تأليب الرأي العام الأثيني عليه وحمر همم مواطنيه حتى يجمدوا جميع طاقاتهم لمحارته وحثّ غيرهم من اليونانيين على مساندتهم. وكان ذلك عن طريق خطب نارية كان يلقها في مجلس الشعب الأثيني مشعرا بأعمال ملك مقدونيا العدائية داعيا الى مقاومته مقاومة مستميتة ومهاجما من يدعون الى مهادنة والتعايش السلمي معه.

وعندما مات فيليبوس واعتلى الاسكندر العرش تحالفت أثينة مع ثيباي لتحريض من ديموستينيس ولم يزل ديموستينيس رعم ابرام معاهدة صلح مع فيليبوس قبلها عن مضص يهاجم الملك المقدوني ويطوف ببلاد اليونان مؤلّبا عليه الناس حتى هجم فيليبوس على اليونانيين المتحالفين وهزم حيوشهم في معركة خيروفي سنة 338 ق.م.

وعندما مات فيليبوس واعتلى الاسكندر العرش تحالفت أثينة مع ثيباي لتحريض من ديموستينيس ظلّا منهما أن الملك الشاب الذي كان يقاوم هتتا متعددة ثارت بعد موت أبيه لن يستطيع التغلب عليهم. ولكن الاسكندر انقضّ عليهم وهم جيش التيبين هزيمة بكراء وسوّى مدينة ثيباي بالأرض وقتل أهلها وسى ساءها وأطفالها وباعهم في أسواق العبيد. ولم يمس أثينة بسوء تقديرا لدورها الرائد في الدفاع عن الأرض اليونانية ضد الفرس واعجابا بحضارتها المشرقة واكتفى بأن طلب من الأثينيين أن يسلموا له عدوّه الألدّ وعدو أبيه ديموستينيس. ولكنّه سحب طلبه فجاء الخطيب من سورة غضب الاسكندر.

وتمادى ديموستينيس في مناوئة المقدونيين أثناء زحف الاسكندر على آسيا. وقدم الى أثينة في سنة 324 ق.م. هاربالوس حارن الاسكندر شمال عظيم اختلسه من مدينة السوس وأخذ يحرّض الأثينيين على محاربة الاسكندر. فوقع احتجار الأموال المحتلّة وألقي بالخالن في السجن. وأنهم ديموستينيس بالاستيلاء على جانب من المال المسروق. فأرغم على معاداة أثينة للأقامة بحرية أيقينا وذلك سنة 323 ق.م.

وعندما أتى بأ موت الاسكندر ظنّ الأثينيون أن الظروف أصبحت ساحة لشق عصا الطاعة في وجه حلفاء الاسكندر الذين انقسموا الامبراطورية التي كوّنوها بحزمه. فأرسلوا سفينة الى جزيرة أيقيا لتعود

بديموسثينيس. ولكنّ حليفة الاسكندر على الجزء الاوربي من الامبراطورية أنتيباتروس رحف على أثينة وأرغم أهلها على إزالة النظام الجمهوري.

وقرّ ديموسثينيس الى حرية كالوريا. وأرسل اليه أنتيباتروس حودا لاغتياله فسمّ نفسه في معبد بوسيدون بالحرية وذلك سنة 322 ق.م.

(58) قرانيكوس : نهر صغير قريب من الساحل الشمالي الشرقي للأناضول بصت في نهر مرمر

(59) إيونيا يقع هذا الاقليم على الساحل العربي للأناضول وفي المنطقة الوسطى منه يسكنه الايونون وهم شعب من شعوب يونان هاجروا من شبه جزيرة البيلوبونيز ثم من إقليم آتيكا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد تحت ضغط هجرات الشعوب اليونانية الاخرى كالاحيين والدوريين التي كانت تندفق من المناطق

الشمالية الجبلية الفقيرة نحو مناطق الجنوب الاكثر حصونة
حلّ اليونانيون بالمنطقة الساحلية الآسيوية المشرفة على حلججان سمورنا (إزمير) وإيسوس وميليتوس كما حلّوا أيضا بجزيرتي جيوس وساموس القريتين من الشاطئ. وشيدوا بها اثنتي عشرة مدينة كبرى هي: ميليتوس وإيسوس وكلوفون ومويسوس وبريبي ولييدوس وتيبوس واكلادروميياي إروثراي وفوكايا وساموس وحيوس.

وقد كانت تلك المدن الساحلية تقع وسط أرض خصبة تستعملها لسدّ حاجات سكّانها الى المواد الغذائية وتسطير بفضل موانئها وأسطولها على حاسب هام من الحركة التجارية في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط. فشهدت في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ازدهارا اقتصاديا عظيما وهضة فكرية ومبة لاتضاهي.

وكانت تدبى بالولاء في ذلك العهد الى مملكة ليديا التي كانت مسيطرة على المنطقة الوسطى من بلاد الاناضول. إن تلك المملكة التي اتحدت مدينة سريديس عاصمة لها وصربت أولى الدناير الذهبية التي عرفها العالم قد بلغت مستوى من الثراء والازدهار جعلها مضرب الامثال في العالم القديم.

كان آخر ملوكها كريسوس (قارون) صاحب قناطر مقنطرة من الذهب والفضة اكتسبها بفصل استغلاله لكميات هائلة من الذهب كان يستخرجها من مياه نهر باكتولوس وحاصة بفصل وقوع مملكته على طريق تجارية هامة كانت تصل آسيا الصغرى بمدينة بابل ومنطقة الخليج حيث كانت تجمع بضائع الهند وأقاصي آسيا الآتية عن طريق البحر أو البر.

وقد قامت المدن الايونية بدور الوسيط التجاري أيضا بين مصر الفرعونية وبابل الكلدانية. فكست كثيرا واستطاعت انشاء حضارة يونانية طريفة ومميزة أشرقت في الضفّة الآسيوية ومهدّت للعصر الذهبي اليوناني الذي سطعت أنواره في أثينة في القرن الخامس قبل الميلاد.

وعندما أطاح ملك فارس كورس الكبير بمملكة ليديا في أواسط القرن السادس قبل الميلاد احتلّ الفرس مدن إيونيا. وكانت ثورة تلك المدن ضدّ الفرس في سنة 499 ق.م. سبب إندلاع الحروب الميدية بين مملكة فارس والشعوب اليونانية.

واحتضنت مدن إيونيا حركة علمية وفلسفية طريفة سبقت عهد ازدهار الفلسفة اليونانية في أثينة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

فعلماء إيونيا وفلاسفتها قد أتوا في عصرهم أي في القرن السادس وفي النصف الاول من القرن الخامس ق م. فافكار حرية ومتقدمة أثرت الفكر الانساني ومارالت تأثير عجب الناس وإعجابهم لتطابقها مع أحدث اهتمامات العلم في عصرنا. ومن عريب الصدف أنّ علماء المسلمين القدامى الذين اطلعوا مثل الشهرستاني على حاسب من إنتاجهم عن طريق التراجم الى اللغة العربية أحسّوا بأنّ أولئك المفكرين الايونيين قد فتحوا

للعكر الاساسي في عهد مبكر آفاقا واسعة ومن المؤسف أن آثارهم قد صاعت ولم تبق منها الاشذرات
تناقلها مؤرخو الفلسفة القدامى وأصحاب التراجم الداتية.

وربما تحصل بعض العائدة اذا ذكرنا بعضهم معتمدين في عرضنا على ما بقي لـ من النصوص من
جهة وعلى ماأورده الشهر ستاني عن بعضهم في القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر الميلادي) من
جهة أخرى. وقد يكون الشهر ستاني مطلقا في عصره على نصوص فقدت اليوم.

بوثاقوراس : ويسميه العرب فيثاغورس على عادتهم في قلب الاء الخففة الى ماء والقاف الى عين.
ولد بوثاقوراس بجزيرة ساموس. وكان ابوه صائغا ونحات أحجار كريمة. قصى شأنه مترحلا في الحزر
اليونانية ومن بلد الى آخر في آسيا. وكثيرا ما تردّد على مصر الفرعونية وأقام بها فترات طويلة اتصل فيها
بعلمائها وكهنتها. وكانت العلاقات بين حكام جزيرة ساموس وأمايس فرعون مصر متواصلة حميمة حتى
أن هذا الأخير سمح لاهل الحرية بالاستيطان بالدلتا لتعاطي التجارة فحسب فشيّدوا مدينة لهم سئوها
نوكراتيس كان يؤمها التجار من مختلف اصقاع البلاد اليونانية وربما كان بوثاقوراس يتعاطى مهمة ممثل
تجاري في المجوهرات يعرض في مختلف الاقطار ما كان يصنعه أبوه من الخلي. وهاجر في آخر حياته الى
مدينة كروتونا اليونانية التي كانت تقع في جنوب ايطاليا حيث التف حوله المريدون وأسّس معهم مدرسة
فلسفية واصلت أمثاتها وتأملاتها بعد موته وأحرزت على شهرة واسعة في العالم القديم.

يقول عنه الشهر ستاني : «هو الحكيم الفاضل ذو الرأي المتين والعقل الرصين. يدّعي أنه شاهد العوالم
العلوية بحسّه وحده. وبلغ في الرياضة الى ان سمع حفيف الفلك ووصل الى مقام الملك.

وقال : ما سمعت شيئا قطّ ألذّ من حركاتها ولا رأيت أبهى من صورها وهيئتها» (الشهر ستاني : الملل
والحلل ح 2 - ص 74) يرى بوثاقوراس أن كلّ شيء يعود الى العدد.

فالمصور الثابتة وحركات الكواكب لها مقاييس تقاس بها. والنرات الموسيقية أيضا. وتوسّع في التأمل في
الاعداد المردية والاعداد الزوجية واستنتج من تأملاته استنتاجات.

يقول الشهر ستاني: «ثم إن لفياغورس رأيا في العدد والمعدود وقد خالف فيه جميع الحكماء قبله وحالفة
فيه من بعده. وهو أنه جردّ العدد عن المعدود تجريد الصورة عن المادّة. وتصوره موجودا محققا وحرّد
الصورة وحققها وقال: مبدأ الموحودات هو العدد (نفس المرحع ج 2 - ص 75)

ثاليس : ويسميه العرب ثاليس. هو عالم رياضي وفيلسوف من مدينة ميليتوس. ولد فيها حوالي سنة
640 ق.م. وأسّس بها مدرسة فلسفية سميت بمدرسة ميليتوس انتسب اليها أنكسيما بدروس
وأنكسيميميس.

كان يرى أن المبدأ الاول للموجودات هو الماء. يقول ثاليس في احدى المقطوعات التي وصلت
اليها: «ومن العجب أنه نقل عنه (أي عن ثاليس) أن المبدع الاول هو الماء. فقال الماء قابل لكلّ صورته
ومه أندع الجواهر كلّها من السماء والارض وما بينهما. وهو علّة كلّ مدع وعلّة كلّ مركّب من العنصر
الجسماني. فذكر أن من جهود الماء تكوّنت النار ومن الدخان والابخرة تكوّنت السماء ومن الاشتعال الحاصل
من الاثير تكوّنت الكواكب فدارت حول المركز دورات المسبّب على سببه بالشوق الحاصل اليه».

(نفس المرحع ح 2 - ص 63)

أنكسيمينيس : ويسميه الشهر ستاني أنكسيماس. وهو عالم وفيلسوف من مدينة ميليتوس أيضا. لا
نعرف أي شيء عن حياته كان مثل ثاليس يبحث عن المبدأ الاول للموجودات. فكان يدعي أنه الهواء.
يقول عه الشهر ستاني كلاما مطافا لما بقي لنا من آثاره الفلسفية ما يلي: «ونقل عنه أيضا أن الاوائل
من المدعات هو الهواء. ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الاحرام العلوية والسفلية. فقال: ما كوّن

من صفو الهواء المحض لطيف روحاني لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد ولا يقبل الدس والخث. وما كَوّن من كدر الهواء كثيف جسماني يدثر ويدخله الفساد ويقبل الدس والخث. فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه. وذلك عالم الروحانيات. ومادون الهواء من العوالم فهو من كدره. وذلك عالم الجسمانيات. وهو كثير الاوساح والاوزار يتشبه به من سكن اليه فيمنعه أن يترفع علواً. ويتخلص منه من لم يسكن اليه فيصعد الى عالم اللطافة دائم السرور»

(نفس المرجع ج 2 — ص 67 و 68)

كسينوفانيس : شاعر وفيلسوف نشأ في مدينة كلوفون وهاجر من موطنه في آسيا الصغرى الى جنوب إيطاليا حيث ألف معظم كتبه التي لم تنق منها إلا شذرات موزعة في المصنفات. كانت نظرياته في الطبيعة قريبة من نظريات أنكيسماندروس. ولكنه تميز بين فلاسفة إيونيا بنقده الساخر للمعتقد الوثنية ويدعوته الى توحيد الخالق وتزييه. يقول كسينوفانيس : « لا إله إلا الاله الواحد الملك المهيمن على الآلهة والعباد جميعا الذي لا يشبه البشر العاني مطلقا »

هراكليتوس : فيلسوف من مدينة إفيوس عاش في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان من أعمق فلاسفة إيونيا ان لم يكن أعمقهم ولو حيم على أفكاره شيء من الغموض. المبدأ الاول للموجودات في نظره هو النار. فالنار تتحول في حركة الى اسفل الى ماء وتزاد وكلاهما يتحول في حركة الى اعلى الى نار. فهو فيلسوف الحركة الدائمة والتحول المستمر. وما الاسهام الا حركة تؤلف بين عناصر متصادمة. والضرورة صراع بين المتقابلات يقول هراكليتوس : « ما هو مضاد نافع. وأجمل المركبات المتنافسة نتيجة صراع بين عناصر مصانة فكل شيء يشأ عن صراع »

أنكساقوراس : فيلسوف من مدينة إكلادزومياني. ولد بها في بداية القرن الخامس قبل الميلاد. وتوفي في سنة 428 ق.م. وعاش بأثينة حيث درس الفلسفة مدة ثلاثين عاما. ركز أنكساقوراس تعاليمه على العقل الفعال (نوس باللغة اليونانية). لا يفهم سر الوجود إلا اذا اقتنعنا بوجود قوة ذات إدراك تطعم عناصر الكون المختلفة وهذه القوة صفات ثلاثة : وحدة الكيان والقدرة والعلم.

يقول الشهر ستاني عن أنكساقوراس (هكذا يعرب اسمه) : وحكي أنه قال : كانت الاشياء ساكنة ثم إن العقل رتبها ترتيبا على أحسن نظام. فوضعها مواضعها من عال ومن سافل ومن متوسط. ثم من متحرك ومن ساكن ومن مستقيم في الحركة ومن دائر. ومن أفلاك متحركة على الدوران ومن عناصر متحركة على الاستقامة. وهذه كلها بهذا الترتيب مظهرات لما في الجسم الأول من الموجودات « (نفس المرجع ج 2 — ص 65 و 66)

(60) **إفيوس** : مدينة قديمة في إقليم إيونيا على ساحل الاناضول اشتهرت بمعد أرتميس الذي أقيم بها وكان يعد من بين عجائب الدنيا السبع.

(61) **أرقيس** : هي اسة كبير الآلهة ريوس من آدمية اسمها ليتو والشقيقة التوأم لاله الشمس أبّلون. وهي العدة عذراء وسيدة الحيوانات البرية وحامية صغارها ومروضة الوحوش. وهي ايضا إلهة الصيادين. وكانت الى جانب هذه الصفات إلهة القمر

يتمثلها اليونان في صورة فتاة عذراء تقضي وقتها مع رفيقاتها العذراى مثلها في القصص في البراري نهارا وفي الرقص معهن ليلا تحت أشعة القمر. وكان سلاحها المفضل القوس وكانت ماهرة في الرماية.

كانت هذه الربة في الاصل عبر يونانية عندها سكان البلقان قبل عحي اليونانيين الى بلاد اليونان وعندها سكان الاناضول وسكان حريرة كريت في العصر الميوسى كسيدة الحيوانات البرية تمثل محاطة بالأسود على

- بعض القطع النقدية . وكانت تسمى « كييلي » في إقليم فريجيا في الأناضول أيضا . « ما » في إقليم كندوكيا في الأناضول أيضا . وربما سمّاها اليونانيون أرغيس لأول مرة في مدينة إيسوس حيث كان لها معد مشهور .
- (62) **سرديس** تقع هذه المدينة في الأناضول حوالي حل إتمولوس . ويشقها هر بكتولوس . كانت قلعة مبيعة وعاصمة للملك ليديا . دمرها الكيمريون سنة 652 ق.م . واستولى عليها كورس الكبير ملك الفرس سنة 546 ق.م . فأصبحت قصبة ولاية ليديا الفارسية
- (63) **مقيسيا** : مدينة يونانية قديمة في إقليم ليديا . تسمى اليوم ميسا .
- (64) **تركيس** : مدينة يونانية في إقليم كاريّا من بلاد الأناضول .
- (65) **موكالي** : اسم قديم لجل آسيا الصغرى مطّل على بحر إيجه في طرف شبه جزيرة صيغّة تمتدّ كاللسان وتقع وسط إقليم ايونيا الساحلي وتقابل جزيرة ساموس . وكان هذا الحبل معد يؤتمه الايونيون ليقوموا فيه طقوسا دينية تؤكّد تضامهم ووحدتهم . ولذلك كان يسمى المعبّد « نانيوبيون » ومعناه مجمع الايونيين .
- (66) **هليكرنسوس** : مدينة يونانية قديمة في إقليم كاريّا من بلاد الأناضول . تسمى اليوم بودرم . اشتهرت في العهد القديمة باحتوائها على ضريح الملك موسولوس الذي بنته تخليدا لذكره زوجته الملكة أرتميسيا وذلك سنة 353 ق.م . وكان ذلك الضريح يعدّ لحمله من بين عجائب الدنيا السبع .
- (67) **لاكيديمونيا** : هو اسم ثان لمدينة إسبرتا .
- (68) **داريوس 335 — 330 ق.م.** هو داريوس الثالث وآخر ملوك فارس من سلالة الأخمينيين . اعتلى عرش فارس سنة 335 ق.م . هزمه الاسكندر المقدوني في معركة إسّوس بسوريا سنة 333 ق.م . ثمّ في معركة فوقملا في إقليم ماداي سنة 331 ق.م . وقتل غدرا في سنة 330 ق.م . أثناء هراة في اتجاه المناطق الشرقية من مملكته عندما علم بقدوم الاسكندر عائدا من إقليم فارس بعد استيلائه على ارسببوليس عاصمة مملكة فارس واحراقها . قتله ابن عمّه ستّوس مرزبان إقليم باكترياني (حراسان) .
- (69) **قرديون** : مدينة قديمة من مدن بلاد الأناضول كانت على صفة هر سافاريوس . كانت تلك المدينة الحصينة عاصمة لمملكة فريجيا . وقد بنى الملك قردياس بها قصرا في أعلى المدينة ومعبدًا للاله ريوس وضع فيه كنذر للاله مركة ربط جزأها بعقد من الحبال يستحيل حلّه على كلّ إنسان . وكان يقال إنّ من استطاع حلّه احرز على ملك آسيا . وقد قطعه الاسكندر المقدوني سنة 334 ق.م . سيفه ميّيا كيف ينهي ان تحلّ العقد .
- (70) **بوكيفالوس** : اسم حصان الاسكندر . وكان حصانا أسوداللون قويّا . روصه الاسكندر في مقدونيا وهو شابّ يافع عندما عجز السائسون عن ترويصه . وصنحه بوكيفالوس في جميع غزواته وشقّ معه صحراء مصر الغربية وكذلك مفارة بلوشستان المفزعة و صعد معه الى الهدوكوش الوعرة المكلّلة بالثلوج في فصل الشتاء واقتحم مع الاسكندر جميع المعارك التي خاضها . وكان يرى دائما في طليعة الخيل حاملا على صهوته البطل المعوار بمجودته القديمة التي يعلوها ريش أبيض . ومات بوكيفالوس في إقليم السند أثناء « معركة الفيلة » التي هزم فيها الاسكندر الملك الهندي بوروس وحزن الاسكندر لموت حصانه وأمر بدفنه كما لو كان بشرا وبنى مدينة في السند قرب صريحه وسمّاها باسمه وهي بوكيفاليا .
- (71) **داريوس الثاني : (424 — 405 ق.م.)** كان داريوس ملكا للفرس في الفترة التي كانت تقاسي فيها الشعوب اليونانية ويلات حرب أهلية قامت بين أثينة وحلفائها من جهة وإسبرتا وحلفائها من جهة أخرى . وقد أطلق المؤرخون على هذه الحرب الطويلة الضارية التي دامت ثلاثين سنة « 429 — 404 ق. م » اسم «حرب اليبوبونيز» نظر الفرس الى هذه الحرب الأهلية التي كانت تهك أعدائهم بطرة الشماعة . وبدلوا الجهد لاضرام نار الفتنة كلّما أوشكت على الخمود باذلين الاموال الطائلة لشراء الصمائر أو لمساعدة فريق

على فريق آخر مفصلين أساليب الاعراء والحداد والديبلوماسية المدعمة بالمال على التدخل المباشر بواسطة السلاح.

لقد سار داريوس الثاني بطريقة حديدية لمعالجة الشؤون اليونانية نعهامس حلفه من ملوك هارس الى هاية ملك الانحييين على يد الاسكندر.

لما شق مرمران سرديس العارسي عصا الطاعة في وجه داريوس الثاني بمساعدة أثينة استعان الملك على الوالي الثائر يحد من المرتقة الإسرتيين أحمداو الثورة.

ولما واحه داريوس الثاني هنة ثابة في نفس الولاية أثارها اس واليه المهروم عقد معاهدة مع إسبرتا وأعلن الحرب على أثينة واحتل عددا من المدن اليونانية في الاناصول وفرص عليها الحرية وأزال نفوذ أثينة في المنطقة. واعترفت له إسبرتا بالسيادة على كامل مناطق بلاد الاناصول التي حل بها اليونانيون مقابل مال عظيم وهم إياها لتواصل الحرب صد أثينة.

وعندما اهرمت إسبرتا في معركة بحرية صد أثينة عوض لها عماله السمس المفقودة.

(72) بيرثوس : مدينة يونانية قديمة أسسها على شاطئ إقليم طراقيا مهاجرون من مدينة ميکارا الواقعة غربى أثينة والتحق بهم مهاجرون آخرون من إقليم بيوتيا. وكانت مركزا تجاريا هامًا ومردرها لوقوعها على الطريق البحرية التي تسلكها السفن القادمة من البحر الاسود والمحطة بالمقح والمعادن والاحشاب.

وقد استولى عليها فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 339 ق.م بعد حصار طويل دام سنتين. وقد أعان الفرس البيرثيين المحاصرين وذلك في عهد الملك أرتاكسركسيس الثالث «359 — 338 ق.م» لا في عهد الملك داريوس الثاني كما يقول الكاتب لان هذا الأخير كان ملكا على الفرس في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد كما سبق أن قلناه في الهامش المخصص لهذا الملك. وقد كان أرتاكسركسيس الثالث ملكا حارما شديد المراس ذكيا أحسن بأن ذلك الملك المقدوني الطموح الذي بسط نفوذه في البلاد اليونانية وفي الأقطار المحاورة لها ويحاول جمع كلمة اليونانيين بمثل خطرا حسيما يهدد الامبراطورية الفارسية. ولذلك نراه بعد إخماده الفتى الداخلية التي أضرمها مرازته في الاقاليم وقصائه على ثورة مصر العارمة بالحديد والبار وإحراقه مدينة صيدا فينيقيا لأحل تحالفها مع الثوار المصريين يتوجه شمالا الى إقليم طراقيا لمساعدة مدينة بيرثوس التي كان يحاصرها فيليبوس وذلك بعد ان عقد حلفا مع الأثينيين الذين كانوا يعتبرون متأثرين من زعيمهم ديموشثين أن فيليبوس أخطر عليهم من ملك الفرس

(73) فينيقيا : إقليم من أقاليم الشرق الأدنى. وهو شريط ساحلي على البحر الأبيض المتوسط لا يتجاوز عرصه أربعين كيلومترا يحده من الشرق جبل لبنان ويمتد من إقليم أوقاريت قرب اللادقية شمالا الى جبل الكرمل جنوبا على مسافة ثلاثمائة كيلومتر.

حل به مد الألفية الثالثة قبل الميلاد اقوام ساميون كنعانيون تعاطوا التجارة وخاصة منها التجارة البحرية لصيق أراضيهم وقلة مواردهم الفلاحية. وقد ساعد الفينيقيين على القيام بدور هام في التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط شرقية وعربية والمحيط الأطلسي والبحر الأحمر وفرة الأخشاب الصالحة لصنع السفن في حل لسان وموقع هيفيا الوسط بين وادي النيل وبلاد ما بين النهرين.

(74) سوريا : قطر من أقطار الشرق الأدنى. يحده البحر الأبيض المتوسط غربا وسلسلة جبال الطوروس شمالا وهر الفرات شرقا والجزيرة العربية جنوبا. سكن سوريا منذ الألفية الثالثة اقوام ساميون.

كانت سوريا حاضنة للفرس عندما زحف عليها الاسكندر وكبد داريوس هزيمة نكراء في إيسوس شمالي سوريا «333ق.م». احتلها كورس الكبير بعد سقوط نابل «539ق.م». وأسس بها ولاية قصبته دمشق

- تضمّ سوريا وفينيقيا وفلسطين وجزيرة قرص. وكانت تلك الولاية من أهمّ الولايات الفارسية لأن الأسطول الحربي الفارسي كان يسّره الفينيقيون وكانت موانئ الساحل السوري الذي هو ساحل فينيقيا مراكز لصناعة السفن وتعهّدها واصلاحها ومراسي حصية لها.
- (75) غزّة : مدينة ميعة تقع في المنطقة الجنوبية من فلسطين. احتلّها الاسكندر سنة 332 ق.م. بعد حصار دام شهرين. ولم تستسلم إلا بعد الهجوم الرابع عليها.
- (76) أمّون : هو سيّد الآلهة والبشر وأعظم إله كان يعبده المصريون القدامى. وما الآلهة الآخرون الا تجسيم لصفاته. في عبادته يتجلّى لون من توحيد الناري كان يدين به المصريون رغم تعدّد آلهتهم. الكباش هو حيوانه المفضّل. يصل الرائر الى معد أمّون سالكا ممرا يصعد من ضفة الهر الى الباب الرئيسي للمعبد بين صفّين من الأكباش المسحوتة في الصحر.
- نظرا للعلاقات الحميمة التي كانت تصل المصريين باليونانيين في جميع العهود وخاصة في عهد احتلال الفرس لمصر الذي كان عهد ثورات متوالية ضدّ العدوّ اختل سادها اليونانيون بطرا لاعتجاب اليونانيين بالحضارة المصرية التي كانوا يعتبرونها أرقى حضارة في العالم في عهدهم تأثر اليونانيون بالعقائد المصرية. وسرعان ما اعتقدوا أن الاله أمّون هو كبير آلهتهم زيوس. أنشأوا في بلاد اليونان معدا لزيوس- أمّون. وكان مركز أمّون للنبوة في واحة سيوة متصلا بمركز زيوس للنبوة في دودونا من إقليم إبيروس موطن أولمبياس أمّ الاسكندر. وكان الكهنة اليونانيون يتبادلون الرايات مع الكهنة المصريين. ولا شك أن كهنة أمّون بواحة سيوة كانوا ينتظرون زيارة الاسكندر لمعبدهم.
- (77) كليوبترا : امرأة مقدونية تزوّجها فيليبوس الثاني سنة 337 ق.م بعد أن طلق زوجته الأولى أولمبياس الأميرة الالبيرية. فغادرت هذه الأخيرة مقدونيا مصحوبة بانسا الاسكندر لتلحق ببيت أحبا ألكسندروس ملك إبيروس. ولكنّ فيليبوس استرحعها بعد مدّة قصيرة واسترصاها. ولما اعتلى الاسكندر العرش حلما لاييه سنة 336 ق.م. انتقمّت أولمبياس من ضرتها كليوبترا فأمرت بقتلها.
- (78) المولوس : شعب من شعوب إبيروس.
- (79) دودونا : يقع هذا المكان بين جبال إبيروس الوسطى في منطقة يكثر فيها شجر السنديان. واشتهر هذا المكان بمعبد الذي كان مركز نبوءة لكثير آلهة اليونان زيوس. وهو أقدم مراكز السوءات في البلاد اليونانية. وكان لزيوس مركز ثان للنبوءة في بلدة أولبيا من إقليم ايليس على الساحل الغربي من شبه جزيرة البيلوبونيز.
- (80) شجرة السنديان المقدّسة : يحصل كهنة دودونا على أجوبة زيوس عن أسئلة الحجاج الذين يقصدون معبد دودونا بتفسير خفيف أوراق شجرة سنديان بعينها عندما يهبّ عليها الريح. وكانت تعلّق في الشجرة المقدّسة أحيانا أوان تجعل بربها خفيف الأوراق أكثر وضوحا. وكانت كاهنات المعبد يستندن أحيانا في تأويلهنّ لأجوبة زيوس على هديل الحمام في أغصان شجرة السنديان المقدّسة.
- (81) كورنثة : تحتلّ مدينة كورنثة موقعا ميعا جعلها تسيطر على مدخل شبه جزيرة البيلوبونيز وتشرف على بحرين البحر الايوني شرقا والبحر الايوني غربا. وقد حصّن الكورنثيون موقعهم الممتاز بأن بنوا «سورا طويلا» متصلا يمتدّ في اتجاه العرب من المدينة الى الخليج الكورنثي وسلسلة من القلاع تتد في اتجاه الشرق الى الخليج السالورني. وكان أهل البيلوبونيز يعتبرون أنهم أمّون بفصل وجودهم وراء سور كورنثة الطويل وتحصيناتها.
- قد يسّر الروح الكورنثي عبور إسرنا وحلفائها لعمرو أثينا «إقليم أثينة» أثناء الحرب البيلوبونيزية 431 - 404 ق.م، التي انشّق فيها اليونانيون الى فريقين أحدهما بزعامة إسرنا والآخر برعامة أثينة. وانتهت حرب البيلوبونيز بهزيمة أثينة. وكان سبب نشوب الحرب بين الدولتين اليونانيتين العظيمتين التماس البحاري

الشديد بين كورنثة وأثينة وكنلثاها لها تحارة بحرية نشيطة. تنازعت المدينتان من أجل حرية كركيرا «كورفو» الحالية ومدينة بوتيداي بمقدونيا وكنلثاها مستعمرة لكورنثة. واشتدّت عداوة كورنثة لاثينة بعد الحملة التي قام بها الاثينيون بقيادة ألكياديس تلميذ سقراط على صقلية «415 - 413 ق.م.» للقضاء على سيراكوسا «سراقوسة» أهم مستعمرات كورنثة في تلك الجزيرة.

وقد احتلّ هيلبوس المقدوني سنة 337 ق.م كورنثة وعقد فيها إجتماعه الشهير مع ممثلي الشعوب اليونانية ذلك الاجتماع الذي اعترفوا له فيه بالسيادة عليهم وقيادة حيوش اليونانيين في حالة اندلاع حرب بينهم وبين العرس. وبقيت المدينة في قبضة ملوك مقدونيا وحولوها الى قفل يصدّ شعوب البيلوبونيز والى قاعدة عسكرية حالت دون تعاون أعداء مقدونيا وخاصة إسارتا مع أعدائهم في الخارج الى أن احتلّها الرومان سنة 146 ق.م ودمروها وهوا حيراتها وكنوزها في السنة نفسها التي أحرقوا فيها قرطاج وسوّوها بالأرض. أبيس : هو ثور مقدس يعتبره قدماء المصريين أكمل صورة للذات الالهية في شكل الحيوان. ولا يمثل الذات الالهية أي ثور بل ينبغي أن يتجمع في الثور المقدس أبيس سمات محددة وهي شامة بيضاء على الحيين وحطوط على الظهر توحى بصورة نسر أو عقاب وصورة جعل تحت اللسان. كان يعد الثور ويفرقه الكهنة بعد مدّة معينة في بركة مقدّسة ويحطّطون حتته ويجعلونها في تابوت حجري ويدفنونها في مقبرة بجانب المهد تجمع جميع الثيران المقدسة.

(83) هليو بوليس : مدينة مصرية قديمة كانت تسمّى باللغة المصرية القديمة «أون». بنيت قريبا من القاهرة الحالية. كانت تلك المدينة مركزا دينيا هاما. وكان إله المدينة «رع».

(84) منفس : مدينة مصرية قديمة على بعد خمسة وثلاثين كيلومترا جنوبي مدينة القاهرة. كانت عاصمة لمصر قبل طيبة. اسمها اليوناني الذي بقيت تعرف به مشتق من اسم مصري قديم هو : «من نفروبي» ومعناه مدينة هرم ببي وببي هذا هو ملك من الأسرة السادسة لفراعنة مصر اكتسبت أهميتها من موقعها بين الدلتا وصعيد مصر.

(85) باب إشتار : هو باب من أبواب مدينة بابل في الناحية الشمالية من سورها. واشتار هي إلهة الخصب عند البابليين. تدخل من هذا الباب المواكب الدينية التي تتوجه الى معبد إله المدينة «بال مردوك» أي المولى مردوك.

(86) معبد بابل الأكبر : هو معبد لإله مردوك.

(87) كسر كسيس : «486 - 465 ق م» هو ابن داريوس الكبير وخليفته على عرش فارس. نصسه أبوه عندما كان وليّ العهد نائبا له في عاصمة بابل والمقاطعة التابعة لها. وبقي نائبا للملك مدّة اثنتي عشرة سنة. وتوفي أبوه دون أن يهيي لإحماد الثورة العارمة التي اشتعلت في مصر فصعدته عن مواصلة الحرب التي شتّها على اليونانيين . فتوحه الملك الشاب الى مصر وأحمد الثورة بمنتهى القسوة والظراوة. واضطرّ أيضا الى مواجعة ثورة ثانية اندلعت في عاصمة بابل. فقضى على البابليين الثائرين عليه. وهدم اسوار المدينة. وأمر بإحراج صنم نال مردوك الذهبي من ناووسه داخل المعبد وأذاه ليرمز الى محو شخصيّة البابليين وإزالة طقوسهم الدينية التي تثبت كياناتهم كأمة لها حصارها الضاربة في القدم وخصوصيتها. وأمر بأن يفسخ من بين ألقابه الرسمية لقب ملك بابل فأصبح يسمّى ملك الفرس والميديين فقط.

كان كسر كسيس يتمنى أن ينقطع الى حياة الترف والذخ التي كانت تميل اليها نفسه. وكان ذلك شأنه عندما كان أبوه ما سكا رمام الأمور وكان هو نائبا له في مدينة بابل. ولكنّ اليونانيين المنفيين من أوطانهم الذين انضموا الى حاشيته لم يفتأوا يجرّصونه على أقوامهم. يقرر القيام بحملة ضدّ بلاد اليونان حتى يواصل

ما شرع فيه أبوه داريوس الكبير. فقصى أربع سنوات في حشد الجيوش من جميع أصقاع الامراتورية وجمع العدة والعتاد.

وفي سنة 580 ق.م. انطلق كسر كسيس في اتجاه البلاد اليونانية على رأس جيش عظيم يضمّ جيودا قدموا من ستة وأربعين قطرا بمقدومهم تسعة وعشرون أميرا جميعهم من الفرس يساعدهم في قيادة ألوية الجيش ميديون وبابلليون. وعبر الجيش مصيق الدردانيل على حسر من المراكب قام العبيقيون بموضعه وربطه. وبعد أن توسّل ملك الفرس الى الآلهة ليماركو الحملة وألقى في البحر تقرنا لهم كوبا وسيفا وقوسا عبر الجيش البحر ودام عوره سعة أيام وتدفق جيش فارس على إقليم طراقيا واحتله دون قتال كما استولى بعد ذلك على مقدونيا وئساليا مدون قتال أيضا. وخصص يونانيو المناطق الشمالية لملك الفرس. وررع الدعر في قلوب سكان أثينة واقترح فريق مهم التفاوض مع ملك الفرس ولكن أغلب مواطي أثينة عقدوا العزم على الصمود والتصدي للعاره وتحالوا مع إسبرتا والشعوب اليونانية الأخرى التي لم تظأ أرضها حدود الفرس وحشدوا الجيوش وجمعوا الأساطيل وقرروا أن ينتظر جيش الخلفاء بقيادة ليوبيداس ملك إسبرتا في المنطقة الحلية الوعرة التي تفصل إقليم ئساليا عن أرض اليونان. وفي مضيق ثرموبولوي والأبواب السحنة وسمي المضيق هكدا لوحود عيون معدنية سحة في ذلك المكان. وحاول الفرس عبور المضيق مرّات دون نتيحة لضيق الممرّ وعلوّ الجبال التي اعتصم فيها اليونانيون. ولكن أحد الخوة اليونانيين الذي كان يصحب جيش الفرس دلّ كسر كسيس على طريق حلية تمكّن من العور وتطويق المدافعين عن المصيق. ولما فطس قائد جيش الخلفاء بالمكنة أمر سائر المقاتلين اليونانيين بالانسحاب تاركا معه المقاتلين الاسريين وكان عددهم ثلاثمائة رجل ليحوض مع دويه من أهل مدينته معركة ليل المجد الأندى. وقتل الاسريون جميعا. وبقي مكان معركة ثرموبولي مكانا مقدسا ومزارا لليونانيين يؤمونه للترحّم على من رصوا بالموت حتّى يجلد ذكّهم وتبقى أرض يونان حرة. وكتبوا على الصرخ الذي وارى جثث القتلى : «أيها العريب اذهب وقل لمواطني إسبرتا انيا مدفونون ها هنا وقد نفذنا ما أمرنا به».

وانهال الجيش العظيم على إقليم آتيكا كالسيل الجارف مقتلا السكان ومحرقا المزارع ودخل مدينة أثينة التي جلا عنها سكّانها لاجئين الى جزيرة سلاميس فأحرقوا دورها ومعابدها.

وبقي أسطول الخلفاء يهوج في عرص البحر ليدافع عن شه جزيرة السيلوبيز وعن أسر الأثينيين التي نزلت بجزيرة سلاميس في الوقت الذي كان يقترب فيه الأسطول الفارسي من شواطئ آتيكا. و التقى أسطول الفرس وأسطول الأثينيين والاسبرتيين وحلفائهم في المصيق الفاصل بين آتيكا وجزيرة سلاميس. ودارت الدائرة على الفرس وهزم أسطولهم شر هزيمة رعم كثرة سفنه. وذلك بمرأى من كسر كسيس الذي كان يشاهد المعركة وهو جالس على عرشه الذهبي المنصوب على الشاطئ.

وغضب كسر كسيس لَمَا شاهد فداحة الخسائر التي لحقت الأسطول فأمر بقطع رأس أمير البحر الفينيقي. فانسحبت السفن الفيقية عائدة الى أوطانها وتعتبأ في الانسحاب سفن مصر. وقرّر كسر كسيس العودة الى فارس مع ثلثي جيشه تاركا الثلث الأخير بأرض اليونان بقيادة ماردويوس. حرت تلك الأحداث سنة 480 ق.م.

وواصل ماردونيوس الحرب وأحرق مدينة أثينة مرّة ثانية. ولكن هرمة جيش الخلفاء في معركة جرت في بلاتايا من إقليم بويوتيا سنة 479 ق.م. وشاء القدر أن أحرق الأسطول اليوناني سفن الأسطول الفارسي التي كانت راسية تحت جبل موكالي بالأناضول مقابل جزيرة ساموس.

وهكذا انتهت الحرب الميدية الثانية بانتصار اليونانيين وانسحاب الفرس عن القارة الأوربية.

واعتبِل كسر كسيس في قصره سنة 465 ق.م.

(88) **نيوكودونصر (605 - 562 ق.م.)** كان سوكوندونصر ملكا على بابل في القرن السادس قبل الميلاد. هو ابن بولاسار والي بابل من قبل ملك آشور. وقد تحالف ذلك الوالي مع كوكسارس ملك ما داي للقضاء على امراطورية الآشوريين. وحاصر الميديون والبابليون بيوى عاصمة الآشوريين التي تقع على دجلة قريبا من مدينة الموصل الحالية. وطال حصار عاصمة الآشوريين وش النوار عليها حرا مصر وسا لاهوادة فيها حتي دمرها تدميرا وقتلوا ساكها واختفت العاصمة الآشورية نهائيا ولم تثن من حديد وذلك مدة ألفين وخمسمائة سنة ولم يعثر على آثارها وكورها الفية وألواحها التي كتب عليها تاريخ ملوك آشور الآي العصر الحديث، ووقع ضمّ مواطن الآشوريين شمالي العراق الحالي الى أرض الكلدان التي تعطي جنوب العراق الحالي. وكان بولاسار أول ملك لمملكة جديدة صنت المنطقتين أطلق عليها المؤرخون إسم المملكة الكلدانية - الآشورية لامتزاج الشعبين الكلداني والآشوري مع انتقال العاصمة من بينوى على دجلة الى بابل على الفرات.

ورد اسم سوكوندونصر في النقوش كما يأتي : سو. كودور. أسور. ويسميه المؤرخون العرب

تختصر

شارك أنه في الملك واحتل مدينة القدس مرة أولى سنة 606 ق.م. في حياة أبيه وساق طائفة من سكّانها اليهود معه الى بابل وارلهم بها ونقوا هناك منفين مدة سبعين سنة الى أن سقطت مدينة بابل في قبضة كورس الكبير ملك الفرس سنة 538 ق.م. فقد سمح لهم هذا الأخير بالعودة الى مدينة القدس. وخلف نوكوندونصر أباه سنة 605 ق.م. ودام ملكه قرابة أربعين سنة قضاه في الحروب والغزوات لسط نعوذه على سوريا وفلسطين الذين كانا في منطقة نفوذ فراعنة مصر.

كان ملوك بني إسرائيل حلفاء لمصر مند عهد بعيد. وكان فراعنة مصر يعتبرون فلسطين ترسلهم يقبهم عارات الآشوريين ولما حلفت المملكة الآشورية مملكة كلدانية - آشورية جديدة لها نفس القوة والضاوة والطموح حاولت مصر صدها عن فلسطين وسوريا بجميع الوسائل. ولذلك هرع نحاو فرعون مصر الى سوريا بعد سقوط القدس في أيدي البابليين محاولا الاستيلاء على ذلك القطر حتي يحد من حركات البابليين التوسعية. فلاقاه سوكوندونصر وهرمه في معركة كركميش (605 ق.م.)

ولم تفت تلك الهزيمة في عزيمة المصريين فحرصوا اليهود الناقين في فلسطين على الثورة. فثارت مدينة القدس من حديد على البابليين. فحاصرها نيوكودونصر مدة سنة ونصف واحتلها ودمرها تدميرا (787 ق.م.) وساق مجموعة ثانية من سكّانها الى بابل ولحا من لم يقع في الأسر من اليهود الى مصر. ولم يقنع سوكوندونصر بالاستيلاء على مدينة القدس وفلسطين بل والى الغزوات للاستيلاء على جميع مناطق سوريا وفنيقيا. ودانت كامل مناطق سوريا لملك بابل ولم تقاومه من مدن الساحل السوري الآ مدينة صور التي حاصرها مدة ثلاث عشرة سنة ولم يقدر على احتلالها عنوة فعقد معها معاهدة صلح سنة 573 ق.م.

(89) **برسيبوليس** : معناها باليونانية « مدينة الفرس ». هي مدينة فارسية قديمة تقع قرب اصطخر في إقليم فارس. بناها داريوس الكبير في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. ووسّعها ابه كسركسيس. وكانت تسمّى بالفارسية القديمة « بارسا ». ومارالت آثارها قائمة الى اليوم يزورها الزائرون ولذا لم يبق منها إلا أطلال القصر الملكي. وقد أحرقها الاسكندر المقدوني سنة 331 ق.م. ليشأر للإحراق أثينة من طرف كسركسيس سنة 480 ق.م.

تحمل سقف قاعة العرش أعمدة طولها عشرون مترا تعلوها تيحان طولها متران نحت عليها صدور ثيران برؤوسها وتوص رؤوس الثيران أحيانا رؤوس بشرية ركبت على صدور الثيران. وتعطي الجدران

قروش باررة تمثل قدوم وفود شعوب المملكة من فرس وميديين ومصريين وفينيقيين وعرب قادمة بالجزية والهدايا الى الملك الخالس على العرش.

(90) **داريوس الكبير (522 - 486 ق.م.)** حلف **داريوس قمبيز بن كورس (529 - 522 ق.م.)**

فاتح مصر. كان داريوس أحد أقارب الملك قسیر وأمیر الحرس الملكي. اعتلى عرش فارس في ظروف صعبة استطاع التعلّب عليها بعريته الصمّاء ودكائه المعرط

عندما كان قمبيز متوعلا في الأراضي المصرية طهر دعّي في فارس واستولى على العرش بعد أن قتل أبا قمبيز الوصّي على العرش حمية وتسمّى باسمه لشدة الشبه بين الرجلين. ولما أتى بآ ذلك الانقلاب قرر قمبيز العودة الى فارس ومات في الطريق ولم يكن له ولد. ولم يؤيّد الجيش الدعّي رغم الشعبية الواسعة التي كان يمتنع بها وقد أعفى الناس من الضرائب لمدة ثلاث سنوات. وترأس داريوس مجموعة من ضباط الجيش عرمت على قتل الدعّي والإطاحة بالنظام الحديد غير الشرعي. وبادر داريوس بإتخاذ تدابير حارمة أدت بعد شهرين فقط الى القضاء على الدعّي وقتله ولكنه قصى ستين كاملتين في قمع الثورات التي اندلعت في أقاليم المملكة حتى رجع الهدوء الى بسانه واستقرّت الأوضاع.

كان داريوس من أسرة الاخمينيين المالكة. وكان أبوه هوستاسبوس العصد الأمين لكورس الكبير مؤسس امراطورية الفرس. عيّنه مرزباناً (واليا) على إقليم ماداي الذي يعدّه كورس أهمّ إقليم في امراطوريته بعد إقليم فارس وأصاف له الولاية على إقليمي هوركانيا على الساحل الجنوبي من بحر قزوين وبارثيا في أواسط فارس.

كان داريوس ملكا عظيما. أمّس المملكة كلّها بعد الإنتفاضات الخطيرة التي شهدتها. وأعاد تنظيم شؤونها على أسس جديدة لتفادي الحواب السلبية التي اشتملت عليها تنظيمات كورس الكبير. لقد كانت تطعيمات هذا الأخير مستوحاة من روحه التحرّرية ومن إيمانه باللامركزية في الحكم. فقد ترك كلّ الشعوب الحاضرة لسلطانه تسير شؤونها واكتفى بأن قسمّ الامبراطورية الى اثنتي عشرة ولاية يسهر على شؤون كلّ واحدة منها وال فارسي. فهذه التنظيمات شجعت الوايا الانفصالية عند الشعوب ودفعت الولاة الفرس في الأقاليم الى الطمع في الاستقلال بالفود. وقد كانت الإنتفاضات التي أوشكت أن تودي بالمملكة الفارسية في آخر عهد قمبيز درسا وعرة لداريوس. ولذلك فرض داريوس نظاما جديدا يعتمد التركيز الشديد على شخصية الملك. فجميع الأمور تعود إليه مهما كان المكان الذي يوجد فيه وجميع الأوامر تصدر عنه وتنفّذ ويراقب تنفيذها ويبلغ الملك بأقصى ما يكون من السرعة بواسطة بريد محكم نطمت مسالكه ومحطاته. وجعل بجانب كلّ وال مدني فارسي قائدا فارسيا أيضا يعود إليه أمر الحامية وجعل بجانبه صاحب خراج يجمع الضرائب الموظّفة ويرسلها مباشرة الى خزينة الملك. ودعّم هذا التنظيم المعتمد على توزيع مسؤوليات الحكم بإنشاء دائرة مراقبة ترسل الى الأقاليم موظفين كان يسمّهم المؤرخ اليوناني كسينوفون « آذان الملك وعيونه » فعين الملك موظف حوّل يقوم باسم الملك بمراقبة جميع المصالح الادارية وأذن الملك يراقب مصالح الشرطة والمحاربات.

كان داريوس يحشي عزوات القبائل المتهمجة التي كانت تتحرك في طاراقيا وسهول الدانوب وسهول روسيا الجنوبية وتعتبر أحيانا القوقاز محاولة الاستيطان في فارس. وكانت حماية حدوده الشمالية شمله الشاغل ولذلك عبر البحر عن طريق مضيق الدردانيل سنة 512 ق.م. لمحاربة قائل طاراقيا وسكوثيا. ولكن قبائل سكوثيا أعجزته لانها أتاهاته وحيشه في سهول روسيا الجنوبية فأحمر على العودة الى آسيا.

وفي سنة 498 ق.م. منح امتيازات تجارية لمصر ولمدينة صور فأثار ثائرة المدن اليونانية الواقعة على ساحل الأنابول فانفصت عليه وحاصرت مدينة سرديس من إقليم ليديا حيث كان يقيم الوالي الفارسي.

وصمدت الحامية الفارسية في قلعة المدينة. ولكنّ اليونانيين الثائرين على ملك فارس ارتكبوا زلّة عظيمة عندما عمدوا الى احراق معبد كوبالا إلهة المدينة. فثار عليهم سكّان سرديس الذين ساعدوهم في أوّل الأمر وهزموهم. وكان ذلك في سنة 498 ق.م. وكانت تلك الثورة اليونانية الشرارة التي أشعلت ما يستسى بالحروب المديدة بين الفرس واليونان.

هجم الجيش الفارسي بقيادة داريوس على المدن اليونانية في إقليم إيونيا فأخضعهما دون قتال. وقاومته مدينة واحدة ميليتوس. فدمرها واستر جميع سكّانها (494 ق.م.). وحيث أنّ ثورة إقليم إيونيا قد ساندتها يونانيو أوروبا قرّر داريوس محاربتهم. فعبر البحر عن طريق مضيق الدردانيل واحتلّ طراقيا ومقدونيا سنة 492 ق.م. ولكن كان هدفه الرئيسي للإذلال اليونانيين اخضاع مدينة أثينة التي بدأت تنزعّم اليونانيين قاطبة. فتوجّه الى إقليم آتيكا بجيش عظيم حمله الأسطول وانزل جانباً من جيشه في سهل ماراثون الذي يقع شرقي أثينة. فانطلق نحوه جيش صغير من الأثينيين؛ ولم ينتظروا قدوم الاسبارتيين وقاوموا حنود الفرس بحماس وبسالة نادرة حتّى هزموهم واجبروا فلولهم على العودة الى سفن الأسطول. وانسحب داريوس ولم يواصل الحرب ضد اليونانيين بسبب قيام ثورة عارمة في مصر أحرّج على مواجهتها بغاية السرعة وباقصى الحزم.

جرت معركة ماراثون سنة 490 ق.م. وتوفّي داريوس سنة 486 ق.م. تاركاً ثورة مصر لم تخمد. (91) إكتباتا : مدينة من إقليم ماداي (إقليم الحبل) في إيران. وتسمّى منذ العهد الاسلامي همذان. كانت عاصمة للميديين في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. واستولى عليها كورس الكبير ملك الفرس ومؤسّس الدولة الاخمينية سنة 555 ق.م. ووحد كورس بين القرس وبنى أعماهم الميديين وسمّى نفسه بملك الفرس والميديين. واتحد كورس إكتبات عاصمة صيفيّة له بجانب عاصمة باسرقاديس مهد أسرته وعاصمة السوس في إقليم إيلام. وحافظت إكتباتا على منزلتها كعاصمة من عواصم الامراطورية الفارسية طوال عهد الأسرة الملكية الاخمينية الى أن فتحها الاسكندر.

اشتهرت إكتباتا بكوز عظيمة أدّحراها هنالك ملوك فارس أثارت إعجاب الاسكندر لما دخلها. كما كان يضرب المثل بثناء سكّانها ومناهب الضخمة التي استخدمت فيها بوفرة أخشاب السرو والأرز ونقصورها التي جلّلت سطوحها بصفائح الذهب والفضّة.

تحيط بالمدينة سبعة اسوار بعدد السموات السبع طبقاً لعقائد الميديين. ويقع قصر الملك في قلب المدينة وراء السور السابع وهو كالشمس تحيط بها من كلّ جانب طبقات السماء السبع. واسوار المدينة تعلوها شرفات مختلفة الألوان كلّ لون يرمز الى سماء بعينها. وهي كالآتي من السور الخارجى الى السور الداخلى الذي يحيط بقصر الملك. فحجارة شرفات السور الأول بيضاء تليها شرفات سوداء فحمراء فزرقاء فبنية. أما شرفات السور السادس فهي مغطاة بصفائح الفضّة. وأما شرفات السور السابع الذي يحيط بقصر الملك فهي مغطاة بصفائح الذهب.

(92) بستوس : هو ابن عمّ الملك داريوس الثالث ومرزبان إقليم باكترياني (خراسان).

(93) جبل ألبوس : حل عظيم يفصل إقليم ثساليا عن إقليم مقدونيا. وهو حسب العقائد اليونانية منزل الآلهة.

(94) باسرقاديس : أسس كورس الكبير مدينة ملكية في مكان المعركة الفاصلة التي هزم فيها جدّه للأّم إستواقيس ملك الميديين. وسمّاها باسرقاديس ومعناها : « معسكر الفرس ». ونحن نعلم أنّه اختار مدينة السوس في إقليم إيلام (حورستان) عاصمة له في البداية ثمّ أضاف إليها عاصمة ثانية وهي إكتباتا (همذان) العاصمة القديمة للميديين ثمّ مدينة نابل بعد فتحها. ولكنّ باسرقاديس كانت مدينته الحاصّة المفضّلة. وقد بنى فيها القصور والمعابد بين الحدائق والساتين. وكان ملوك الفرس جميعاً يتّوجون في باسرقاديس.

- (95) القوقاز الهندي . هو سلسلة حبال الهدوكوش.
- (96) كورس الكبير (559 - 529 ق م) ويسمى بالعربية قورش. هو مؤسس الأمباطورية العارسية الأخمينية التي دامت أكثر من قرين من منتصف القرن السادس قبل الميلاد الى عهد الاسكندر المقدوني في الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد. دام ملكه عشرين سنة وهرم الميديين بعد حروب دامت ثلاث سنوات. وسقطت عاصمتهم إكثانا في قصته سنة 555 ق.ب. وصم مملكة الميديين المهرومين الى مملكة الفرس وعامل الميديين المهرومين معاملة حسنة وأبقى ولايتهم وموظفيهم في مناصبهم. واتخذ إكثانا عاصمة ثانية له يقيم بها في الصيف. ويقع في الشتاء بعاصمة السوس. وبعد ثلاث سنوات توخه عرما للاستيلاء على مملكة ليديا بالأناضول التي كانت مشهورة بثرائها العظيم بالأموال الصعبة التي تكسبت في سرديس عاصمة مملكة ليديا آتية من استغلال رمال هر ماکتولوس المحملة بمعدن الذهب ومن المكوس التي كان يفرصها ملك. ليديا على الصنائع التي تسلك إحدى الطرق التجارية الهامة التي كانت تصل الهد وشرق آسيا بالبحر الأبيض المتوسط مروراً على بابل. واحتل كورس سرديس وأسر ملك ليديا كريسوس (قارون) واستولى على كوزه. وان تلك الكميات الصعبة من الذهب التي سقطت في قصة كورس قد ساعدته أيما مساعدة على مواصلة فتوحاته وكانت البوابة لتلك الثروة الهائلة التي اشتهرت بها فارس مدة قرنين ونصف ومكنت ملوكها من حشد الجيوش وتجميع المرتزقة من شعوب مختلفة وحتى من الشعوب اليونانية وتغطية مملكة فارس والأقطار الأجنبية بشبكة من العيون والخواسب ووضع نظام محكم للربيد بوصل الأوامر والأبناء بسرعة لم يعهد لها مثيل في العالم القديم.
- وعرض كورس الأمان على المدد اليونانية الواقعة على ساحل الأناضول والتي كانت تدب بالولاء لمملكة ليديا مستفيدة بآثارها الاقتصادية العظيم وثروتها الطائلة. وأوكل لقادة بعض قبائل من جيشه مهمة فتح تلك المدن وانزل حاميات فارسية بها. فرفضت جميعاً أمام الملك ماعدا واحدة وهي ميلتوس. فأحر قادة الجيش الفارسي الذين عهد اليهم مواصلة العمليات الحربية في الأناضول على فتحها عوة الواحدة بعد الأخرى.
- وقضى كورس ثماني سنوات يوالي الغزوات لتوسيع مملكته من ناحية الشرق. فبدأ بفتح إقليمي هيركاسيا ومارثيا الذين كانا تابعين لمملكة ماداي. ثم استولى على إقليم أراخوسيا وباكتراني وعبر نهر سيحون (أموداريا) وجعل من هر حيجون (سرداريا) حدا أقصى لمملكته من ناحية الشرق.
- وأحسن عند ذلك بأنه أتى دور بلاد الكلدان فتوجه الى مدينة بابل العظيمة فاحتلها دون عاء لأن أهلها استقبلوه بخفاوة ولم يدافعوا عن أنفسهم وقد صاقوا ذرعا من تصرفات ملكهم السيئة. كان ذلك سنة 538 ق.م. وعامل كورس البابليين بالحسنى وأمر باعادة بناء معابدهم التي دمرها ملكهم. وأعاد أسرى اليهود الذين سبق بهم الى بابل الى أوطانهم.
- وقضى كورس ثماني سنوات (من 538 الى 530 ق.م.) في تنظيم مملكته الشاسعة. ولكنه أحر في آخر عهده على التوجه بجيشه الى الحدود الشرقية التي كانت تهددها قبائل بدوية متهمجة شرسة تقطع بأواسط آسيا. وقتل كورس في سباسب آسيا الوسطى وكان عمره آنذاك واحدا وسعين سنة. وعاد صحه بجثانه الى عاصمة باسرقاديس حيث أقيم له صريح مازال ماثلا الى اليوم.
- لم يكن كورس الكبير ملكا جبارا ولا طاعية سفاحا بل كان ملكا عادلا احترام أديان الشعوب التي فرض عليها سلطانه وأبقى الحكام في مناصبهم وترك كل شعب يسير شؤونه نفسه حسب تقاليده يقول عنه الشاعر اليوناني ايسخيلوس : لم يقم عليه القدر لأنه كان ملكا حكيما وبعده أرسطوطاليس من بين محرري البشر.

(97) أبلون : هو إله التور عند اليونانيين. يقر اسمه بالشمس. فهو الذي يسيرها في تطوافها حول الأرض. هو ابن زيوس كبير الآلهة من امرأة اسمها ليتو لاحقتها عيرة الإلهة هيرا روجه زيوس الشرعية فطافت في الأرض حتى انتهت الى جزيرة ديلوس اليونانية فوصعت هنالك أبلون إله الشمس وأخته التوام أرتيميس إلهة القمر.

يحمل أبلون القوس ويرسل سهامه فيصيب البشر بالأمراض والأوبئة. ولكته قادر في نفس الوقت على علاج المرضى. فهو إله التطبيب أيضا. وأبلون إله فتان أيضا يحمي الشعراء والموسيقيين ويعزف على القيثارة. وله احتصاص آخر فائق الأهمية فهو إله البوئات وصاحب الغيب. يرور الحجاج معبده بمدينة دلفي لطرح أسئلة على كاهنته.

(98) نهر السند : يسمى اليوم نهر هندوس. وكان اسمه القديم باللغة السنسكريتية «سندهو» ومه اشتق العرب تسميته بنهر السند. هو نهر من أنهار آسيا الجنوبية. طوله ثلاثة آلاف وأربعون كيلومترا. يسع من جبل كايلاس في إقليم التبت. ويجري في مصاب ذلك الاقليم في اتجاه شمالي غربي حتى يصل الى اقليم كشمير وهناك يتجه نحو الجنوب. وعندما يشق المنطقة العربية من الباكستان ينصب فيه نهر كابل الآتي من افغانستان. ثم يشق إقليم سجاب وهناك تنصب فيه خمسة أنهار وهي ستلاج وبياس وراوي وشناب وجمالوم (هوداسيس). وقد سمي إقليم سحاب بهذا الاسم لأنه إقليم تسيل فيه خمسة أنهار جميعها روافد لنهر السند. ويعبر عن عدد خمسة بالفارسية بلفظ سج. ثم يجري نهر السند على أطراف صحراء ثار ويشق مقاطعتي قطري وحيدرآباد وينصب في بحر عمان بعد أن يتفرع الى فروع عديدة تعطي مساحة من الأرض قدرها ثمانية آلاف كيلومتر مربع. وتقع مدينة كراشي على الفرع الغربي من نهر السند.

وقد انحدر الاسكندر بأسطوله في نهر هوداسيس ثم نهر السند ولما وصل الى مصب نهر السند في بحر عمان اندهش عندما شاهد وحنوده المد والجزر لأول مرة.

(99) بوروس : هو الملك الهندي الذي أعلن الحرب على الاسكندر لما انتهى وحيشه الى إقليم البنجاب. ولم يصنع مثل منافسه ملك تاكسيلا الذي فضل المهادنة مع الاسكندر ومد يد المساعدة له أملا أن يقصي الاسكندر على عدوه الملك بوروس.

التقى جيش الملك بوروس العظيم المعزز بثلاثمائة فيل سنة 326 ق.م. مع جيش الاسكندر على ضفة نهر هوداسيس ودارت بينهما معركة طاحنة سميت «بمعركة الغيلة» كانت العلبة فيها للاسكندر. وسقط بوروس مشحوا بالخراب وأسر وقدم الى الاسكندر. فسأله كيف يتمي أن يعامله من غلب فقال : عاملني معاملة الملوك فقال الاسكندر : وهل تضيف شيئا آخر ؟ فقال : كل ما أريده تنصبه هذه الكلمة. روى هذه القصة المؤرخ اليوناني بلوتارخوس. وأعجب الاسكندر بأفة ذلك الملك فأعاده له ملكه وجعل منه حليفا له. وربما أراد بذلك الصنيع — وهو ينوي مواصلة فتح الهند لولا إحجام حوده عن مواصلة المسيرة — أن يستميل القلوب ادا انتشر خبر حلمه وأريجته في الاصقاع وأن يحافظ في المنطقة التي فتحها على تعادل القوى بين الملكين الهنديين ملك تاكسيلا وبوروس حتى لا يناهضه أحدهما حشية رد فعل الآخر.

(100) هوداسيس : هو أحد الأنهار الخمسة التي تنصب في نهر السند عندما يشق إقليم سجاب. ويسمى اليوم جمالوم. عره الاسكندر في شهر يونيو من سنة 326 ق.م. في فصل فيضانه وهزم على صفته الملك الهندي

بوروس

(101) بوكيفاليا : مدينة أسسها الاسكندر على صفة الهوداسيس قريبا من القر الذي دهم فيه حصانه بوكيفالوس.

(102) عمودا هراكليس : هو الاسم اليوناني القديم الذي كان يطلق على الحبلين الصخرين جبل طارق وحبل ستة الدين يمر بينهما خليج جبل طارق الذي يصل بين المحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط. تدعى

- الأساطير اليونانية أن السطل اليوناني هراكليس حمر الخليج ووضع على صفته عمودين هما الحلان المذكوران
فسميًا بعمودي هراكليس
- (103) **أوديسوس** . أحد أبطال ملحمة الإلياذة والسطل الرئيسي للمحمة الأوديسا كان ملكا على جزيرة إيثاكي
التي تقع في البحر الأيوني حولي جزيرة كرفو الحالية وكان دكيًا فطاشته بروره ودهائه حتى كان
هوميروس يسميه «السطل ذو الألف حيلة». يدي بالرأي الصائب في أكثر من ماسة وإليه تعود دائما
تهمة المكائد ونصب الكمائن للعدو أثناء حرب طروادة وهو الذي دتر مكيدة الحصان الخشي ندي
احتفى في بطه مقاتلون يونانيون وحره الطرواديون داخل مدينة إليون. فكان دخول ذلك الحصان الخشي
الى المدينة سببا لسقوطها لأن المقاتلين المختصين في بطه حرحوا ليلا وتحتوا أبواب المدينة فدخلها اليونانيون
وبتوا أهلها.
- (104) **نيكيا** : مدينة أمر الاسكندر ببناءها بالقرب من بوكيفاليا.
- (105) **قدروسيا** : ولاية من ولايات الامبراطورية الفارسية كانت تقع شمالي الخليج وشرقي إقليم كرمانيا وحول
إقليم أراخوسيا. وتعطي هذه الولاية الفارسية القديمة اليوم إقليم مكران وحاسا من إقليم بلوشستان
- (106) **بيثونيا** . إقليم في آسيا الصغرى يقع على ساحل البحر الأسود والوسفور
- (107) **بتاله** . مدينة في إقليم السد
- (108) **قورينا** . مدينة يونانية قديمة (كانت تسمى باليونانية كورينا) أسسها في منطقة برقة ليبيا الحالية سنة 631
ق.م. مهاجرون من جزيرة ثيرا اليونانية (سانتورين الحالية).
- (109) **ديونيسوس** : هو إله الكروم والخمر. ويسمى أيضا ناموس كان في البداية إله طرافيا انتشرت عاداته
في البلاد اليونانية ولم يفسح له مكان بين آلهة الأولمبس كان يدعو الى الشوة وإثارة كواس النفس وانوح
الصوتي الذي ينتهي بالانحداد مع داته الآلهة في حالات تشبه الهوس وذلك بالسكر والعرندة وإقامة الطقوس
التهنكية الصاحبة المعتمدة على الصرب على الطللات والمعج في المرامير وكان ديونيسوس يمثل في صورة
شاب وسيم سكران متوح بأوراق الكرم يركب عربة تحرها الثور يتبعه شيخ أصلع سكران أيضا يركب
حمارا وهو صاحبه الشيخ سليوس ويتبعه ركه جماعة من السوة الرافضات الصاحات. وكان كلما مر
بقطر أثار فيه موجة من الصحب والوحد الصوتي طاف في الأرض وقبل إته وصل في تطوانه الى المد
- (110) **تالنتون** : كمية من المال كان يشتها اليونانيون في حساباتهم تساوي في أنية ستة آلاف دراهما فضية والدراما
عملة فضية أثينية ترن أربعة عرامات ونيفا من الفضة وتقدر هذه الكمية من النقود ستة وعشرين كيلوغراما
من الفضة. وقد يكون التالنتون مقياسا للعملة الذهبية فيكون مقداره في هذه الحالة ستة وعشرين
كيلوغراما من الذهب ونحن نعلم أن الاسكندر ورث عن أبيه العملة الذهبية التي بدأ بصرها مند استولى
على مناحم ذهب إقليم طرافيا. ونعلم أيضا انه استولى على قناطير من الذهب في كور ملوك فارس المودعة
في عاصمتي السوس واكتانا.
- (111) **السلتيون** : ويسمهم اليونانيون كلتوي. وهم يتمون الى شعب مميّر كان يقطن في عهد الاسكندر في
رقعة واسعة من أوروبا الغربية تمتد من بريطانيا الى شمالي ايطاليا واسايا وفرنسا
- (112) **الاياريون** . أو الايريون يتمون الى مجموعة شعوب حل معظمها باسايا فسميت بشة الجزيرة الابيرية
وكان قسم من تلك الشعوب يقطن بعض جهات من بريطانيا وإيطاليا.
- تأثر الاياريون بالعبيقيين واليونانيين الذين أسشأوا مستعمرات في حوب اسايا وفرنسا وكانوا يجاريون
دائما حيراهم السلتيين
- (113) **بحر قزوين** . بحر محصورة حدوده ليس له اتصال مع أي بحر آخر يفصل بين آسيا وأوروبا يمتد من الشمال

- الى الجنوب وله شكل مستطيل. تحيط به أقاليم القوقاز وكزاحستان وتركستان وإيران. مساحته أربعمائة وأربعة وعشرين ألف كيلومتر مربع. ينصب فيه نهر الفولقا.
- كان يسميه جغرافيو العرب أيضا بحر الحر، وكان اسمه باليونانية «كاسبيون يلاقون» أي بحر الكاسبيان.
- (114) **الاله بال :** هو الاله مردوك الذي كان يعده الكلدان في مدينة بابل. وقد اشتبه أمر تسميته على بعض القدماء فطوبوا أن اسم إله بابل هو بال في حين أن بال معناه المولى وكانت تصاف عند الانتهاج بالاله مردوك الى اسمه فيقال بال مردوك ومعناه المولى مردوك.
- (115) **هرموديوس — أرسطوقيتون — هبارخوس :** حاك هرموديوس مع أرسطوقيتون سنة 514 ق.م. مؤامرة هدها اغتيال هياس بن بيسستراتوس طاغية مدينة أثينا. وعندما ظن أن أمرهما قد كشف قتل أول رجل من أسرة بيسستراتوس اغترصهما. وكان ذلك الرجل هبارخوس. فقص عليهما، وأعدم هرموديوس وبالغوا في تعذيب شريكه في المؤامرة أرسطوقيتون.
- ولما أطاح الأثينيون بنظام الطغاة التعسفي وأبدلوه بنظام جمهوري مجدوا ذكرى هرموديوس وأرسطوقيتون وعدّوهم من بين شهداء الحرية.
- (116) **أورانوس :** هو إله السماء وهو ربّ قديم عند اليونانيين سبق عهد آلهة الأولمبوس الذين استقروا بذلك الجبل تحت إمرة زيوس.
- (117) **دلفي :** بلدة مقدسة في إقليم فوكيس الواقع في المنطقة الوسطى من بلاد اليونان. وإقليم فوكيس هذا يحتل شريطا من خليج كورنثة والوادي الأعلى على ضفتي نهر كيغيسوس وسلسلة جبال برناسوس.
- وسيت بلدة دلفي على السفح الجنوبي الغربي من جبل برناسوس وفيها مركز نبوءة الاله أبلون. وكانت لذلك المعبد شهرة واسعة في جميع الأقطار اليونانية يأتيه الرّوار من كل مكان لطرح أسئلتهم على الاله أبلون إله النبوءات. وكان رعاة اليونانيين وقادتهم يقصدونه أو يرسلون إليه وفودا لاستشارة الاله في الأمور المهمة التي تحتاج الى اتخاذ القرار المناسب كما يؤمّ المعبد رجال وساء من جميع طبقات الشعب لطرح مشاكلهم راجين إشارة أو توجيها لمواجهتها ما هو عائب عنهم. قد سئلت كاهنة أبلون في دلفي عن سقراط كما قصدها الاسكندر المقدوني قبل القيام بعزاته الكبرى.
- وقد حجت شهرة مركز دلفي شهرة المراكز الأخرى المشابهة له في الوظيفة مثل مركز سوء الاله ريوس بدودونا. وتكدست في معبد أبلون الدور الثمينة والكنوز حتى أثارت أطماع بعضهم رغم أن المعبد وكامل المنطقة المحيطة به كانت منطقة حراما ووقفا على الاله أبلون.
- كان يوجد في وسط المعبد حجر مقدس في شكل سرّة الانسان (أمفالوس باللغة اليونانية). وكانت كاهنة أبلون المختصة بكشف العيب على لسان الاله والمسماة «بيثيا» تجلس بذلك المكان على مقعد ذي ثلاثة قوائم وتجيّب عن أسئلة السائلين بكلام مهم وهي في حالة اضطراب شديد يشبه الهوس. وكان هناك كهنة يقومون بتلخيص أسئلة الرّوار وتفسير كلام البيثيا وتسجيله بكلام مظلوم يحتمل تأويلات مختلفة.
- وقد كانت البيثيا تسأل عن مختلف المشاكل الشخصية كالصفقات التجارية والزواج وأسباب العقم كما كانت تعدّ عليها وفود رسمية من المدن اليونانية تسألها عن جدوى سياسة متبعة أو تستشيرها عن المكان الذي احتارته حارح البلاد اليونانية لتأسيس مستعمرة جديدة ترسل اليها مجموعة من مواطنيها ضاقت بهم سبل العيش في موطنهم.
- وقد اتهم قديما كهنة دلفي بتروير النبوءات والتحجّر لأنظمة سياسية معينة والتورط في مآورات سياسية.
- (118) **أنتيباتروس (397 — 319 ق م)** كان العصد الأيمن لفيلبوس الثاني ملك مقدونيا ولأنه الاسكندر الكبير من بعده. وكلفه الاسكندر بأن يوب عنه في تسيير شؤون مملكة مقدونيا عندما عاذهها للقيام

بفتوحاته. وحافظ على ذلك المنصب طوال المدة التي قصاها الاسكندر غائبا عن مقدونيا. وعندما توفي الاسكندر سنة 323 ق.م. واقتسم مملكته قواد جيشه كانت مقدونيا والأراضي اليونانية الواقعة في أوروبا نصيب أنتيباتروس. وأرغم هذا الأخير في السنوات القليلة التي عاشها بعد موت الاسكندر على محاربة اليونانيين الذين شقوا عصا الطاعة تحريض من الخطيب والرّعيم الأثيني ديموستينيس الذي طنّ أن الظروف أصبحت مواتية ليُتحرر اليونانيون جميعا من نير المقدونيين بعد موت السط العظيم الذي استطاع أن يخضعهم ويشاركهم في حملته الكبرى. ولكن أنتيباتروس قدر على إخماد جميع الثورات التي اندلعت في الاقطار اليونانية. وسَمّ ديموستينيس نفسه لَمّا حاصره جنود أنتيباتروس وهو لاجئ في معبد بوسيدون في جزيرة كالوريا. (119) روكسانا إحدى زوجات الاسكندر وأقربها الى نفسه. ساهبا سنة 327 ق.م. عندما أَسَر أنها أوكسيارتيس والي مقاطعة ناكرياني (خراسان) بعد حروب طويلة وضارية أبل فيها ذلك المرزبان الفارسي البلاء الحسن. وربما كان ذلك الزواج من أميرة تنتمي الى أسرة فارسية ماجدة طريقة لاستئالة قلوب الفرس في الفترة بالذات التي كان يريد فيها الاسكندر أن يؤلف بين قلوب الفرس واليونانيين ويسوّي بينهم ولدت روكسانا للاسكندر ابا وضعت بعد موت أبيه وسَمّي الاسكندر الرابع أيقوس. وحاول برديكاس أحد قواد الاسكندر الاقربين أن يعرضه كخليفة لابيه والصّي مارال في المهدي ولكنه أحمق في محاولاته واعتُبل سنة 321 ق.م. وقتلت روكسانا في مدينة بودنا بمقدونيا سنة 316 ق.م. قتلها كاسدروس عندما استولى على مقدونيا والبلاد اليونانية.

(120) إخور . يحدث للآلهة أن يشاركوا في الحروب الى جانب الشر ويحدث لهم أيضا أن يقتاتلوا. هذا ما كان يعتقد اليونانيون القدامى. وفي الالابدة مشاهد يرى فيها الآلهة يقاتلون الى جانب هذا الفريق أو ذاك أو ابراهم يتصادمون شاهرين السلاح على بعضهم وقد تقمصوا أحسادا بشرية. اهم لا يحشون الموت لانهم حالدون ولكن يجرحون ويتألمون ويسيل من جراحهم سائل يسَمّي إخور . (121) نيبال : إقليم يقع شمالي الهند. مساحته مائة وأربعون ألف كيلومتر مربع وهو محاور لإقليم التبت من ناحية الجنوب.

(122) التبت : إقليم يقع في أواسط آسيا مساحته مليون ومائتان وخمسة عشر كيلومتر مربع يتكون من هضاب مرتفعة قاحلة وجمال عالية تتحاور دائما في ارتفاعها ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر. تشرف على إقليم التبت من ناحية الجنوب جبال حملاها الشاهقة. هذا الاقليم تابع اليوم للصين.

(123) المنتخب الشعري الاسكندراني البلاطيني : مؤلف قديم يحتوي على مجموعة من القطع الشعرية اليونانية القصيرة قام باختيارها وجمعها علماء من بربطة عاشوا ما بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر الميلاديين وان أحسن نسخة لهذا المنتخب وقع تحقيقها اعتمادا على مخطوطة عثر عليها سنة 1616 العالم الفرنسي سوميز بالمدينة الجامعية الألمانية هيدلبرق وبمكتبة أمراء مقاطعة بالاطيا الألمانية. فسمي المنتخب الشعري باسم تلك المقاطعة.

(124) سكيولي مدينة يونانية قديمة كانت في إقليم طراقيا (125) تاكسيلا : موقع أثري فيه أطلال مدينة قديمة وتقع تلك الآثار شمال غرب مدينة بشاور باكستان كانت تلك المدينة في العهود القديمة مركزا علميًا شهيرا ومعقلا من معاقل الديانة البوذية

الفهرس

- 3..... تنبيه مترجم النص
- 5..... نتف من حوار مع رهبان هنود بمدينة بيناريس
- معزوفة الاسكندر على المقام الكبير
- 7..... بقلم مترجمه أريان النيكوميدي
- 9..... باب يبين فيه الكاتب كيف حاك هذه الحكاية وصاغها
- بابل في يوم من أيام الصيف
- 14..... الحارس تزيلال والمخطوط السري
- 17..... بداية سيرة الإسكندر الكبير أو خوف إله
- بعض المعطيات عن نشأة الاسكندر
- 21..... وعن أبويه فيليبوس وأولمبياس
- المؤرخون المفاقدون للوعي التاريخي
- 25..... صيد الأسد
- 29..... أستاذي أرسطوطاليس
- 34..... يوم انطلاق الحملة الكبرى الشعراء معي
- 41..... بشر وآلهة — المتملقون والساخرون —
- 48..... «ساقه طالعه النحاس إلى ذلك المكان»
- 56..... بابي الخفي
- 62..... اسكندرיתי وبابل
- 66..... الاسكندر المقدوني يريق الخمر تقربا للآلهة
- 71..... ضياء الحريق
- 76..... موت صديق
- 82..... استطراد قصير لمالك المخطوط
- 86..... صححات
- 87..... عودة الى المخطوط — الصحراء حولنا وفي أنفسنا —

- لغة مشتركة وعالم موحد 91
- وئام وتداول السلطة بين المقدونيين والفرس 95
- غبية إله 99
- مالك المخطوط يدل كيف أعفل الاسكندر ذكر أحزانه
- في فترة الحداد لموت هفستيون ولماذا أغفلها 102
- يقدمون الذبائح الى روح هفسيون كما لو كان الها 104
- شرح موحز يقوم به مالك المخطوط 107
- ثناء اليونانيين 108
- يعدونه إلههم الثالث ولا يفكرون به 111
- «لتكن هذه الأغنية بلسما لقلوبنا» 114
- النصر 118
- مالك المخطوط يتدخل من جديد 120
- من هنا وهناك حول موت الإسكندر 123
- خاتمة موجزة وتكميلية لكاتب سيرة الاسكندر أرياس السيكونيدي 126
- كان في واقع الأمر إلهها أو الخاتمة الثانية
- على لسان مالك المخطوط 128
- الدورة الأخرى 136
- الهوامش 139

الطبعة الأولى

طبع بمطبعة الشركة التونسية للتوزيع

شارع 20 مارس

باب سعدون - تونس

CP 10/10/88

نوفمبر 1989

نسطور ماتساس

كاتب ومخرج سينمائي إغريقي معاصر . نشر عشرين كتابا ترجمت إلى عدة لغات وأخرج أفلاما ثقافية . وأحرز في بلده على الجائزة الوطنية للآداب كما منحته أكاديمية أثينا بجائزتها عن مجموع إنتاجه

مذكرات الإسكندر الكبير

تخيّل الكاتب أنّ الإسكندر ربّما دفع في يوم من الأيام وفي أشدّ حالات المرض والحيرة إلى كتابة مذكرات شخصيّة قد يعود إليها وحده وهي هي جميع الحالات غير معدّة لأن يطلع عليها غيره . وادّعى نسطور ماتساس أنّه عشر أثناء زيارته لأطلال مدينة بابل على مخطوط للإسكندر أهده إياه حارس المدينة . ولا شكّ أنّ هذا المخطوط لم يوجد ولم يستأدّ الكاتب ولكنّ ادّعاءه هذا ضرب من التشويق تنمّي تعليقاته على المخطوط وذكره للمدن القديمة والمواقع التي زارها في آسيا وهو يسير على خطى الإسكندر.

ISBN 9973 - 11 - 156 - 7

السعر : 3,500 د.ت.
أو ما يعادله

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج - تونس